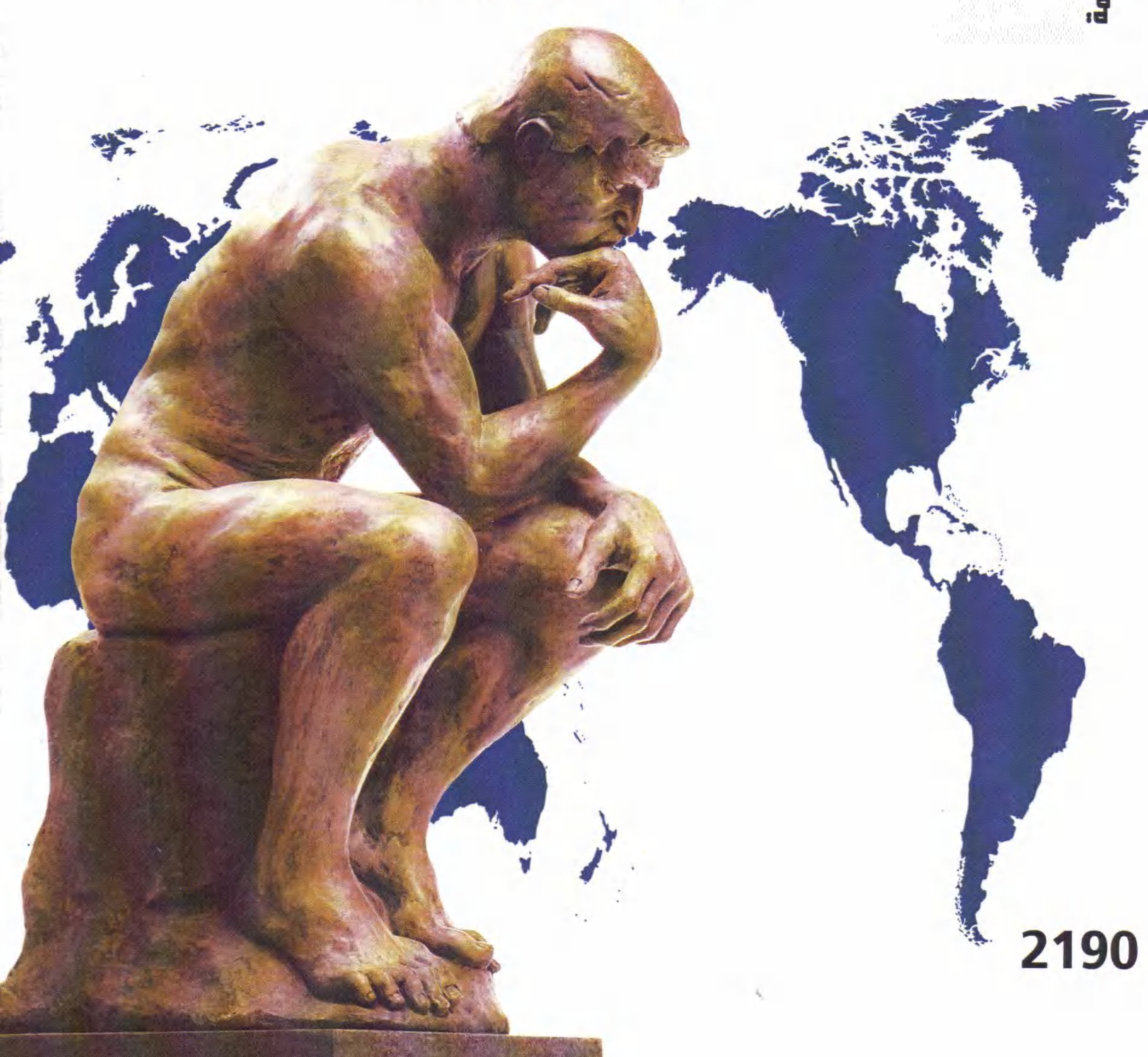
ريتشارد إى . نيسبيت

جغرافية الفكر

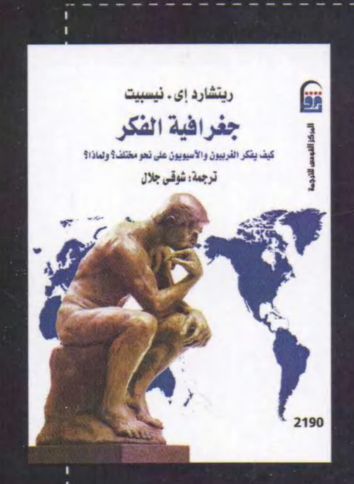
كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف؟ ولماذا؟

ترجمة: شوقى جلال

المركز القومى للترجمة



2190



هذا الكتاب جديد فى منهجه وموضوعه وأفكاره وتنبؤاته، يتحدى بديهات مثل أن جميع الناس يفكرون بطريقة واحدة فى كل أنحاء العالم، أو أن العقل قسمة مشتركة متساوية المحتوى والمنهج بين الجميع. يبحث فى الأصول الاجتماعية للعقل: كيف يفكر الناس، بل وكيف ولماذا يختلفون فى إدراكهم، بل وفى رؤيتهم البصرية؟ ولماذا اختلفت طريقة التفكير، واختلفت النظرة إلى العالم بسبب اختلاف وتباين الهياكل الاجتماعية والإيكولوجيات والفلسفات ونظم التعليم منذ آلاف السنين وحتى اليوم، مع شواهد من الإغريق والصين قديماً.

إنه خارطة توضح الفواصل بين الثقافات والرؤى أو المعرفة. تكشف أن هناك فكرياً وثقافياً ومعرفياً عوالم لا عالم واحد، ويحدد أيضاً الجسور للوصل بينها، ويعرض تنبؤاته فى ضوء التحولات العالمية الجديدة.

جغرافية الفكر

كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف؟ ولماذا؟

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2190
- جغرافية الفكر: كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف... ولماذا؟
- ريتشارد إى. نيسبيت
- شوقى جلال
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

THE GEOGRAPHY OF THOUGHT:

How Asians & Westerners Think Differently and Why

By: Richard E. Nisbett

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

جغرافية الفكر

كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف؟ ولماذا؟

تـــــــــأليف : ريتــشارد إى. نيــسبيت

ترجمـــــــــة : شـــوقى جـــلال



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نيسبيت ، ريتشارد إى.
جغرافيـة الفكـر: كيـف يفكـر الغربيـون والأسـيويون علـى نحـو مختلـف؟ ولمـاذا؟ تـأليف: ريتـشارد إى. نيـسبيت، ترجمـة: شوقى جلال.
ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٣٠٤ ص ، ٢٤ سم
١ - الثقافة الغربية.
٢ - الثقافة الآسيوية.
(أ) جلال، شوقى (مترجم)
(ب) العنوان ٣٠١,٢

رقم الإيداع ٨٩٦٣ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N - 978-977-216-084-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

كلمة المترجم

هل البشرية بسبيلها إلى تغيير أسس الفكر وقوانينه جذريًا؟ هل أصبح لزامًا مراجعة أسس الفكر أو التفكير الإنسانى؟ إحدى مسلمات فكر التنـوير الغربى أن أنماط الفكر البشرى واحدة أينما كان البشر فى الغـرب أم فـى الشرق. وساد هذا الاعتقاد بوصفه قانونا حاكما للفكر، وأن طبيعـة الفكـر البشرى كونية أو كلية. معنى هذا أن الناس أينما كانوا وأيًا ما كانت ثقافاتهم يفكرون ويستقرئون ويستدلون وفق منهج ومنطق واحد؛ ويصنفون الوجـود ويرونه ويدركونه على نحو نمطى واحد.

عشنا قرونًا نؤمن بأن العقل – (الفكر) واحد بين البـشر، وأن مـنهج التفكير الصحيح أو المنطق واحد فى كل زمان ومكان، ورؤيتنا للعالم واحدة. وظلت السيادة للفكر الصورى الأرسـطى، منـذ الإغريـق، هـو القاعـدة والمرجعية، ثم ظهرت معه ومن بعده منذ عصر النهضة مـدارس منطقيـة إضافة إليه، وتحديدًا لمجال تطبيقه دون أن تنفى أو تعـدل بعـض أسـسه ومبادئه. ذلك من مثل قانون أو مبدأ عدم التناقض الذى يفيد أن القـضية لا تكون صادقة وزائفة فى آن واحد، ويمتنع أن يوجد الشىء وأن لا يوجد فى آن واحد؛ أو من حيث علاقة الجزء بالكل والقول بأن العـالم مؤلـف مـن أجزاء، وأجزاء اليوم هى أجزاء الأمس والغد. ناهيك عن القـول بالحتميـة والموقف من الفعالية الإنسانية.

ولكن هل آن لنا أن نسمع ونقرأ عن نهاية أو ما بعد مدارس المنطـق الغربية وتظهر مدارس جديدة لمنطق جديد؟

إن النظرة الاستقصائية النقدية لعالمنا تكشف عن أن العالم مع مفتتح القرن الواحد والعشرين أصبح ظاهرة فريدة جديدة غير مسبوقة، ظاهرة حبلى بالتناقضات والنذر والبشائر، وكذلك بتحولات نوعية فى مسيرة تطور البشرية. ولقد كان القرن العشرون جسرًا نحو عالم جديد كل الجدة من حيث الآفاق والقدرات والإمكانات والإنجازات والفعاليات التى تهيأت للبشرية.

شهد القرن العشرون أخطر ثورة ثقافية، ثورة كونية الأبعاد والأصداء، لا تزال آثارها آخذة فى الامتداد والتسارع حتى ليمكن القول إن الفكر الإنسانى يشهد بدايات تحول جذرى من حيث الأسس والنطاق والمناهج. النظرة السريعة تؤكد أن العالم الآن يعانى مخاض تحول جذرى؛ إننا نعيش مرحلة انتقال، أو لنقل مرحلة فراغ انتقالى من طور إلى طور، فراغ مرحلة انتقال من تقليد سابق إلى تقليد لاحق. هذه المرحلة ساحة تفاعل بين تناقضات جديدة عميقة على الطريق نحو طور نوعى جديد ... وضاعف من هذه الثورة الثقافية أنها اقترنت بتطورات علمية وتكنولوجية وكأنهما معًا على موعد لتمتد الآثار إلى أبعاد الكوكب، ولكى تنفذ إلى أعماق الوعى الإنسانى، ويضعان البشرية مع مستهل ثورة كونية فى الفكر والثقافة والاتصال والعلوم.

وتتجلى أهم أبعاد الثورة العلمية والتقانية فى ثورة الاتصالات والمعلومات وثورة المعرفة من حيث الكم المنتج، ومن حيث الكيف الذى تبذل العقول المنتجة للفكر جهدها لصوغه نسقيًا وملء الفراغ الحادث. وأضحت البشرية تدرك أن ما كان حتى بضعة عقود فكرًا حداثيًا بات تقليدًا باليًا ويلزم عليه إفساح الطريق لفكر جديد ونظريات جديدة. ويعنى هذا أن البشرية إزاء مهام تاريخية جديدة، وهى صياغة ثورية إبداعية لنظريات تنسق الحصاد الجديد وتفسر الرؤى الجديدة وتتنبأ بما تحمله الأيام من

تأثيرات. ويلح أهل الفكر المستنير على ضرورة أن تنضو البشرية عنها ثوب التقليد على طريق التكيف والملاءمة فكرًا وعملاً مع واقع متطور جديد؛ وأن تصوغ فلسفة تنويرية جديدة، وبناء محيط عقلى كوكبى ملتزم بقيم جديدة وفكر إنسانى أصيل جامع بين البشر دون تمييز.

ويواكب هذا الواقعَ والوضعَ جهودٌ جديرةٌ بأن نصفها بأنها جهود فاصلة تدعو إلى أن العالم كله بصدد أن يمثل مخًا كوكبيًا واحدًا متآزر الفعالية والجهد، يتعين أن يكون أداة تكيف لصالح الإنسانية جمعاء. ويدعو هؤلاء إلى ضرورة التزام نهج كوكبى جديد فى إبداع المعارف الجديدة واستثمارها فى إطار من التعاون البشرى والفعالية الفردية والاجتماعية معًا، والمشتركة بين الناس على قدم المساواة. وعلاوة على الجهود من أجل ظهور مخ كوكبى، يدور الحديث عما يسمى المصادر المفتوحة على نطاق شبكة فضائية كوكبية للمعلومات، أى إتاحة مصادر المعرفة لجميع أهل الفكر والإنتاج عبر الشبكة الفضائية (الإنترنت) على صعيد العالم. ويرى هؤلاء أن هذه سبيلنا الوحيدة لخلق تضامن عالمى وتعاون إنسانى فى ظل من الشفافية لبناء مجتمعات ينتفى فيها طغيان أحد على آخر فيما عدا العاطلين من قدرات الإبداع والإنتاج.

وتجسدت أيضًا الثورة الثقافية الكونية التى انطلقت مع انتصاف القرن العشرين فى اتساع نطاق حركة التحرر الوطنى ونتائج ذلك ثقافيًا. استعادت شعوب ومجتمعات كثيرة حريتها فى آسيا وأفريقيا وفى أمريكا الجنوبية. وشرعت غالبية هذه الشعوب فى بذل الجهد وفق استراتيجيات واضحة لكى تستعيد ذاكرتها التاريخية وثقافاتها التقليدية والتكيف مع حضارة العصر. وفرضت هذه الجهود قضية الهوية القومية فى سياق جديد تأسيسًا على رؤى نقدية لفكر الغرب. لم تكن حقبة التحرر الوطنى مجرد تحرر سياسى

أو اقتصادى فقط، بل حقبة شك فى كل ما صاغه الغرب عن هذه المجتمعات تاريخًا وثقافة وهى الحقبة المعروفة باسم ما بعد الكولونيالية. وبدأت الغالبية فى إعادة كتابة تاريخها من وجهة نظرها ليمثل هذا ثروة إضافية نقدية لفكر الغرب. وانطلقت على طريق البحث عن الذات وتأكيدها بوصفها ثقافة تاريخية وفعل عصرى إبداعى متطور فى ضوء تأويلات جديدة لتغدو ثقافة عصرية وامتدادًا حضاريًا وثيق الصلة بالتطور الاجتماعى والتكيف مع البعد العالمى الجديد، وظهرت نظريات نقدية تحدثنا عن النسبية الثقافية ضد الرؤية الغربية المطلقة عن ثقافة الحداثة بوصفها ثقافة واحدة كلية مطلقة.

وأصبح العالم ساحة صراع فكرى ضد السرديات الكبرى على لسان منهج جديد يحمل اسم ما بعد المودرنزم، أو كما شاع عنه "ما بعد الحداثة"، وزخرت الساحة برؤى نقدية للفكر الحداثى الغربى ويصفه البعض بالفكر الغربى التقليدى، وتهاوت نظريات وفلسفات وقوانين صاغت إدراكاتنا وعقولنا، وأصبحنا نعيش عصر النهايات والمابعد... نهاية السرديات الكبرى... ما بعد المودرنزم... نهاية الاشتراكية... نهاية الفلسفة... نهاية القوميات، إلى آخر ذلك داخل سياق من فراغ البحث عن جديد يكفل مرحليًا سداد الرأى والرؤية لعالم متداخل ـ عولمة لعالم بات قرية، ولكن بلا ضابط أو قوانين.

وتهيأت بفضل الثورة الثقافية الكونية وبفضل التطورات العلمية والتقانية فرص الاطلاع على ثقافات الشعوب من زوايا جديدة ووفق مناهج بحث علمى من ذلك. معنى الثقافة وتطورها وتنوعها والإبداع الثقافى وكيف نفكر وأسس التفكير مع اختلاف الزمان والمكان. وأدى هذا الوضع الكوكبى إلى زيادة الشفافية وعرفت الشعوب بعضها، وإن اقترن هذا الواقع بنقيضه، إذ تكثفت العداوات الإثنية والثقافية ... واقع جمع بين انفتاحٍ وانغلاقٍ فى آن

واحد ... انفتاح إعلامى وثقافى وعلمى وثورات انغلاق ثقافى على الذات، وردة إلى ما يعرف بالأصولية أو السلفية هى ردة دفاعية عن الذات. وصاغت هذه الإنجازات والتناقضات معالم ظاهرة جديدة لعالم جديد يستلزم منهجا بحثيا جديدا وفكرا جديدا.

وإذا كان الاتصال هو أساس الاجتماع ومنطلق نشوء الرمز ــ اللغة مع ظهور الهومو سابينس أو الإنسان العاقل منذ قرابة مائتى ألف سنة، ثم كان الاتصال المكتوب ثورة جديدة لطور جديد، فإن لنا أن نتوقع أن تكون ثورة الاتصالات الجديدة إيذانا بنقلة كيفية فى مجالات كثيرة: الاجتماع واللغة – الفكر... الفنون، وظهور منظومة ذهنية جديدة.

فتحت حركات التحرر الوطنى والبعث الجديد لشعوب الشرق وأمريكا الجنوبية مجالات بحثية جديدة تكشف عن أن الإنسان/المجتمع/العالم ظاهرة جديدة. عكف علماء الغرب وعلماء المستعمرات السابقة على دراسة هذه الظاهرة فى مجالات الثقافة والفكر وتطورهما فى الزمان والمكان. وقالوا ورثت الإنسانية عن الغرب صياغات أو نظريات عن العالم وميتافيزيقا العالم والمعتقدات الأساسية عن طبيعة العالم. وطرحوا أسئلة كثيرة هى من وحى الواقع الجديد المتنوع. كيف نفكر وإلى أى حد تمثل عمليات الفكر بعض معتقداتنا عن طبيعة العالم، باعتبار هذه العمليات أدواتنا المعرفية التى نفهمها فى ضوء معتقداتنا؟ كيف نشأت الثقافة وكيف تطورت وتنوعت زمانا ومكانا؟ وإلى أى حد ثقافتنا الاجتماعية مسئولة عن نهجنا فى التفكير ورؤية ظواهر الواقع وتفسيرها؟ كيف أنا بوصفى فردًا أو نحن بوصفنا مجتمعًا نفهم ونرى أنفسنا حياة ودورا وفعالية وعلاقات؟ ما المحددات للرؤية وللفهم فى ضوء معتقداتنا السائدة؟ ما القانون الحاكم لوجود الموضوعات وحركتها وشكلها؟ هل نصوغه فى اتساق مع معتقداتنا ورؤيتنا عن العالم .. باعتبار

الموضوعات كيانات لها ذاتيتها أو هويتها المستقلة، أو باعتبار الموضوعات بعض سياق شامل متطور وأن الحركة حركة المنظومة كلها في سياقها أو مع سياقها؟ هل عادات التفكير أو أنماطه والاستدلال عند البشر واحدة؛ لأنها حاكمة لنا الآن وتصبغ رؤانا؟ كيف نفهم الآخرين المختلفين عنا ثقافة، وكيف يفهموننا من خلال العدسات الثقافية؟ وكيف لنا أن نتفاهم ونحن في عالم أصبح قرية؟ هل يمكن أن نغير عادات تفكيرنا؟ وهل المنطق هو عادات تفكير وليس قوانين كلية؟ هل يمكن في ضوء بحوث التنوع الثقافي فرض ثقافة واحدة تكون لها الهيمنة على شعوب العالم، دون اعتبار لدور التاريخ والتفاعل الإيكولوجي على نحو ما تسعى قوة عالمية لفرض هيمنتها الثقافية باسم الدعوة إلى التجانس الثقافي العالمي، والانضواء تحت ما تظنه الثقافة الأسمى، وقد أصبح العالم قرية؟

في ظل هذه التساؤلات والتناقضات والتطورات العلمية والعالمية عكف باحثون قليلون جدا على دراسة العالم ــ الظاهرة الجديدة. ونذكر كمثال كتاب "جغرافية الفكر" تأليف عالِم النفس الثقافي ريتشارد نصيبيت أحد هذه الجهود البحثية العلمية الرائدة. والكتاب فريد، جديد في موضوعه ونتائجه. إنه كما وصفه البعض صيحة انتباه أو دعوة استيقاظ للبشرية كي تصحو من سبات فكري أو غفلة فكرية امتدت قرونا لتفهم حقيقة جديدة عن الفكر البشري. ويحاول المؤلف الإجابة على تلك التساؤلات التي تشكل محورا مهمًا لدراسة الفكر والتي أسلفنا بعضا منها.

ويخلص الكتاب إلى نتائج تشكل في مجموعها قواعد جديدة لرؤية نقدية بناءة لثقافة الغرب، وللثقافات جميعا في الشرق والغرب على حد سواء وصولا إلى تفاهم مشترك وإلى فهم جديد ... فهم نقدي جديد لذواتنا الاجتماعية في التاريخ، ولقضايانا الساخنة عن الهوية والتراث .. إلخ، وفهم

نقدى جديد لتحولات عالم بات صغيرا جدًا تكثف فيه الزمـــان والمكـــان ... وتكاثفت وتكافأت فيه النقائض التى تكاد تصدع وعى ووجود الإنـــسان ... يعيش الإنسان بوعيه وفكره عالما تلاشت فيه حدود التباعد والغربة بفـــضل ثورة الاتصالات، ولكنه يلوذ بنفسه وبذاته العرقية، وبتاريخه دفاعا أو دفعـــا خشية الذوبان ... أو خشية تلاشـــى ذات تاريخيـــة هـــى حـــصاد تكوينـــه الاجتماعى التاريخى أو أساس شعوره بكيانه فى الزمان والمكان.

ويكشف الكتاب تمايز أنماط التفكير وتباين قواعـــده وقوانينـــه بفعـــل ثقافات هى حصاد تفاعل إيكولوجى بين الإنسان/المجتمع ــ البيئة، أى بسبب تفاعل الإنسان – المجتمع من أجل صناعة وجوده فى بيئته الطبيعية والثقافية على مدى بعدى الزمان والمكان. ويحاول البحث تجريبيا الإجابة عن شواهد عديدة ذات دلالة مثل السبب فى تميز الصينيين القدامى فى الجبر والحـــساب دون الهندسة التى كانت قلعة الإغريق. وامتد هذا التميز مع الأجيال حتى أن الطلاب الآسيويين المحدثين يثبتون تميـــزهم علـــى طـــلاب الغـــرب فـــى الرياضيات والعلم، ولكنهم دون الغربيين فى المعارف ذات الطبيعة الثورية، بمعنى أنهم أميل إلى المحافظة من الغربيين. وأوضحت تجاربه أن الغربيين أقدر نسبيا من الآسيويين الشرقيين على إدراك الجزء مستقلا عـــن الكـــل، وفصل الموضوع عن الإطار المحيط به. هذا على عكس الآسيوى الـــشرقى لا يرى الموضوع ولا يفهمه إلا فى سياقه.

ومن طرائف أبحاثه التجريبية أن الأطفال فى الغرب يتعلمون الأسماء أسرع من الأفعال على عكس أطفال شرق آسيا، ويسأل عن دلالة ذلك ثقافيا وبيئيا. وينزع الغربيون إلى تطبيق المنطق الصورى عند الاســـتدلال فـــى شئون حياتهم اليومية، وقد يوقعهم هذا فى أخطاء. بينما ينزع أبناء شرق آسيا إلى النظر فى القضايا وفهمها فى إطار تناقضاتها مما يعنى اجتماع النقيضين وصولا للفهم. وساعدهم هذا على الوصول إلى الحقائق.

معنى هذا أن ما ظنناه قواعد وقوانين الفكر هى عادات وليست قوانين كلية فطرية ... إنها منظومات أو أنساق ترسخت قرونا بفضل هذا التفاعل، وتباينت شرقا وغربا بسبب تباين هذا التفاعل زمانا ومكانا ومحتوى ونهجا. ينزع أبناء شرق آسيا إلى الالتزام بالجدل فى الفكر أى الجمع بين النقيضين، إذ يلتزمون بالمبدئ المنطقية التى تتعارض مع النزعة الجدلية فى فكر شرق آسيا. مثال ذلك قانون الهوية الذى يقرر أن الشيء هو هو وليس آخر، يؤكد قانون الهوية على الاتساق بين المواقف: أ هى أ بغض النظر عن السياق. ويحدد قانون عدم التناقض أن أ وليس أ مستحيلان معا. بينما النظرة الكلية عند أبناء شرق آسيا على النقيض من هذا، إذ ترى أن أ فى سياق ما غير أ فى سياق آخر.

إن ما نسميه قانون أو مبدأ عدم التناقض والذى يقرر أن الشيء ونقيضه لا يجتمعان أو أن القضية لا تكون صوابا وخطأ فى آن واحد ليس قانونا عامًا للفكر البشرى كما تؤكد ذلك دراساته عن الفكر والتفكير فى شرق آسيا ومقارنته مع الفكر والتفكير فى الغرب. إنه عادة ثقافية. ومن ثم يدعو إلى بذل الجهد لوضع منطق جديد. ويؤكد أن فهم العمليات الفكرية للثقافات الأخرى، والذى يفرضه فرضا واقع جديد نسميه العولمة، يمكن أن يكون بداية لفهم جديد غير ما فرضه الفكر الغربى زمانا.

ويلزم عن هذا بيان أن تغيير عادات الفكر ـ اللغة يعنى تغيير رؤية الناس للعالم أو تغيير صورة العالم فى الأذهان وإعادة بناء المنظومة الذهنية، وتغيير العمليات المعرفية، وهى أمور ترسخت مع معتقدات وثقافات المجتمعات. وهذا لا يعنى تحجرا وجمودا وعدم قابلية للتغيير، بل هو نفى صريح لذلك. إنه تأكيد لصورة أخرى عن البشرية والفكر والتفكير، إنه انفتاح على التنوع فى تطوره التاريخى. ذلك أن الإنسان والفكر كل منهما عملية حية إيكولوجية أى ثمرة تفاعل عوامل متداخلة اجتماعية وطبيعية وثقافية وصولا إلى بناء ما اصطلح على تسميته الموطن الملائم

niche construction، الذى هو مرحلة تكيفية فى مسيرة تطور مطرد. إنها شكل من أشكال التكيف التى اختلفت وتنوعت زمانا ومكانا لعوامل عديدة وقابلة للتغير بفضل أو بسبب عوامل أخرى جدت على الساحة. وحَرِىٌ أن نفهم فى هذا الإطار معنى تباين التراث والثقافة والفكر فى بعدى الزمان والمكان على الصعيد المحلى والإقليمى والدولى.

ويقتضى هذا الفهم الجديد التحرر من هيمنة أطر أو أنماط فكر تقليدى غربى أو موروث وأن نفسره تفسيرا علميا نقديا. ويقتضى كذلك العمل على صوغ سياسة تعليمية هدفها بناء عقول، يكون أساس تفكيرها مرونة ديناميه وانفتاحا على الآخر وشفافية وقدرة منهجية على فهم المشكلات، مع الإيمان بالإنسان وبمشروعية التنوع والاختلاف على صعيد فردى ومحلى وعلى صعيد كوكبى، مما يهيئ أساسا لوعى كونى أو كما يقال صوغ محيط عقلى تنويرى جديد ... بناء عالم جديد أو ثورة فكرية لعقل جديد غير منغلق على ذاته، بل عقل يسع الكون برحابته تأسيسا على تفكير علمى أو عقلانية نقدية.

وأرى فى هذا الحصاد الجديد الفريد من الدراسة عن الغرب وعن الشرق الأقصى دعوة لنا نحن العرب، لكى نتأمل واقعنا الثقافى وتراثنا فى ضوء دراسة عقلانية نقدية تجريبية. ويفتح هذا النهج مجالا واسعا لدراسة العقل أو الفكر العربى: كيف يفكر العربى؟ وكيف يرى العالم؟ وما هى الجذور الثقافية للمعرفة وللتفكير العربى ورصيده التاريخى الفاعل والمؤثر؟ ما هى المنظومة الذهنية الحاكمة للفكر العربى وخاصية هذه المنظومة من حيث المرونة والدينامية والقدرة التفاعلية مع المتناقضات، ومن ثم القدرة على التطور والتطوير؟ وما هى أوجه التمايز والتميز؟ وكيف نغير عادات وأسس التفكير إن كان لازما؟ ولماذا نستسيغ فكرا دون آخر فيبقى الأول ويترسخ، بينما يذوى الآخر ويتوارى أو يندثر؟ وما هى أسباب ومعايير البقاء

والتلاشى؟ لماذا مثلا شاع فكر الأشعرية أو الغزالى دون فكر ابن رشد أو ابن خلدون بحيث تطور فكرهما على غير أرضهما أو كما يقال اغتربا عن وطنيهما delocalized؟ ولماذا اطرد نمو فكر الشيعة جغرافيا فى أماكن دون غيرها؟ ولماذا اطرد فكر السنة جغرافيا فى أماكن بذاتها؟ لماذا نرى الحقيقة أو الحق مع البعض ونصم الآذان عن آخرين؟ وما معاييرنا فى ذلك وفق المنظومة الذهنية الحاكمة؟ وهل نلتزم بمعايير موضوعية يدعمها العلم؟ هل من أسباب تراثية ثقافية صاغت البنية الذهنية أو أسباب بيولوجية أو لغوية أو اقتصادية أو اجتماعية أو طبيعية أو مركب جدلى من هذا كله؟ وإلى أى مدى تدعم أو تعوّق هذه البنية الذهنية العربية حركة التطوير الحضارى؟ إذن، وفى ضوء هذا، ما نهج التعليم والتنشئة اللازم لنا؟ وجدير أن ننهض نحن بهذه الدراسة بدلا من أن يظل مجالها مساحة صامتة، أو بدلا من أن ينجزها غيرنا فنكون موضوعا لا ذاتا فاعلة.

إن البحوث العلمية فى الشرق وفى الغرب تمضى سريعا مكثفة ومتلاحقة فى محاولة لفهم جديد للإنسان على أساس علمى تطورى من حيث القدرة والإمكانات والاحتمالات والتحولات فى ضوء واقع كوكبى جديد. وما أحوجنا نحن أيضا إلى أن نفهم أنفسنا أولا وأن نفهم غيرنا على هذا النحو وبعيدا عن أطر التقليد لبناء إنسان جديد يتصف بمنظومة ذهنية جديدة قرين فعالية نشطة ومرنة، واعية بالمحيط الكوكبى بكل تنوعاته وتناقضاته، ثم القدرة على الحركة البناءة والتكيف المطرد وسط هذه التناقضات والتحديات والتزاما بدعوة تنويرية إنسانية شاملة ... إنسان جديد وفكر جديد لعالم جديد.

شوقى جلال

القاهرة ٢٠٠٤

مقدمة المؤلف

منذ بضع سنوات مضت بدأ طالب صينى نابه يعمل معى فى بحث قضايا عن علم النفس الاجتماعى والاستدلال العقلى. وذات يوم ونحن لا نزال فى بداية تعارفنا قال لى: "هل تعرف أن الفارق بينى وبينك أننى أرى العالم دائرة وأنت تراه خطا مستقيما". ودون أن يقلقه ما ارتسم على وجهى بالضرورة من تعبير يفيض روعا استطرد موضحا الفكرة: "يؤمن الصينيون بالتغير المطرد أبدا ولكن مع إيمان بأن الأشياء دائما وأبدا تتحرك مرتدة إلى حالة ما كانت فى البدء. إنهم يولون اهتمامهم لنطاق واسع من الأحداث، يبحثون عن العلاقات بين الأشياء، ويظنون أن لا سبيل أمامهم لفهم الجزء دون فهم الكل. هذا بينما يعيش الغربيون فى عالم أبسط حالا وأقل خضوعا للحتمية؛ إنهم يركزون انتباههم على موضوعات أو أناس لها وجودها الفردى البارز دون الصورة الأكبر؛ ويظنون أن بوسعهم التحكم فى الأحداث لأنهم يعرفون القواعد والقوانين الحاكمة لسلوك الأشياء.

بدوت شاكا ولكن فضولى شغوف للمزيد. عشت طوال حياتى مؤمنا بنظرة كلية شمولية إلى الطبيعة والفكر البشرى. التزمت المسار الغربى الطويل، خطوة خطوة ابتداء من الفلاسفة التجريبيين من أمثال هيوم ولوك وميل حتى علماء المعرفة من معاصرينا اليوم، مؤمنا بأن جميع البشر يدركون بحواسهم، ويستدلون بعقولهم بطريقة واحدة. ويسعنى أن أوجز الافتراضات المشتركة التى يقوم عليها هذا التراث فى المبادئ القليلة التالية:

كل امرئ لديه ويجرى العمليات المعرفية نفسها. إن رعاة القطعان فى ما وُورِىَ ومن يعيشون على قطف الثمار والقنص فى كونج ومن يتعاملون مع الشبكة الدولية "الإنترنت" جميعهم يعتمدون على الأدوات نفسها من حيث الإدراك والذاكرة، والتحليل السببى، والتصنيف الفئوى والاستدلال.

عندما يختلف شعب فى ثقافة ما عن غيره من الشعوب من حيث المعتقدات ليس لنا أن نرد هذا الاختلاف إلى اختلاف العمليات المعرفية بل بسبب أنهم واجهوا جوانب مختلفة للعالم أو لأنهم تعلموا معارف أخرى.

عمليات التفكير العقلى من "المرتبة الأعلى" تنبنى على أساس القواعد الصورية للمنطق: مثال ذلك رفض الجمع بين النقيضين -القضية لا تكون صادقة وزائفة فى وقت واحد.

التفكير العقلى منفصل عن موضوع التفكير. إذ يمكن استخدام العملية نفسها للتفكير فى أمور مغايرة تماما؛ وإن شيئا محددا يمكن التفكير بشأنه مستخدمين أى عدد من الإجراءات المختلفة.

وأذكر أننى قبل أن ألتقى تلميذى هذا بأكثر من عشر سنوات شاركت لى روس فى تأليف كتاب يحمل عنوانا يكشف بوضوح عن مظان تعاطفى - الاستدلال البشرى. لم نقل الاستدلال فى الفكر الغربى (ويقينا ليس الاستدلال العقلى فى جامعة أمريكية) بل قلنا "الاستدلال البشرى". وشخص الكتاب ما اعتقدت أنه قواعد الاستدلال العقلى التى يستخدمها الناس فى كل مكان لكى يفهموا العالم بما فى ذلك بعض القواعد التى أعتقد أنها معيبة أو قاصرة وتؤدى إلى أحكام خاطئة.

وأذكر من ناحية أخرى أننى وقبل أن ألتقى تلميذى الصينى بفترة قصيرة كنت قد فرغت لتوى من سلسلة من الدراسات أبحث فيها عما إذا كان بالإمكان تحسين عمليات التفكير العقلى عند الناس عن طريق تعليمهم قواعد جديدة للتفكير. وتأسيسا على افتراضاتى بشأن الكلية وشمولية التفكير وعتاد البشر فى التفكير ذهبت فى المبتدأ إلى الظن بأن هذا العمل سوف يكشف عن صعوبة، إن لم أقل استحالة، تغيير أنماط التفكير العقلى التى كنت أدرسها ـ حتى وإن استغرقتنا دراسات تفصيلية وممتدة فى مجالات أخرى من مثل الإحصاء والاقتصاد. ولكن كم كانت دهشتى كبيرة إذ اكتشفت نتائج جوهرية للتدريب. مثال ذلك أن من تلقوا برامج محدودة عن الإحصاء تجنبوا الوقوع فى كم هائل من الأخطاء فى الحياة اليومية. إذ أصبح من المرجح لهم أن يردوا "إخفاق طالب الثانوى" فى لعبة البيسبول إلى نكوصه وتراجعه عن المستوى المتوسط وليس بسبب سوء حظ أو لعنة غيبية. وأصبح الأرجح لهم أن يعتبروا الاختبار الشخصى بمثابة مثال بسيط دال على سلوك المرء ومن ثم فإن أى قرار حكيم بإلحاق الشخص بالعمل ينبغى أن نبنيه على أساس عينة من المعلومات أوسع نطاقا يتضمنها ملف طلب العمل. وتبين أن الاقتصاديين يفكرون بشأن جميع ما يعرض لهم من أمور على نحو مختلف عن بقية الناس ـ ابتداء من اتخاذ قرار بالاستمرار فى مشاهدة فيلم ممل وحتى التفكير فى السياسة الخارجية. واكتشفت، علاوة على هذا أن بالإمكان تدريب الناس فى دورات تدريبية قصيرة لتغيير عاداتهم فى التفكير بل وأيضا تغيير سلوكهم العقلى عندما اختبرناهم بأسلوب خفى خارج المعمل.

لهذا كله حرصت على أن أولى الطالب أذنا صاغية. وأذكر أن اسمه كايبنج بنج ويدرس الآن فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى. وطبيعى إذا كان بالإمكان إحداث تغيرات واضحة ومهمة فى طريقة تفكير الكبار، فقد بدا من

الممكن يقينا القول بأن تلقين البشر عادات فكرية متمايزة منذ الميلاد من شأنه أن يفضي إلى فوارق ثقافية شديدة جدا في عادات الفكر.

وشرعت في قراءة دراسات مقارنة عن طبيعة الفكر ألفها فلاسفة ومؤرخون وأنثروبولوجيون من الغرب والشرق على السواء. واكتشفت أن بنج مراسلا صحفيا أمينا. ولاحظت أنه في الوقت الذي يفترض فيه علماء النفس الشمولية والطابع الكلي للبشر، وجدت باحثين كثيرين في ميادين بحث مختلفة يعتقدون أن الغربيين (ويعنون بذلك أساسا الأوروبيين والأمريكيين ومواطني الكومنولث البريطاني) وشعوب شرق آسيا (وهم أساسا شعوب الصين وكوريا واليابان) ترسخت لديهم منظومات فكر مختلفة جدا عن بعضهم على مدى آلاف السنين. علاوة على هذا اتفقت آراء هؤلاء الباحثين جوهريا بشأن طبيعة هذه الاختلافات. مثال ذلك أن غالبية من تناولوا هذه المسألة يؤمنون بأن الفكر الغربي مبني على افتراض أن سلوك الأشياء — الطبيعية والحيوانية والبشرية — يمكن فهمه في ضوء قواعد صريحة مباشرة. ولوحظ أن الغربيين يهتمون كثيرا بالتصنيف الفئوي مما يساعدهم على معرفة أي القواعد التي يتعين تطبيقها على الموضوعات محل البحث والسؤال، كما وأن المنطق الصوري له دور في حل المشكلات. وعلى العكس من هذا شعوب شرق آسيا إذ يعنون بالموضوعات في سياقها العام. إن العالم يبدو في نظر الآسيويين أكثر تعقدا مما هو عليه في نظر الغربيين، كما وأن فهم الأحداث عندهم يستلزم التفكير في كم كبير من العوامل التي تؤثر في بعضها بعضا بطريقة غير بسيطة ولا حتمية. وليس للمنطق الصوري دور كبير في حل المشكلة. والحقيقة أن الشخص الذي يبالغ في الاهتمام بالمنطق يمكن اعتباره لم ينضج بعد.

أما عن نفسى كعالم نفس فقد تبين لى أن هذه آراء ثورية فى دلالاتها. فإذا كان الباحثون فى الدراسات الإنسانية وفى العلوم الاجتماعية الأخرى على صواب إذن فإن علماء المعرفة على خطأ: المعرفة البشرية ليست واحدة فى كل زمان ومكان. وحتى نتحاشى استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن هذا نقول إن الباحثين فى مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية طرحوا دعاوى مهمة إلى أقصى حد بشأن طبيعة الفكر. أولها أن أبناء الثقافات المختلفة يختلفون عن بعضهم فى "رؤاهم الميتافيزيقية" أو فى معتقداتهم الأساسية عن طبيعة العالم. ثانيا، أن عمليات الفكر المميزة لدى الجماعات المختلفة تختلف عن بعضها اختلافا بينا. ثالثا أن عمليات الفكر هى جزء من المعتقدات عن طبيعة العالم: يستخدم الناس الأدوات المعرفية التى يبدو أنها تفيد معنى ـ أى تأسيسا على معنى العالم عندهم.

ويلفت النظر بالدرجة نفسها أن الهياكل الاجتماعية ومعنى الذات اللذان يميزان الشرقيين والغربيين تتلاءم تماما مع المنظومات العقيدية والعمليات المعرفية عند كل منهما. إن الطبيعة الجمعية أو التكاملية للمجتمع الآسيوى تتسق مع نظرة الآسيويين العامة والمتداخلة عن العالم ومع إيمانهم بأن الأحداث شديدة التعقد والتحدد بسبب عوامل كثيرة. وتبدو الطبيعة الفردية أو المستقلة للمجتمع الغربى متسقة مع تركيز الغرب على الموضوعات الجزئية فى استقلال عن سياقها، وكذا مع إيمان الغربيين بأن بإمكانهم معرفة القواعد والقوانين الحاكمة للموضوعات ومن ثم يمكنهم التحكم فى سلوكها.

وإذا كان الناس يختلفون حقا وبعمق فى منظوماتهم الفكرية ـ نظرتهم إلى العالم والعمليات المعرفية ـ إذن فإن اختلافات الناس من حيث المواقف والتوجهات والمعتقدات، بل ومن حيث القيم والأفضليات يمكن أن لا تكون مجرد مدخلات وتعاليم مختلفة بل هى على الأصوب نتيجة حتمية لاستخدام

أدوات مختلفة فى فهم العالم. وإذا كان هذا صحيحا فإن الجهود المبذولة لتحسين التفاهم الدولى لن تحقق النتائج المرجوة منها بالكامل.

وجدير بالذكر هنا أن التعليق الذى قال به تلميذى على نحو عابر، وكذا اهتمامى بعلم النفس الثقافى علاوة على برنامج القراءة الذى شجعنى عليه، كل هذا جعلنى أشرع فى برنامج بحثىٍّ جديد. بدأت بسلسلة من الدراسات المقارنة مستعينا فى العمل بعدد من تلامذتى فى جامعة ميتشيجان ثم مع بعض زملائى فى جامعة بكين وجامعة كيوتو والجامعة الوطنية فى سيول والمعهد الصينى لعلم النفس. وتوضح البحوث وجود فوارق كبيرة حقيقية فى طبيعة عمليات الفكر الآسيوية والأوروبية، وتمثل الدلائل دعما لدعاوى الباحثين من غير المعنيين بعلم النفس، وتوسع من نطاق هذه الدعاوى لتشمل كثيرًا من الظواهر العقلية الجديدة على نحو يثير الدهشة. علاوة على هذا تمثل الدراسات المسحية الاستقصائية وبحوث المشاهدات توثيقا يؤكد الفوارق فى الممارسات الاجتماعية التى تتشابك مع فوارق عادات الفكر. وهيأ لنا البحث الجديد معلومات كافية لم تيسرها لنا الدلائل السابقة، وهكذا أصبح بالإمكان صوغ نظرية عن طبيعة هذه الاختلافات بما فى ذلك أسباب نشأتها، وآثارها ودلالاتها بالنسبة للإدراك والتفكير العقلى فى الحياة اليومية وكيف تؤثر فى العلاقات بين الناس من أبناء الثقافات المختلفة.

ويسمح لنا البحث بالإجابة على أسئلة كثيرة عن العلاقات الاجتماعية وعن الفكر، وهى أسئلة أثارت وعلى مدى زمنى طويل حيرة المعلمين والمؤرخين وعلماء النفس وفلاسفة العلم. ولا ريب فى أنه لا الآراء النمطية الشائعة عن الاختلاف بين الشرق والغرب ولا حتى آراء الباحثين الأكثر تقدما وإحكاما يمكنها أن تجيب على هذه الأسئلة أو أن تعالج وتبحث الاكتشافات الجديدة. إن الألغاز والملاحظات الجديدة يتسع نطاقها لتشمل ميادين كثيرة مختلفة. نذكر منها على سبيل المثال:

العلم والرياضيات لماذا تميز الصينيون القدماء فى علم الجبر والحساب دون الهندسة التى كانت قلعة الإغريق؟ لماذا يتميز الآسيويون المحدثون فى الرياضيات والعلوم بينما كان حصادهم فى العلم الثورى أقل من الغربيين؟

الانتباه والإدراك لماذا أبناء شرق آسيا أقدر من الغربيين على رؤية العلاقات بين الأحداث والوقائع؟ ولماذا يجد أبناء شرق آسيا أن من الصعب عليهم نسبيا عزل موضوع ما عن محيطه؟

الاستدلال السببى لماذا الغربيون أميل إلى تجاوز أثر السياق على سلوك الأشياء بل والناس؟ ولماذا الشرقيون أميل إلى "الانحياز للنظر إلى الحادث بعد وقوعه" مما يسمح لهم بالاعتقاد بأنهم "يعرفونه دائما"؟

تنظيم المعرفة لماذا أطفال الغرب يتعلمون الأسماء بدرجة أسرع كثيرا من الأفعال، بينما أطفال الشرق يتعلمون الأفعال بدرجة أسرع كثيرا من الأسماء؟ ولماذا ينزع أبناء شرق آسيا إلى تجميع الأشياء والأحداث تأسيسا على كيفية ارتباطها فى علاقات بين بعضها معًا بينما الغربيون أميل إلى الاعتماد على المقولات والفئات؟

التفكير العقلى لماذا الغربيون أميل إلى استخدام المنطق الشكلى عند التفكير عقلانيا فى الأحداث اليومية، ولماذا إصرارهم على المنطق حتى وإن أدى أحيانا إلى وقوعهم فى أخطاء؟ ولماذا يميل الشرقيون ميلا كبيرا إلى التفكير فى ضوء القضايا واضحة التناقض وكيف يساعدهم هذا أحيانا على الوصول إلى الحقيقة؟

أنَّى لنا البحث عن أسباب هذه المنظومات الفكرية على الرغم من الاختلاف الواسع بينها؟ هل تكمن الأسباب فى البيولوجيا؟ أو فى اللغة؟ أو فى الاقتصاد؟ أو فى المنظومات الاجتماعية؟ وما الذى يحافظ على بقائها

حتى اليوم؟ هل الممارسات الاجتماعية؟ أو التعليم؟ أو القصور الذاتى؟ وإلى أين نحن نمضى بهذه الاختلافات؟ ترى هل ستبقى على مدى خمسين أو خمسمائة سنة أخرى من الآن؟

قادنى البحث إلى الاعتقاد بأن ثمة نهجين مختلفين أشد الاختلاف فى النظر إلى العالم قد ترسخا على مدى آلاف السنين. ويتضمن هذان النهجان علاقات ونظرات اجتماعية بينهما اختلاف عميق بشأن طبيعة العالم وعمليات الفكر المميزة. وإن كلا من هذين التوجهين ـ الغربى والشرقى ـ منظومة داعمة لنفسها ومتوازنة ذاتيا. وتعزز الممارسات الاجتماعية النظرة إلى العالم عند كل، كما أن النظرة إلى العالم تفرض على أهلها عمليات فكر ملائمة لها؛ ويلاحظ أيضا أن كلا من عمليات الفكر تبرر النظرة إلى العالم وتدعم الممارسات الاجتماعية الخاصة بها. وأن فهم هذه المنظومات الاتزانية homeostatic له آثاره ودلالاته بشأن إدراك الطبيعة الأساسية للعقل وبشأن المعتقدات عن الأسلوب الأمثل للتفكير وكذا بشأن الاستراتيجيات التعليمية الملائمة للناس على اختلاف مشاربهم.

ولعل الأهم من هذا كله أن الكتاب له دلالاته بشأن الكيفية التى يمكن بها للشرق والغرب أن يمضيا معا فى علاقات أفضل تأسيسا على فهم متبادل للفوارق الذهنية. إن كثيرين فى بلدان الشرق يؤمنون، ولهم بعض الحق، بأن القرون الخمسة الماضية للهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية الغربية جعلت الغرب متغطرسا فكريا ومعنويا. وسوف يكون هذا الكتاب قد حقق إنجازه المنشود لصالح القراء الغربيين إذا ما حفزهم على التفكير فى إمكانية وجود نهج آخر صائب للتفكير فى العالم. وأن بالإمكان أن يفيد كمرآة تساعدهم على تفحص ونقد معتقداتهم وعادات تفكيرهم العقلى. وسوف يحقق الكتاب الغرض منه بالنسبة للقراء الآسيويين إذا ما شجعهم على التفكير فى

إمكانية أخرى مكملة ــ هذا على الرغم من أن حاجتهم إلى هذا أقل ضرورة وإلحاحا ذلك لأن غالبية المفكرين الغربيين يألفون بالفعل وإلى درجة كبيرة أساليب الغرب فى التفكير.

وتوخيا لتأكيد دفعى بوجود منظومات إدراك وفكر مختلفة أشد الاختلاف ــ وأنها كذلك منذ آلاف السنين ــ اعتمدت على براهين تاريخية وفلسفية كما اعتمدت أيضا على بحوث علمية حديثة من بينها الإثنوجرافيا والدراسات المسحية الاستقصائية والبحوث المعملية. ففى الباب الأول أعرض أرسطو وكونفوشيوس كمثالين لمنظومتَى فكر مختلفتين. وهذان الفيلسوفان دون رُيب عملا أيضا على ترسيخ عادات الفكر التى كانت من قبل إحدى سمات مجتمعاتهما. ولكن البابين الثانى والثالث يهدفان إلى بيان أن الاختلافات فى الممارسات الاجتماعية التى نشهدها فى المجتمعات الحديثة سوف تميل إلى الإبقاء على بل وإلى خلق تلك الأنماط المختلفة حتى وإن لم تكن موجودة فى الأزمنة القديمة. ونجد لب الكتاب فى الأبواب حتى الرابع وحتى السابع. وتعرض هذه الأبواب الدليل على أن المعتقدات الأساسية عن طبيعة العالم وكذا سبل إدراكها والتفكير العقلى بشأنها أمور تختلف اختلافا جذريا بين الشعوب الحديثة. وينبنى الدليل فى قطاع عريض منه على بحث معملى أدرته مع تلامذتى وزملائى مستخدمين مجموعة متباينة من الاختبارات لدراسة كيف يدرك الناس وكيف يتذكرون ويفكرون. ويحدد الباب الثامن فى جلاء بعض الدلالات التى تعنى علم النفس والفلسفة والمجتمع بشأن الفوارق العميقة بين منظومات الفكر التى اكتشفناها. وتمثل الخاتمة تأملا حول الغاية التى سنمضى إليها ــ إلى تلاقٍ أم إلى استمرار واطراد الفرقة بل وزيادتها حدة وكثافة.

ورغبة منى فى تهيئة مسرح الحديث وتيسيره قليلا من أجل البحث أوضح ما يلى: عندما أتحدث عن شرق آسيا فأنا أعنى الصين والبلدان التى

تأثرت بثقافة الصين تأثرا قويا وبخاصة اليابان وكوريا. (وسوف أختصر أحيانا "الشرق آسيويون" إلى "الشرقى" وأحيانا إلى "آسيوى". وعندما أتحدث عن الأمريكيين والأوروبيين فأنا أعنى السود والبيض والخلاسيين "الهسبانيين" ـــ أى شخص ما عدا من هم من سلالة آسيوية. وإن هذا الاستعمال الذى قد يبدو غريبا إلى حد ما، يمكن تبريره على أساس أن كل من ولد ونشأ وتربى فى أمريكا تعرض لمؤثرات ثقافية متماثلة وإن لم تكن بطبيعة الحال متطابقة. وواضح أن هذا يصدق أيضا على الأمريكيين الآسيويين. ولكننا فى بعض البحوث التى نعرض لها هنا درسناهم كجماعة منفصلة ذلك لأننا توقعنا منهم أن يكونوا أكثر تماثلا مع الآسيويين على عكس ما توقعناه بالنسبة للأمريكيين الذين هم من أرومات أخرى ـــ وهذا ما ثبت لنا فعلا.

أخيرا أود أن أعتذر مقدما إلى من سوف يقلقهم أن يروا بلايين من الناس نسمِهم بمصطلح واحد "الشرقى الآسيوى" ونتعامل معهم وكأنهم متطابقون. وأنا لا أقصد الإيحاء إلى أنهم حتى قريبين من أن يكونوا متطابقين. إن الثقافات العامة والفرعية فى الشرق تختلف عن بعضها اختلافا بيِّنا مثلما هو حال الغرب. ولكن مع هذا فإن الوصف العام "الشرقى آسيوى" له ما يبرره. إذ أوضحت سبلٌ اجتماعية وسياسية كثيرة جدا أن ثقافات هذه المنطقة متماثلة مع بعضها من بعض النواحى العامة ومختلفة عن البلدان الغربية. وأعرف أن هذا لن يرضى بعض من هم على دراية واسعة بالشرق. بيد أننى أرجوهم أن يتحملوا قليلا معى. إن بعض التعميمات تجد ما يبررها على الرغم من كثرة الفوارق والاختلافات. وإن بالإمكان عمل تناظر مع دراسة الفصائل اللغوية. إن اللغات الهندو ـــ أوروبية تختلف عن بعضها بطرق لا حصر لها كما تختلف اللغات الشرق آسيوية بالقدر نفسه تقريبا.

ومع هذا فإن التعميمات بشأن الفوارق بين اللغات الهندو ــ أوروبية واللغات الشرق آسيوية كمجموعة أمر ممكن ومفيد. كذلك، وكما سوف يتضح لنا فيما بعد، أن بعض تلك التعميمات رفيعة المستوى تماثل بدرجة لافتة للنظر بعض الاختلافات التى كشفت عنها العمليات الإدراكية والفكرية موضوع دراستنا فى هذا الكتاب.

الباب الأول

القياس المنطقى والطاو

أكثر من بليون نسمة فى عالم اليوم يدعون أنهم حملة التراث الفكرى لليونان القديمة. وأكثر من بليونين هم ورثة التقاليد الصينية القديمة فى الفكر. وواضح أن فلسفات وإنجازات الإغريق والصينيين منذ ٢٥٠٠ سنة كانت مختلفة عن بعضها اختلافا بينا، بقدر ما اختلفت أيضا الهياكل الاجتماعية والمفاهيم. وآمل فى هذا الباب أن أبين الجوانب الفكرية لكل مجتمع لتبدو مفهومة فى ضوء خصائصهم الاجتماعية.

الإغريق القدامى والفعالية:

يوجد فى بلدة إبيدوروس فى اليونان مسرح قديم يتسع لأربعة عشر ألف متفرج. بنى المسرح على سفح تل، ويحيط به منظر رائع لجبال وأشجار سرو. ومجهز بأدوات سمعية بحيث من الممكن أن تسمع حفيف ورقة تسقط على منصة المسرح من أى موقع كان داخل المسرح. واعتاد الإغريق فى عصرهم الكلاسيكى القديم منذ القرن السادس وحتى الثالث قبل الميلاد أن يسافروا لفترات طويلة على الرغم من قسوة الظروف رغبة منهم فى مشاهدة مسرحيات أو الاستماع إلى قصائد من الشعر فى إبيدوروس ابتداء من الفجر وحتى الغسق لأيام طويلة وهم جالسون صفوفا.

ويبدو لنا اليوم أن عشق الناس للمسرح ورغبتهم فى تحمل بعض المشاق فى سبيل إشباع هوايتهم ليس بالأمر الغريب المثير ولكن إذا تأملنا الحضارات الكبرى فى عصرنا، ومن بينها الفارسية والهندية والشرق أوسطية وكذا الصين نجد أن بالإمكان أن نتصور أن الإغريق هم الذين يشعرون بأنهم على قدر كاف من الحرية، وقدر كاف من الثقة من حيث القدرة على التحكم فى حياتهم وأن يقطعوا مسافات طويلة وفاء لغرض واحد ووحيد وهو الاستمتاع الجمالى. لقد عاش معاصرو الإغريق فى ظل مجتمعات حكم فردى مطلق "أوتوقراطى" وإن تباينت درجاته، حيث كانت إرادة الملك هى القانون وأن الخروج عليها يعنى الحكم على من تحدى إرادته بالإعدام. ولم تكن من مصلحة الحاكم أن يسمح لرعاياه بأن يطوفوا داخل الأقاليم حتى وإن كانت روابط رعاياه بالأرض والنظم الروتينية الزراعية قد سمحت لهم بأن يتخيلوا أنفسهم وقد سافروا فى رحلات طويلة لأغراض الترويح.

وإن ما يثير الدهشة بالقدر نفسه، حتى بالنسبة لنا اليوم، أن أمة الإغريق عن بكرة أبيها اعتادت أن تلقى أدوات العمل جانبا ـ بما فى ذلك أن تلقى السلاح إذا ما كانت الدول، المدن فى حرب مع بعضها ـ حتى تتاح لها فرصة المشاركة فى الأولمبياد سواء كأبطال رياضيين أو جمهور مشاهدين.

والحقيقة أن الإغريق دون الشعوب القديمة جميعها، بل ودون غالبية شعوب الأرض الآن، يتمتعون بحس قوى بالفعالية الشخصية ـ الإحساس بأنهم مسئولون عن حياتهم ـ وأحرار فى العمل حسب اختيارهم. ونجد أن أحد تعريفات السعادة عند الإغريق هى أنها تتألف من قدرة المرء على

ممارسة إمكاناته وقدراته لتحقيق التميز والكمال فى صورة حياة لا تعرف الضغوط والقيود.

واقترن الحس الإغريقى بالفعالية الشخصية بحس قوى بالذاتية الفردية. وسواء أكان الإغريق أم العبريون هم الذين ابتكروا النزعة الفردية وهو موضوع خلافى إلا أنه مما لا شك فيه أن الإغريق رأوا أنفسهم أفرادا متفردين لهم صفاتهم وأهدافهم المتميزة. ويصدق هذا على أقل تقدير بالنسبة لعصر هوميروس فى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد. ونلحظ أن كلا من الأرباب والبشر فى الأوديسة وفى الإلياذة لهم شخصياتهم التى اكتملت صورتها واكتمل تفردها. علاوة على هذا كانت الفوارق بين الأفراد موضوعا ذا أهمية جوهرية فى نظر فلاسفة الإغريق.

وأدى حس الإغريق بالفعالية إلى إذكاء تراث من جدل حامى الوطيس. ويوضح لنا هوميروس أن الإنسان إنما تحدده قدرته على الجدل بنفس القدر الذى تحدده فيه براعته القتالية كمحارب. إن عضو مجلس العموم عليه أن يتحدى أى إنسان حتى وإن كان الملك ولا يقنع بالعيش ليروى حكاية ولكنه ينتزع بين الحين والحين الجمهور إلى صفه. وجرت المعارك الجدلية فى الميدان العام وفى الجمعية السياسية بل وفى الثكنات العسكرية. وإن ما تفردت به الحضارات القديمة أن القضايا الكبرى للدولة وكذا المسائل العامة كانت موضوعا للمناقشة العامة ولاتخاذ قرار بشأنها بين الجمهور وتدور معارك خطابية بلاغية دون فرض سلطة علوية. ولم تعرف بلاد الإغريق الطغاة كثيرا وإذا حدث واستولى طاغية على السلطة سرعان ما تبدله طبقة الأغنياء "الأوليجاركية" أو الديمقراطيات ابتداء من القرن الخامس ق.م. وتوفرت لدساتير بعض المدن آليات للحيلولة دون أن يصبح رجال الحكم طغاة، مثال ذلك أن مدينة دريروس فى كريت حظرت على شخص ما تولى

منصب "كوسموس" أى حاكم مدينة إلا بعد مضى عشر سنوات من توليه آخر منصب له.

ومن الأمور المثيرة أيضا بالقدر الذى أثارنا به عشق الإغريق للحرية والفردية إحساسهم بالفضول المعرفى إزاء العالم. ذهب أرسطو إلى أن الفضول المعرفى هو الخاصية الفريدة التى تحدد البشر. وقال القديس لوقا عن الأثينيين فى فترة لاحقة: "يقضون وقتهم فى رواية جديد أو الاستماع إلى جديد فقط ولا شيء آخر". ويختلف الإغريق اختلافا شاسعا عن معاصريهم من حيث عشق تأمل طبيعة العالم الذى وجدوا أنفسهم فيه وابتكروا نماذج له. وصاغوا هذه النماذج على أساس التصنيف الفئوى للأشياء والموضوعات والأحداث، وتوليد قواعد وقوانين لها اتسمت بدقة كبيرة تفى لوصفها وتفسيرها على أساس نسقى. وحدد هذا خصائص ما أنجزوه من تقدم فى مجالات — وقال البعض ما ابتكروه من مجالات — الفيزياء والفلك وهندسة البدهيات والمنطق الصورى والفلسفة العقلية والتاريخ الطبيعى والإثنوجرافيا.

وإذا كانت الحضارات الكبرى المعاصرة للإغريق وما قبلهم من مثل حضارة ما بين النهرين والحضارة المصرية ثم بعد ذلك حضارات المايا حققت مشاهدات نسقية فى كل المجالات العلمية إلا أن الإغريق وحدهم هم الذين حاولوا تفسير مشاهداتهم فى ضوء مبادئ أساسية. وجدير بالذكر أن كلمة مدرسة التى نستعملها الآن مشتقة من الكلمة الإغريقية سكولى Scholè والتى تعنى "فراغ" أو وقت الفراغ. وتعنى كلمة فراغ عند الإغريق معان كثيرة من بينها حرية البحث المعرفى. وكان تجار أثينا يسعدون إذ يرسلون أبناءهم إلى المدرسة حتى يتسنى لهم إشباع فضولهم المعرفى.

الصينيون القدامى وعقيدة التناغم:

إذا كانت عبارة مناسبة خاصة تعنى بالنسبة للإغريق القدامى حضور مسرحيات وندوات إلقاء الشعر فإن المناسبة الخاصة عند الصينيين في العصر نفسه قد تعنى فرصة لزيارة الأصدقاء والأقارب. اعتاد الصينيون ممارسة ما يسمى "شوان مين" "chuan men" والتى تعنى حرفيا "لتكن الأبواب سلسلة". وكانت من العادات الشائعة بوجه خاص فى أيام العطلات الكبرى القيام بزيارات تعبيرا عن الاحترام للمضيفين. ويستهلون الزيارة بمن يرونهم أهم ثم من يتلوهم من حيث الأهمية بالتدريج.

والتناغم هو المقابل الصينى للفعالية عند الإغريق. إذ إن كل صينى هو أولا وقبل كل شيء عضو فى جميع أو فى عديد من الجمعيات؛ العشيرة والقرية ثم الأسرة بخاصة. ولم يكن الفرد، كما هو الحال عند الإغريق، وحدة لها كيانها وذاتيتها المتفردة وسط أوضاع اجتماعية. وإنما كان كما عبر الفيلسوف هنرى روزمونت: "... لم يكن عند الكونفوشيين القدامى الأنا المنعزلة المستقلة التى يمكن التفكير فيها مجردة: أنا جماع الأدوار التى أحياها فى علاقة مع آخرين محددين ...... وإذا نظرنا إلى هذا على نحو جمعى فإنهم ينسجون لكل منا نمطا فريدا لذاتية شخصية بحيث إذا ما تغير بعض أدوارى سوف يتغير الآخرون بالضرورة مما يجعلنى حرفيا شخصا آخر".

وكان اهتمام الصينيين بقضايا التحكم فى الآخرين أو فى البيئة أقل من اهتمامهم بالتحكم فى النفس ومن ثم الوصول إلى أدنى حد ممكن من الاحتكاك والتشاحن مع الآخرين داخل الأسرة وفى القرية، وبذا يكون أيسر على المرء الطاعة والإذعان لمتطلبات الدولة وطاعة أولى الأمر من الحكام. ولم يكن المثل الأعلى للسعادة، كما كان الحال عند الإغريق، حياة تسمح

بالممارسة الحرة لمواهب متميزة بل إشباع متطلبات صريحة للبلد ومشتركة بين الجميع على نحو متناغم داخل شبكة اجتماعية. وبينما تعرض زهريات الإغريق وأقداح النبيذ صورا لمعارك ومباريات رياضية ولحفلات سكر وعربدة نجد الرسوم وأوانى الخزف الصينية تصور مشاهد لأنشطة الأسرة وملذات ريفية.

وما كان للصينيين أن يشعروا بأنهم إمعات لا حول ولا طول لهم عند سادة لهم أو بين أبناء الأسرة. وإنما نجد العكس تماما إذ كان لديهم حس بالفعالية الجمعية. إن المنظومة الأخلاقية الرئيسية فى الصين وهى الكونفوشية، هى فى جوهرها منظومة محكمة التعبير عن الالتزامات المتبادلة بين الإمبراطور والرعية وبين الأبوين والابن، وبين الزوج والزوجة وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر وبين الصديق والصديق. صاغ المجتمع الصينى الفرد بحيث يشعر بأنه حقا، وإلى حد كبير، جزء من كيان اجتماعى حميد سمح كبير الحجم معقد التركيب، حيث الالتزامات والواجبات المتبادلة الواضحة تمثل مرشدا وهاديا للسلوك الأخلاقى القويم. ويتمثل جوهر الحياة اليومية الصينية فى أداء الأدوار المحددة للمرء داخل منظومة تراتبية محكمة التنظيم. ولم يعرفوا نظيرا للحس الإغريقى بالحرية الشخصية. وكانت الحقوق الفردية فى الصين هى "مشاركة" المرء فى حقوق المجتمع فى مجمله وليست امتيازا أو إجازة للمرء لكى يعمل ما يحلو له.

وإن أى شكل من أشكال المواجهة أو الجدل داخل أى وحدة اجتماعية لم يكن يصادف تشجيعا. حقا عرفت الصين عصرا يسمى عصر "المدارس المائة" امتد من عام ٦٠٠ وحتى عام ٢٠٠ ق.م. وشهد هذا العصر جدالا رفيع المستوى دار بين الفلاسفة على أقل تقدير كما وأن أى مظهر للشقاق الاجتماعى لم يصادف تشجيعا. وكتب فيلسوف العلم البريطانى جيوفرى لويد

فقال: "تجد فى الفلسفة وفى الطب وفى أى مجال آخر نقدا لوجهات النظر الأخرى ...... (ولكن) الصينيين كانوا أكثر تقبلا وسماحة من الإغريق إذ يرون أن الآراء الأخرى لديها شيء تقوله لهم..."

وإن موسيقاهم أحادية الصوت تعكس اهتمام الصين بالوحدة. ونلحظ أن المغنين يغنون جميعا لحنا واحدا، وتعزف الآلات الموسيقية نغمات واحدة فى الوقت نفسه. ومن ثم لا غرابة إذ نجد أن الإغريق هم الذين ابتكروا الموسيقى متعددة الأصوات "البوليفونية" حيث نجد أدوات مختلفة وأصوات مختلفة تشارك معا فى أدوار مختلفة لكل منها.

وحرى أن لا نخلط بين التناغم الاجتماعى الصينى والامتثال أو التماثلية conformity. إذ نلاحظ أن كونفوشيوس على العكس امتدح رغبة السيد المحترم فى أن يتناغم، ومايز بينه وبين حاجة الشخص الوضيع الشأن إلى الامتثال. ونقرأ فى نص كونفوشى كلاسيكى اسمه جوجوان zuozhuan تمييزا فى صورة مجازية عن الطهى. إن الطهى الجيد يمزج الأغذية ومكسبات النكهة ويخلق شيئا متناغما ولذيذا. لن تختفى أى نكهة تماما كما أن المذاق الجميل مرده إلى إسهامات كل نكهة فى تمازجها معا وتمايزها فى آن واحد.

واختلف النهج الصينى فى فهم العالم الطبيعى عن نظيره لدى الإغريق مثلما اختلف نهجهم لفهم ذواتهم. اعتقد الصينيون فى فترة باكرة من تاريخهم وقتما عمدوا إلى دراسة السماوات أن الأحداث الكونية مثل الشهب والخسوف والكسوف يمكن أن تكون نبوءة بوقائع مهمة سوف تشهدها الأرض من مثل ميلاد أباطرة. ولكنهم بعد أن اكتشفوا الاطراد المنتظم لهذه الأحداث عزفوا عن الاهتمام بها، ناهيك عن بناء نماذج منها.

ويعوز الصينيين الشعور بالدهشة وهو ما نراه واضحا بخاصة في ضوء حقيقة أن الحضارة الصينية تفوقت كثيرا على حضارة الإغريق تقنيا. إذ يرجع الفضل إلى الصينيين في أنهم أصحاب الاختراع الأصلي أو أنهم اخترعوا في استقلال منظومات الري والجر والخزف والبوصلة المغناطيسية والركاب وعربة اليد، والحفر العميق ومثلث باسكال ومحابس المياه على القنوات pound locks، والإبحار الطولاني (من طرف إلى آخر) fore-and-aft sailing والأهوسة، وقائم التوجيه الخلفي للدفة Sternpost Rudder والقارب ذو عجلة التجديف ورسم الخرائط الكمي وتقنيات المناعة، والرصد الفلكي للنجوم، وأجهزة تسجيل الزلازل وعلم الأصوات. ولقد كان الكثير من هذه الإنجازات التقنية قائمًا ويعمل في الوقت الذي لم يكن لدى الإغريق منها شيء.

ولكن نقول ما قاله الفيلسوف هاجيمي تاكامورا إن الإنجازات الصينية المتقدمة تعكس عبقرية الممارسة العملية وليس الولع بالنظرية العلمية والبحث العلمي. وقال في هذا الصدد الفيلسوف دونالد مونرو المتخصص في الدراسات الصينية "لا نجد في الكونفوشية فكرا عن معرفة لا تستلزم عملا يترتب عليها".

الجوهر أو التلاشي؛ الفلسفة في اليونان القديمة والصين:

عكست فلسفات الإغريق والصين ممارستهم الاجتماعية المتمايزة. عنى الإغريق بفهم الطبيعة الأساسية للعالم، وإن اختلفت سبلهم إلى هذا باختلاف حقب التاريخ. ونرى على سبيل المثال أن فلاسفة أيونيا (التي تضم تركيا وصقلية وجنوب إيطاليا) في القرن السادس ق.م كانوا تجريبيين حتى النخاع في توجههم وبنوا نظرياتهم على أساس من الملاحظة الحسية. ولكن

شهد القرن الخامس نقلة فى اتجاه التجريد وعدم الثقة فى الحواس. وذهب أفلاطون إلى أن المثل – الصور ideas – forms – لها حقيقة أصيلة مفارقة، وأن العالم يمكن فهمه عن طريق مناهج منطقية تصل بنا إلى معناها دون الرجوع إلى عالم الحواس. وإذا تناقضت الحواس مع نتائج المبادئ الأساسية الأولى والمنطق فإن علينا أن نسقط الحواس.

وعلى الرغم من أن أرسطو لم يضف واقعية على الصور إلا أنه ذهب إلى أن الصفات لها حقيقتها الواقعية المتمايزة عن تجسداتها العيانية فى الموضوعات. ورأى أن من المجدى أن لا نقصر كلامنا على موضوع صلب بل وأن يشمل الصفات فى المجرد – الصلابة والبياض إلخ – وأن تتوفر لنا نظريات عن هذه المجردات. إن الخواص المركزية والأساسية والتى تشكل شرطا ضروريا لوجود موضوع ما إنما قوامها "جوهر" هذا الموضوع أو الشىء، وهو الجوهر الثابت الذى لا يتغير حسب تعريفه. إذ لو أن جوهر موضوع ما تغير فإنه بذلك يَكُفّ عن أن يكون هو عين الموضوع وإنما شىء آخر. وإن خواص موضوع ما التى يطرأ عليها تغير دون أن تغير جوهر الموضوع تسمى خواصا "عرضية". مثال ذلك مؤلف موسيقى تعوزه الآن على نحو مؤسف الموهبة الموسيقية ولكنه إذ يصبح فجأة موسيقيا موهوبا فإننا، على الرغم من هذا التغير، سنظل نفكر فى أنه هو عين الشخص. معنى هذا أن الموهبة الموسيقية خاصية عرضية وأن التغير الذى طرأ ليس تغيرا فى جوهر الشخص. وها هنا تختلف الفلسفة الإغريقية كثيرا عن الفلسفة الصينية من حيث إنها كانت معنية فى الأساس بمسألة حقيقة الخواص التى تجعل من الموضوع هو ذاته، وأى الخواص عرضة للتغير دون أن تغير طبيعة الموضوع.

وشجعت لغة الإغريق ذاتها التركيز على الصفات وتحويل الصفات إلى مجردات. إذ كما نلحظ في اللغات الهند ـ أوروبية الأخرى، أن كل صفة يمكن إضفاء وضعية الاسم عليها بإضافة المكافئ الإنجليزى للاحقة ness من مثل أبيض white ـ البياض whiteness وشفوق kind ـ الشفقة kindness. واعتاد فلاسفة الإغريق كنظام أو روتين في تفكيرهم أن يحللوا صفات موضوع ما ـ شخص أو مكان أو شيء أو حيوان ... إلخ ـ وتصنيف فئات الموضوع على أساس صفاته المجردة. ويرون هذه سبيلهم إلى فهم طبيعة الشيء، وعلة أفعاله، تأسيسا على القواعد الحاكمة للمقولات أو التصنيفات الفئوية. ومن ثم يتعين أن نلحظ ونسجل صفات شهاب ما ويتعين تصنيف الموضوع إلى مستويات مختلفة من التجريد ـ هذا الشهاب، شهاب ما، جرم سماوى، موضوع متحرك. كذلك فإن القواعد والقوانين على مختلف مستويات التجريد يتعين توليدها كفروض، وأن نفسر سلوك الشهاب في ضوء القواعد والقوانين التي نرى أنها الفاعلة والمؤثرة عند مستوى تجريدى محدد.

ولكن لا يزال الشيء الأساسى الأهم بالنسبة للفلسفة الإغريقية هو مخططها الذى يمثل قاعدة خلفية للتفكير وهو النظر إلى الموضوع "في استقلال" باعتبار هذا هو المحور الصحيح للانتباه والتحليل. اعتادت الغالبية العظمى من الإغريق النظر إلى المادة باعتبارها وجودا منفصلا متجزئا ـ مؤلفا من موضوعات غير مترابطة ـ تماما شأن البشر إذ يرونهم منفصلين عن بعضهم ونعتبرهم كليات متمايزة. وما أن نتخذ الموضوع نقطة انطلاق حتى تتداعى أمور كثيرة تلقائيا: صفات الشيء تبدو واضحة بارزة؛ وتصبح

الصفات قاعدة لتصنيف الموضوع؛ وتصبح المقولات أى الفئات التى تصنف إليها الشيء هى الأساس لبناء قاعدة أو قانون؛ ونفهم الأحداث بعد هذا باعتبارها نتائج لسلوك الموضوعات وفقا للقواعد والقوانين. وأعنى هنا بكلمة "الموضوعات" كل ما هو بشرى وغير بشرى، هذا على الرغم من أن طبيعة العالم الفيزيقى كانت فى الحقيقة من أهم ما يشغل بال فلاسفة الإغريق. حقا عنى الإغريق بالعلاقات الإنسانية وبالسلوك الأخلاقى ولكن لم تكن لهما الصدارة مثلما كانا فى نظر الصينيين.

وجه آخر مميز ولكنه مهم فى الفلسفة اليونانية وهو فكرة تفيد أن العالم فى أساسه سكونى "ستاتيكى" غير متغير. حقا إن هيرقليطس فيلسوف القرن السادس وغيره من قدامى الفلاسفة أبدوا اهتماما بالتغير. (المرء لا ينزل النهر نفسه مرتين لأن الإنسان مختلف والنهر مختلف). ولكن مع حلول القرن الخامس أصبح التغير غير ذى موضوع والثبات هو الفكرة السائدة. و"برهن" بارمنيدس بخطوات يسيرة محدودة أن التغير مستحيل. قولنا إن شيئا ما غير موجود عين التناقض. اللاوجود تناقض ذاتى ولذلك فإن العدم (اللاوجود) لا يمكن أن يكون موجودا. وإذا كان العدم لا يكون موجودا إذن لا شيء يمكن أن يتغير، ذلك لأنه إذا افترضنا الشيء ١ سيتغير إلى الشيء ٢ إذن فإن الشيء ١ لن يكون موجودا! وفرض بارمنيدس خيارا أمام فلاسفة الإغريق: عليهم أن يثقوا إما فى المنطق أو فى أحاسيسهم. والتزموا جانب المنطق منذ أفلاطون فصاعدا.

وأثبت زينو تلميذ بارمنيدس، بطريقة مماثلة أن الحركة مستحيلة. وأوضح هذا من خلال برهانين. أحدهما برهان اشتهر به باسم برهان السهم.

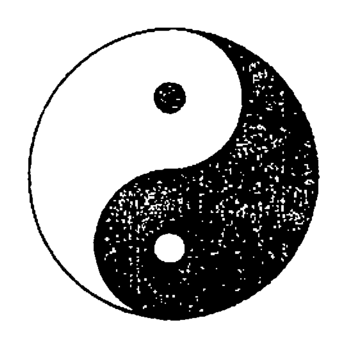
إن السهم لكى يصل إلى هدفه يلزم أولا أن يقطع نصف المسافة على الطريق إلى الهدف، ثم نصف النصف أى من موقع هذا النصف وحتى الهدف، ثم نصف المسافة بين هذا الموقع والهدف ... وهكذا دواليك. ولكن توالى الأنصاف على هذا النحو يعنى بطبيعة الحال ... أن السهم لن يصل إلى الهدف. وهكذا ينتهى بنا البرهان البصرى إلى النقيض، بما يعنى أن الحركة لا تحدث. أما "البرهان" الآخر فكان أبسط. الشىء إما أن يكون أو لا يكون فى مكانه. إذا كان فى مكانه فإنه لا يمكنه أن يتحرك. إذ من المستحيل أن يكون شىء فى مكانه، ولذلك لا شىء يتحرك. ويقول فى هذا الصدد عالم الاتصالات روبرت لوجان "أصبح الإغريق عبيدا للمسار الخطى لمنطقهم أى أسرى توجه إما ــ أو "فى المنطق".

لم يكن جميع فلاسفة الإغريق مجادلين مماحكين بالمنطق للبرهنة على استحالة التغير ولكن ثمة خاصية سكونية "استاتيكية" حتى فى التفكير العقلى عند أرسطو. اعتقد أرسطو على سبيل المثال أن جميع الأجرام السماوية ثابتة لا تتحرك، أنها كرات سماوية كاملة الوجود، وأنه على الرغم من أن الحركة تقع، والأحداث تجرى إلا أن جوهر الأشياء هو عدم التغير. علاوة على هذا أن الفيزياء عند أرسطو مغرقة فى المسار الخطى للتفكير. والملاحظ أن تغير معدل الحركة، ناهيك عن الحركة الدورانية ليس لها دور كبير فى الفيزياء عند أرسطو. (وهذا هو السبب، جزئيا، فى أن فيزياء أرسطو كانت خاطئة مضللة). وأذكر هنا أن جوردون كين وهو عالم فيزياء صديق لى، حدد لى عددا كبيرا من قضايا الفيزياء فى كتابات أرسطو. وأكد خطأ الغالبية الساحقة منها. وهذا شىء محير بخاصة لأن فلاسفة أيونيا السابقين على أرسطو رأوا صواب كثير منها".

وتشكل التوجه الصينى إزاء الحياة بفضل مزيج من ثلاث فلسفات مختلفة: الطاوية والكونفوشية ثم بعد فترة طويلة البوذية. وأكدت كل من هذه الفلسفات التناغم وأعاقت كثيرا التأمل الفكرى المجرد.

وثمة قصة صينية قديمة لا تزال شائعة فى شرق آسيا حتى اليوم. وتحكى قصة فلاح عجوز هرب حصانه الوحيد. ونظرا لأن جيرانه يعرفون أن الحصان عماده الأساسى فى حياته فقد توافدوا عليه لمواساته. وقال الشيخ تعبيرا عن رفضه لتعاطفهم معه: "من يعرف منا أين الخير وأين الشر؟" ولكن بعد بضعة أيام عاد حصانه، مصطحبا معه حصانا بريا. توافد أصدقاء العجوز مهنئين له. وعبر العجوز عن رفضه لتهانيهم قائلا: "من يعرف منا أين الخير وأين الشر؟ ولم يمضِ سوى بضعة أيام حتى حاول ابن الرجل العجوز أن يمتطى ظهر الحصان البرى حتى أطاح به من على ظهره وانكسرت ساقه. توافد الأصدقاء تعبيرا عن حزنهم لمأساة الابن. فقال العجوز "من منا يعرف أين الخير وأين الشر؟". ومضت أسابيع محدودة وأتى بعض رجال الجيش إلى القرية لتجنيد جميع القادرين من الرجال إجباريا لخوض حرب ضد مقاطعة مجاورة وطبيعى أن لم يكن ابن العجوز لائقا للخدمة وأعفى منها.

وتمضى القصة طويلة بقدر ما يسمح صبر جمهور المستمعين. وتعبر عن موقف أساسى لدى الشرقيين من الحياة. العالم دائم التغير وزاخر بالمتناقضات. ونحن لكى نفهم ونقيِّم وصفا ما فإن هذا يستلزم وجود نقيضه. وإن ما يبدو لنا حقا الآن ربما يكون نقيضا لما بدا لنا فى ظاهره أول الأمر.



علامة الطاو:

الين yin (المؤنث والظلمة والسلبى) فى حالة تبادل دائم مع اليانج yang (المذكر والضوء والإيجابى). والحقيقة أن الين واليانج موجودان فقط بسبب أحدهما للآخر، وحين يكون العالم فى حالة الين فإن هذا علامة على أنه سيصبح فى حالة اليانج. وعلامة الطاو التى تعنى "الطريق" أو "السبيل" للوجود مع الطبيعة ومع رفاقى البشر، تتألف من قوتين فى صورة دوامتين بيضاء وسوداء. ولكن الدوامة السوداء بداخلها نقطة بيضاء، كما وأن الدوامة البيضاء بداخلها نقطة سوداء. وإن "اليانج فى أصدق حالاته هو اليانج الموجود داخل الين". كذلك "مبدأ الين ــ اليانج هو التعبير عن العلاقة القائمة بين قوتين متعارضتين ولكنهما متداخلتان بحيث يكمل أحدهما الآخر، ويجعل كل طرف مفهوما أو يخلق الظروف التى تهيئ التبادل بينهما".

ويذكر كتاب الآى شنج i ching "... التعاسة تناهضها السعادة، والسعادة تتخفى فى داخلها التعاسة. من يعرف أين التعاسة أو السعادة؟ لا يقين هناك. الفضيلة تصبح فجأة رذيلة، والخير يغدو فجأة شرا". (الآى شنج ٣٠).

ونقرأ فى "الطاو تى شنج": "الثقيل جذر الخفيف .... واللاحركة "الثبات" مصدر كل الحركات" (الفصل ٢٦).

العودة ــ التحرك فى دورات لا نهائيــة ــ هــى الــنمط الأساســى لحركة الطاو.

لكى تكمش شيئا

أنت بحاجة إلى أن تبسطه أولا،

ولكى تُضعف شيئا،

أنت بحاجة إلى أن تقويه أولا

ولكى تمحو شيئا

يلزم أن تجعله يزدهر أولا

ولكى تأخذ شيئا

يلزم أن تعطيه أولا (طاو تى شنج ٣٦)

وعلاوة على تعاليم الطاويــة بــشأن التنــاقض والتــضاد والتحــول والدورات، فقد دعمت ودعت إلى التقدير العميق للطبيعة وللحيــاة الريفيــة وللبساطة. إنها ديانة التعجب دهشة والسحر والخيال، وأضفت على الكــون معنى من خلال تفسيرها للحلقات التى تربط الطبيعة بشئون البشر.

وتمثل الطاوية القسط الأكبر من الفلسفة الكامنة وراء فنــون العــلاج والتطبيب فى الصين. إذ جرى تفسير وظائف أعضاء الجسم أو الفسيولوجيا على مستوى رمزى تأسيسا على مبدأ اليانج ــ الــين والعناصــر الخمــسة (التراب والنار والماء والمعادن والخشب). وهذه مصدر التفــسيرات التــى ينبنى عليها السحر والتعاويذ وعقاقير الجنس. وجــدير بالــذكر أن الكلمــة

الشائعة على كل لسان هى تشى ch'i وتعنى معان مختلفة "النَّفس" أو "الهواء" أو "الروح".

ولقد كان كونفوشيوس الذى عاش من ٥٥١ وحتى ٤٧٩ ق.م. فيلسوفا أخلاقيا أكثر منه زعيما دينيا. واهتم أساسا بالعلاقات الصحيحة بين الناس وهى فى مذهبه علاقات تراتبية هرمية وحرص على توضيحها بجلاء. وأشار إلى أن كل عضو داخل العلاقة الثنائية أو الزوجية المهمة (زوج ــ زوجة ... إلخ) عليه التزامات واضحة ومحددة تجاه الآخر.

ووصفت الكونفوشية بأنها عقيدة الحس العام. وتؤكد على أنصارها الالتزام جديا بمبدأ الوسط الذهبى ــ عدم الإفراط فى أى شىء وأن نفترض أن بين أى موقفين متعارضين وبين شخصين متنافسين توجد الحقيقة على الجانبين. ولكن الكونفوشية فى الحقيقة شأن الطاوية كانت أقل اهتماما بالبحث عن الحقيقة فى شكلها المجرد وإنما أكثر اهتماما بالطاو ــ الطريق أو السبيل ــ للحياة فى العالم.

وتؤكد الكونفوشية على الرفاه الاقتصادى والتعلم. المرء يعمل لا من أجل منافع ذاتية بل من أجل أسرة بأكملها. ونجد فى الحقيقة أن مفهوم التقدم الذاتى، كنقيض للتقدم الأسرى، مفهوم غريب على الثقافات التى أشربت التوجه الكونفوشى. إن شابا واعدا كان من المتوقع له أن يدرس استعدادا لاجتياز امتحان يؤهله لكى يشغل وظيفة حاكم لبلدة. ومن المفترض أنه إذا ما نجح فسوف تفيد كل أسرته اقتصاديا من وضعه الجديد. وجدير بالذكر أن الصين على عكس غالبية بلدان العالم حتى عهد قريب فى عصرنا الحديث شهدت حراكا اجتماعيا واقتصاديا مهما. وإن كل من امتد به العمر شاهد

أسرا تنهض وترتقى درجات أعلى مما كان عليه وضعها فى الأصل بينما انخسف آخرون إلى درجات أدنى. ولعل أحد أسباب ذلك أن الكونفوشيين آمنوا دائما فى قابلية الطبيعة البشرية للتطويع ومرونة التغيير على عكس المثقفين ورثة الفكر الأرسطى.

وامتزجت الكونفوشية فى هدوء وسلاسة بالطاوية. وتبنت الفلسفة الكونفوشية بوجه خاص التقدير العميق للتناقضات والتحولات فى الحياة البشرية، وكذا الحاجة إلى النظر إلى الأشياء فى مجموعها باعتبارها كلا واحدا، وهى جزء متكامل من صميم فكرة كون أو عالم اليانج ــ الين. ولكن الأفكار السائدة عن الطبيعة، والحياة الريفية فهى أكثر ارتباطا بالطاوية عنها بالكونفوشية، كما وأن أهمية الأسرة والتقدم فى التعليم وفى الحياة الاقتصادية فهى جزء متكامل مع الكونفوشية. وتنعكس هذه الفوارق الفكرية فى الرسوم على المصنوعات الخزفية واللوحات الفنية. ونلحظ أن الأفكار المستوحاة من الطاوية يمكن أن تشتمل على صورة صياد أو حطّاب أو شخص متوحد جالس تحت ظلال الأشجار. ولكن الأفكار المستوحاة من الكونفوشية نراها تتمركز حول الأسرة وتشتمل على صور لجمهرة من ناس مختلفى الأعمار منهمكين معا فى أنشطة مشتركة. إن الناس على اختلاف مشاربهم فى الصين القديمة، وكذا فى الصين المعاصرة وللسبب نفسه، ربما ينزعون إلى التأكيد على توجه بذاته دون سواه. وهذا على الأرجح يكون جزئيا رهن الموقف من الحياة والوضع القائم. وثمة قول مأثور يفيد بأن كل صينى يكون كونفوشيا حال نجاحه وطاويا حال فشله.

وفدت البوذية إلى الصين بعد مضى عدة قرون من تاريخ الفترة الكلاسيكية التى نحن بصددها. واستوعب الصينيون الجوانب الملائمة من

البوذية بما فى ذلك ما كانت تفتقر إليه الفلسفة الصينية خاصة ما يتعلق بالأبستومولوجيا أو نظرية المعرفة. واتفقت التوجهات الثلاثة على الاهتمام بالتناغم "الهارمونى" والنظرة الكلية للأمور والتأثير المتبادل بين كل شىء فى الوجود. وتفيدنا هذه التوجهات فى تفسير لماذا لم تكن الفلسفة الصينية تفتقر فقط إلى مفهوم عن حقوق الإنسان بل ولماذا أيضا تبدو أحيانا (على الأقل بعد أن بدأت البوذية تمارس نفوذها) اعترافا بالعقول الفردية. وها هو كاتب من أتباع الكونفوشية الجديدة فى القرن الثانى عشر يقول "الكون هو عقلى، وعقلى هو الكون". ظهر الحكماء قبل عشرات الآلاف من الأجيال السابقة وشاركوا هذا العقل؛ وشاركوا هذا المبدأ. وسوف يظهر الحكماء بعد عشرات الآلاف من الأجيال القادمة. وسوف يشاركون هذا العقل؛ ويشاركون هذا المبدأ".

إن النظرة الكلية الجامعة holism المشتركة بين التوجهات الثلاثة تفيد بأن كل حدث مرتبط بكل حدث آخر. ويمثل الرنين الفكرة الرئيسة ومفتاح هذا المفهوم. إنك إذا نقرت وترا لآلة موسيقية واهتز سيولد رنينا بالتأثير فى وتر آخر. وهكذا فإن الإنسان والسماء والأرض جميعا تحدث رنينا بالتأثير فى بعضها بعضا. وإذا حدث وأخطأ الإمبراطور فى شىء ما فإنه سوف يخرج الكون عن نظامه.

ولا نجد فى الفلسفة الصينية نظيرا للاهتمام بالتجريد الذى يميز الفلسفة اليونانية القديمة. ولوحظ أن الفلاسفة الصينيين آثروا صراحة أكثر الانطباعات الحسية عيانية فى فهم العالم. والحقيقة أن اللغة الصينية ذاتها لغة محسوسة عيانية بشكل واضح جدا. إننا لا نجد كمثال كلمة تقابل "حجم". إنك إذا أردت حذاء ملائما فإنك تسأل عن "الكبير ــ الصغير" لأقدامهم. وليس

ثمة لاحقة تحول الكلمة إلى اسم فى الصينية. لذلك لا نجد كلمة البياض whiteness بإضافة اللاحقة ness– وإنما فقط أبيض البجعة وأبيض الثلج. والصينيون عزوفين عن استخدام مصطلحات أو مقولات محددة بدقة فى مجالات كثيرة ولكنهم يستخدمون بدلا من هذا لغة تعبيرية، مجازية.

يشتمل النقد الأدبى الصينى على مناهج مختلفة للكتابة يسمونها "منهج مراقبة نار عبر النهر" (عزل الأسلوب)، "ومنهج حشرات اليعسوب تحوم فوق سطح الماء" (المس الخفيف)؛ و"منهج رسم التنين وتحديد عينيه فى نقاط" أى "بيان وتحديد النقاط البارزة".

ويتمثل الإطار الأساسى لرؤية الصينيين لطبيعة العالم فى أنه كان كتلة من الجواهر ــ المواد وليس تجمعا من أشياء منفصلة متميزة. ومن ثم فإن الفيلسوف الصينى إذ ينظر إلى قطعة خشب فإنه يرى كلا واحدا متجانسا لا شقوق فيه مؤلفا من جوهر واحد أو ربما جواهر متداخلة متعددة الأنواع. ولكن الفيلسوف الإغريقى يرى الشىء مؤلفا من جسيمات. وشهدت اليونان القديمة جدلا واسعا حول هل العالم مؤلف من ذرات أم من جواهر متصلة بينما لم تثر هذه المسألة فى الصين. لقد كانت حقبة القول بالجواهر المتصلة. وسبق أن لحظ جوزيف نيدهام فيلسوف العلم الإنجليزى: "كان عالم الصين وسطًا ــ أو نسيجًا متصلاً تجرى فى داخله التفاعلات بين الأشياء. وتجرى هذه التفاعلات نتيجة تأثيرات إشعاعية وليس نتيجة اصطدام ذرات ببعضها".

وهكذا تختلف فلسفات الصين واليونان القديمة بقدر اختلاف الحياة الاجتماعية والمفاهيم الذاتية عند كل منهما. وتعكس الفوارق الفلسفية الفوارق الاجتماعية من نواح عديدة.

اتصف الإغريق بالاستقلالية والانغماس فى المنافسات والجدل اللفظى فى محاولة منهم لاكتشاف ما يراه الناس الحقيقة. ورأوا فى أنفسهم أفرادا ذوى خصائص مميزة، ووحدات مستقلة عن الآخرين داخل المجتمع، وأنهم سادة أقدارهم ومصائرهم. وانطلقت الفلسفة الإغريقية بالمثل من الموضوع الفردى - الشخص، الذرة، البيت - باعتباره وحدة التحليل، وعنوا بخصائص الموضوع. وذهبوا إلى أن العالم من حيث المبدأ بسيط يمكن معرفته: كل ما على المرء أن يفعله هو أن يفهم ماهية الصفات المميزة للموضوع حتى يتسنى له أن يحدد مقولاته ذات الصلة ثم يطبق على المقولات القاعدة وثيقة الصلة بالموضوع.

وتميزت الحياة الاجتماعية الصينية بالتكافل وكان التناغم وليس الحرية هو كلمة السر ـ تناغم البشر والطبيعة عند الطاويين، وتناغم البشر مع البشر الآخرين عند الكونفوشيين. كذلك كان هدف الفلسفة هو الطريق وليس اكتشاف الحقيقة. وأن الفكر الذى لا يهدى إلى عمل هو فكر لا جدوى منه. إن العالم معقد، والأحداث متشابكة، والموضوعات [والناس] متداخلين فى روابط مشتركة "ليسوا مثل قطع الكعكة بل مثل حبال الشبكة". وينظر الفيلسوف الصينى إلى الأسرة باعتبارها كيانا من أعضاء متداخلين فى علاقات متبادلة بينما يرى الإغريقى فى الأسرة تجمعا من أشخاص لهم صفات مستقلة، عن أى ارتباطات بآخرين. ومعنى التعقد والعلاقات المتبادلة عند الصينى أن أى محاولة لفهم موضوع ما دون تقدير سياقه هى محاولة فاشلة. ومن ثم فإنه وفى أحسن الأحوال من العسير التحكم فى النتائج.

وكان العلم والرياضيات، كما سوف نرى فيما يلى، متسقين غاية الاتساق مع كل من السلوك الاجتماعى والنظرة الفلسفية.

التناقض أم الترابط؟ العلم والرياضيات فى اليونان وفى الصين قديما :

أعظم الاكتشافات العلمية الإغريقية قاطبة هى اكتشاف ــ أو لنقل ما قاله الفيلسوف جيوفرى لويد، اختراع ــ الطبيعة ذاتها. حدد الإغريق معنى الطبيعة بأنها الكون مخصوما منه البشر وثقافتهم. وعلى الرغم من أن هذا يبدو لنا من أوضح أشكال التمييز إلا أنه تعريف لم تقل به أى حضارة أخرى. وثمة تفسير مقبول عقلا يفسر كيف تأتًى للإغريق اختراع الطبيعة على هذا النحو. ويقضى التفسير بأنهم مايزوا بين العالم الخارجى الموضوعى والعالم الباطنى الذاتى. وتحقق هذا التمييز لأن الإغريق، على عكس أى إنسان آخر، لديهم فهم واضح للذاتية، وهو الفهم الذى انبثق عن تراثهم فى الجدل. إذ لا معنى بالنسبة لك أن تحاول إقناعى بشىء ما، ما لم تؤمن أنت بأن ثمة حقيقة واقعة فى الخارج وأنك تفهمها أو تدركها أفضل منى. ربما تكون قادرا على أن ترغمنى قسرا على عمل شىء تريده بل وعلى أن أعرب عن إيمانى بما تفعل. ولكنك لن تقنعنى ما لم أومن بأن تفسيرك الذاتى لوضع ما أسمى من تفسيرى.

ونتيجة لهذا نبعت الموضوعية من الذاتية، الاعتراف بأن عقلين يمكن أن يكون لديهما تصورين مختلفين عن العالم، وأن العالم له وجوده المستقل عن أى من التصورين. وربما تهيأ للإغريق التوصل إلى هذا بفضل وضعهم كمركز تجارى واعتادوا أن يلتقوا بانتظام ناسا لهم أفكارهم المختلفة تماما عن العالم. وعلى العكس من هذا كانت الثقافة الصينية ثقافة موحًدة الكيان منذ القدم وكان من النادر نسبيا التقاء جماعات من الناس لهم آراؤهم الدينية والميتافيزيقية المختلفة عنهم جذريا.

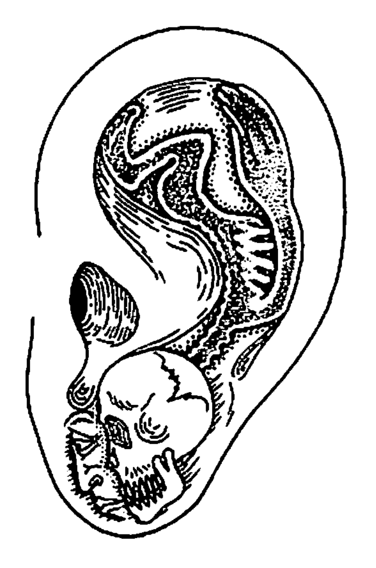
وإن اكتشاف الإغريق للطبيعة هو الذى يسر اكتشاف العلم. وإن فشل الصين فى تطوير العلم يمكن أن نعزوه جزئيا إلى افتقار الفضول المعرفى غير أن عدم وجود مفهوم عن الطبيعة أعاق تطور العلم على أى حال من الأحوال. ونشير هنا إلى ملاحظة أبداها الفيلسوف يو- لان فونج إذ يقول: "الأسئلة "بماذا" من الصعب أن يسألها المرء ما لم يكن هناك اعتراف واضح بأن ثمة مفاهيم ذهنية تتوافق بشكل ما مع جوانب الطبيعة ولكنها غير متطابقة معها".

ركز الإغريق اهتمامهم على الموضوع الأبرز وصفاته. وأفضى هذا التركيز إلى الفشل فى فهم الطبيعة الأساسية للعملية. وفسر أرسطو سقوط حجر من أعلى إلى أسفل بأن الحجر لديه خاصية "الجاذبية". ولكن طبيعيا أن قطعة خشب تلقى بها إلى الماء فتطفو بدلا من أن تغرق. وفسر أرسطو هذه الظاهرة بأن أرجعها إلى خاصية الخشب من حيث "الخفة". والملاحظ فى الحالتين أن التركيز منصب فقط على الموضوع دون الانتباه إلى احتمال وجود قوة أخرى خارج الموضوع يمكن أن تكون ذات صلة. ولكن الصينيين رأوا العالم مؤلفاً من جواهر متفاعلة مع بعضها أبدا، ولهذا أدت محاولاتهم لفهم الشيء إلى التوجه بأنظارهم ناحية تعقد "المجال" جملة، أعنى السياق أو البيئة إجمالا. وتأسيسا على هذا نجد أن فكرة أن الأحداث تقع دائما فى وسط مجال من القوى فكرة تراود الصينيين على نحو حدسى تماما. ولهذا ليس غريبا أن يكون لدى الصينيين نوع من الإقرار بمبدأ "التأثير عن بعد" قبل أن يصوغه جاليليو بألفى عام. توفرت لديهم معرفة بالمغناطيسية والرنين

السمعي على سبيل المثال واعتقدوا أن حركة القمر هي سبب المد والجذر في البحار وهي حقيقة غابت حتى عن جاليليو.

وتوجد في الصحراء غرب الصين مدافن تضم جماعات من الناس يتصفون بطول القامة والشعر الأحمر، والمثير للدهشة أن أجسادهم محفوظة جيدا، ويحملون سمات قوقازية. وشقوا طريقهم إلى هذا المكان من العالم منذ بضع آلاف من السنين الماضية. ودون النظر إلى مظهرهم فإنهم مختلفون عن الشعوب التي عاشت في هذه المنطقة من ناحية أخرى مهمة، إن أكثرهم يكشف عن علامات واضحة تؤكد أنه أجريت لهم عمليات جراحية. هذا على الرغم من أن الجراحة كانت نادرة تماما في كل تاريخ الصين.

وإحجام الصينيين عن أداء عمليات جراحية مفهوم تماما في ضوء آرائهم عن التناغم والعلاقات. ورأوا أن الصحة رهن توازن القوى داخل الجسم والعلاقات بين أجزائه. وكانت هناك قديما، مثلما هو الآن بين كثيرين من أبناء شرق آسيا علاقات بين كل جزء من الجسد تربطه بكل الأجزاء الأخرى. وحتى نتبين هذه الشبكة الواسعة من الترابطات المتداخلة يكفي النظر إلى رأى ممارس العلاج بوخز الإبر عن العلاقات بين سطح الأذن والبشرة وهيكل الجسم. وثمة شبكة شديدة التعقد بالقدر نفسه تصف العلاقات بين الأذن وكل من الأعضاء الباطنية. ويرى الصينيون على الأرجح أن من السذاجة وخفة العقل التفكير في أن إزالة عضو أو جزء مريض أو مصاب بخلل وظيفي وبتره عن الجسم أمر مفيد دون اعتبار لعلاقاته بالأجزاء الأخرى من الجسم. هذا على عكس كثير من المجتمعات الغربية المختلفة التي مارست الجراحة.



البشرة وهيكل الجسم متمثلان على سطح الأذن لأغراض العلاج بوخز الإبر

وإن ميل الصينيين إلى التركيز على العلاقات داخل مجال معقد متداخل يتجلى فى ممارسات "فنج شوى feng shui" وهى ممارسة لا تزال مستمرة فى الشرق. إذ حين يرغب شخص ما فى إقامة بناء يكون لزاما عليه أن يستدعى السيد فنج شوى. ومهمة هذا الشخص تقدير عدد كبير جدا من العوامل مثل الارتفاع، الاتجاه الغالب للريح، الاتجاه بالنسبة للبوصلة، الاقتراب مصادر مياه مختلفة، ويعطى نصيحته بشأن تحديد موقع البناء. وهذه ممارسة لا نظير لها فى الغرب ولكن غالبية ناطحات السحاب المقامة فى هونج كونج الآن كان لا بد من استدعاء الفنج شو ليقدم نصيحته قبل الشروع فى البناء.

وجدير بالذكر أن إيمان الصينيين بأساسية ترابط العلاقات بين الأشياء جعل من الواضح لهم أن الأشياء والموضوعات تتحرك وتتغير داخل سياق.

ولهذا فإن أى محاولة لتصنيف الموضوعات بدقة لن تفيد كثيرا فى فهم الأحداث. ذلك أن العالم شديد التعقد والتفاعل بين عناصره مما يجعل الفئات والقواعد غير مفيدة كثيرا فى فهم الموضوعات أو التحكم فيها.

وأصاب الصينيون فى رأيهم عن أهمية المجال لفهم سلوك موضوع ما كما أصابوا فى رأيهم عن التعقد، ولكن افتقارهم إلى الاهتمام بالفئات أو التصنيف الفئوى حال دونهم واكتشاف القوانين التى تفسر لهم بالفعل فئات الأحداث. ولهذا كله اتجه الإغريق إلى التبسيط الشديد وإلى الاكتفاء بتفسيرات زائفة تتضمن خصائص غير موجودة للموضوعات. وفهموا عن صواب ضرورة تصنيف الموضوعات إلى فئات حتى نتمكن من تطبيق القواعد والقوانين عليها. ونظرا لأن القواعد والقوانين مفيدة طالما وأن بالإمكان تطبيقها على أوسع نطاق من الموضوعات فقد كان لديهم بشكل مطرد "ضغط صاعد" للتعميم وصولا إلى أعلى المستويات من التجريد حتى تكون القوانين صالحة للتطبيق إلى أقصى حد ممكن. وأفاد أحيانا هذا الحافز إلى التجريد وإن لم يكن كذلك دائما.

وكان لإيمان الإغريق بالتصنيف الفئوى على أساس الصفات ثماره العلمية التى أفاد بها ورثتهم من المفكرين سواء مباشرة أو فى مراحل تالية. اصطنع الإغريق تصنيفات للعالم الطبيعى تتسم بالدقة الشديدة. وسمح هذا بقدر من الابتعاد عن أنواع من المخططات العامة العامية لمجال البيولوجيا التى صاغتها شعوب أخرى. واستطاع الإغريق بهذا صوغ منظومة تصنيفية فريدة أسفرت فى نهاية المطاف عن نظريات لها قدرة تفسيرية حقيقية.

ويروى أن فريقا من الرياضيين من حواريي فيثاغورس ألقوا برجل من فوق سطح مركب لاكتشافهم أنه أفشى فرية عن الأعداد الصماء من مثل الجذر التربيعى للعدد ٢ الذى يتوالى إلى ما لا نهاية دون إمكانية التنبؤ بالنمط الذى يكون عليه ١,٤١٤٢١٣٥٠٠٠. وسواء أكانت هذه قصة حقيقية أم زائفة فإن من المؤكد أن غالبية الرياضيين الإغريق لم يعتبروا الأعداد الصماء أعدادا حقيقية على الإطلاق. لقد عاش الإغريق فى عالم من الجسيمات المنفصلة ومن ثم بدت الطبيعة المستمرة التى لا نهاية لها للأعداد الصماء أمرا غير مقبول عقلا ومن ثم لم يسع علماء الرياضيات أن يأخذوها مأخذا جادا.

وربما نجد من ناحية أخرى أن الإغريق أسعدتهم كثيرا الكيفية التى عرفوا بها أن الجذر التربيعى للعدد ٢ عدد أصم، إذ عرفوا هذا عن طريق التناقض. يفترض المرء عددين غير قابلين للقسمة ن، م، وأن الجذر التربيعى للعدد ٢=ن/م ويبين أن هذا يفضى إلى تناقض.

واستحوذ مفهوم التناقض على اهتمام الإغريق بل أكاد أقول كان مفهوما متسلطا على الأذهان. ومن ثم إذا تبين أن قضية منطقية ما بينها وبين قضية أخرى علاقة تناقض فإنه يتعين رفض إحداهما. ويمثل مبدأ التناقض القاعدة لمنطق القضايا. وإذا كان الإغريق دون سواهم هم من اخترعوا المنطق فإن التفسير العام لهذا هو أن مجتمعا ما يحتل الجدل فيه مكان الصدارة وله دوره البارز سوف يشرع فى بيان أى الحجج قاصرة ومعيبة حسب تعريفها لأن بناءها يفضى بنا إلى تناقض. والمعروف أن أرسطو هو الذى صاغ القوانين الأساسية للمنطق بما فى ذلك القياس. وقيل إنه ابتكر

المنطق بسبب ضيقه من سماع حجج فاسدة داخل الجمعية السياسية وفي الساحات العامة. وحري أن نلحظ هنا أن التحليل المنطقي نوع من استمرار ميل الإغريق إلى إخراج الأمور من سياقها Decontextualize. ونحن عادة نطبق المنطق عن طريق تجريد العبارات من معانيها والإبقاء فقط على البنية الصورية كما هي دون تغيير. وييسر علينا هذا أكثر إدراك ما إذا كانت العبارة - القضية صحيحة أم لا. وطبيعي أن هذا الأسلوب في إفراغ العبارات من سياقها ليس أسلوبا آمنا بدون أخطاء؛ وهذه ملاحظة يهوى أبناء شرق آسيا المحدثين بيانها وإثباتها. لذلك فإنهم شأن الصينيين القدماء يجاهدون من أجل أن يكونوا معقولين لا أن يكونوا عقلانيين. ولا ريب في أن الدعوة إلى تجنب التطرف يمكن أن تكون مبدأ مفيدا شأن المطالبة بتجنب التناقض.

وجدير بالإشارة أن الفيلسوف الصيني مو ـ تسو خطا خطوات واسعة في اتجاه الفكر المنطقي في القرن الخامس قبل الميلاد بيد أنه لم يبلور منظومته الفكرية، وبذا وُئِدَ المنطق في الصين وهو لا يزال في المهد. ولنا أن نقول إنه باستثناء هذا الفاصل ظل الصينيون يفتقرون ليس فقط إلى المنطق بل وأيضا لمبدأ عدم التناقض. ونعرف أن للهند تراثًا منطقيًا عريقًا ولكن الترجمات الصينية للنصوص الهندية كانت مليئة بالأخطاء وسوء الفهم. وعلى الرغم مما حققه الصينيون من تقدم كبير وموضوعي في مجالي الجبر والحساب إلا أنهم حققوا إنجازا ضعيفا في الهندسة بسبب أن البراهين تعتمد على المنطق الصوري خاصة فكرة عدم التناقض. (لم يصبح الجبر استدلاليا إلا مع ديكارت. ولا يزال نظامنا التعليمي يحمل آثارًا تذكرنا بالفصل بينهما وهو ما يتجلى في تعليم الجبر والهندسة كمادتين دراسيتين منفصلتين).

وأبدى الإغريق اهتماما عميقا بالحجج التأسيسية للرياضيات. وكان الإغريق وحدهم هم الذين لديهم استنتاجات بينما الشعوب الأخرى لديها وصفات إجرائية. ولكن يمكن القول من ناحية أخرى إن المنطق الإغريقي والاهتمام بالحجج التأسيسية شكلوا عقبات بقدر ما أتاحوا من فرص. ونعرف أن الإغريق لم يستحدثوا مفهوم الصفر الذى كان لازما لكل من الجبر وللمنظومة العددية حسب الأسلوب العربى. فكر الإغريق فى الصفر ولكنهم رفضوه على أساس أنه ضرب من التناقض. إن الصفر يساوى اللاشيء أو العدم، والعدم ليس موجودا! وهكذا كان لا بد فى نهاية المطاف أن نستورد من الشرق فهم معنى الصفر وفهم اللانهاية والكميات متناهية الصغر.

واستحدث الصينيون بدلا من المنطق، طرازا من النزعة الجدلية Dialecticism. وهذه ليست عين الجدل الهيجيلى حيث الأطروحة يتبعها نقيضها ثم يحسمها المركب أو الجميعة الجامعة بين الاثنين والذى يتصف "بالحسم" بمعنى أن الهدف النهائى هو حسم التناقض. ولكن الجدل الصينى فهو على العكس من ذلك إذ يستخدم التناقض سبيلا لفهم العلاقات بين الموضوعات والأحداث ومفارقة أو توحيد التعارضات، بل احتواء الصدام دون وجهات النظر التى تضفى وضوحا وبصيرة. وجدير بالذكر أن التراث الفكرى الصينى لا يرى تناقضا بالضرورة بين الاعتقاد بأن أ هى القضية والاعتقاد بأن لا ـ أ هى القضية. وإنما على العكس وحسب روح عقيدة الطاو أو مبدأ اليان ـ ينج فإن أ يمكن عمليا أن تفيد أن لا ـ أ هى أيضا القضية أو أنها فى جميع الأحوال سرعان ما تكون كذلك. ويلاحظ أن الفكر الجدلى يمثل من نواحٍ عدة نقيضا للفكر المنطقى. إنه لا ينزع إلى إفراغ

الأحداث من السياق بل إلى أن يراها فى سياقاتها الملائمة: الأحداث لا تقع بمعزل عن الأحداث الأخرى، ولكنها دائما ثاوية ضمن كل هادف ذى معنى حيث تتغير عناصره وتعيد تنظيم نفسها دائما وأبدا. إننا إذ نفكر فى موضوع أو حدث ما بمعزل عن سواه ونطبق عليه القوانين المجردة فإننا بهذا نصل إلى نتائج متطرفة وخاطئة. إن الطريق الوسطى هى هدف التفكير العقلى.

لماذا إذن اختلف اليونانيون والصينيون القدامى على هذا النحو الكبير فى عاداتهم الفكرية؟ أو لنقل لماذا، على الأقل، يصدق هذا الرأى بالنسبة للمثقفين من الطرفين وهما الشعبان القديمان الوحيدان اللذان نعرف شيئا عن حياتهما الفكرية؟ ولماذا يوجد مثل هذا "الرنين" بين الأشكال الاجتماعية وفهم الذات من ناحية والفروض الفلسفية والنهج العلمية من ناحية أخرى؟ الإجابة على هذه الأسئلة لها دلالاتها التى تفيدنا فى فهم الفوارق والاختلافات بين الفكر الشرقى والفكر الغربى القائمة اليوم.

الباب الثانى

الأصول الاجتماعية للعقل

سألت ذات يوم فيلسوفا صينيا لماذا رأى أن الشرق والغرب طورا مثل هذه العادات الفكرية المختلفة. أجاب قائلا "لأن عندكم أرسطو ونحن عندنا كونفوشيوس". أغلب الظن أنه كان يمزح. لا ريب فى أن لأرسطو وكونفوشيوس أثر مهول على التاريخ الفكرى والاجتماعى والسياسى للشعوب من بعدهما، إذ كان كل منهما نتاج ثقافة مجتمعه أكثر من كونه السلف الصانع لها. وما كان بالإمكان أن يكون لأى منهما الأثر الذى تركه لو لم يكن يعكس المجتمع الذى عاش فيه. ونجد نوعا من "البرهان" على هذا فى أن الإغريق كان لهم فلاسفتهم من أمثال هيرقليطس ممن كانوا أقرب إلى روح الشرق منهم إلى الغرب، وكان لدى الصين فلاسفتها من أمثال موتسو الذى شارك فلاسفة الغرب كثيرا من اهتماماتهم. ولكن على الرغم مما حظيت به هذه الفلسفات من اهتمام كبير من معاصريها إلا أن الفلسفات المارقة ذوت على عودها ولم يمتد بها العمر. هذا بينما التراث الأرسطى استمر ممتدا فى الغرب والتراث الكونفوشى أصل وجوده فى الشرق.

ويلاحظ أن الباحثين الذين حاولوا الإجابة على سؤال لماذا اختلفت اليونان والصين قديما هذا الاختلاف الكبير انتهوا فى دراساتهم إلى أسباب عديدة مقبولة عقلا.

اختلفت اليونان القديمة عن جميع الحضارات المعاصرة لها من حيث تطوير الحرية الشخصية، والفردية والفكر الموضوعى. ويمكن جزئيا تفسير هذه الخصال فى ضوء النظام السياسى الذى انفرد به اليونان قديما وأعنى به الدولة ــ المدينة وسياستها خاصة الجمعية العامة التى حفلت بالناس من أعضائها ليحاول كل إقناع الآخر تأسيسا على حجة عقلانية. وكانت الدولة ــ المدينة مهمة أيضا لأنه كان بإمكان المتمردين من المفكرين أن يهجروا موقعا إلى آخر ومن ثم يحتفظون لأنفسهم بوضع يسمح بحرية الاستجواب. والحقيقة أن المثقفين غير المرغوب فيهم داخل دولة ــ مدينة ما كان بوسعهم أحيانا التماس ملاذ فى دولة - مدينة أخرى تأمل فى حضورهم إليها وبقائهم فيها وترى فى هذا تعزيزا لمكانتها أمام الدول - المدن الأخرى. ونعرف أن تلامذة سقراط ألحوا عليه أن يترك أثينا إلى مكان آخر بدلا من أن يطبقوا عليه حكم الإعدام. وطبيعى أنه كان سيلقى ترحيبا فى أى مكان آخر ومن ثم يكف أبناء مدينته عن مطاردته.

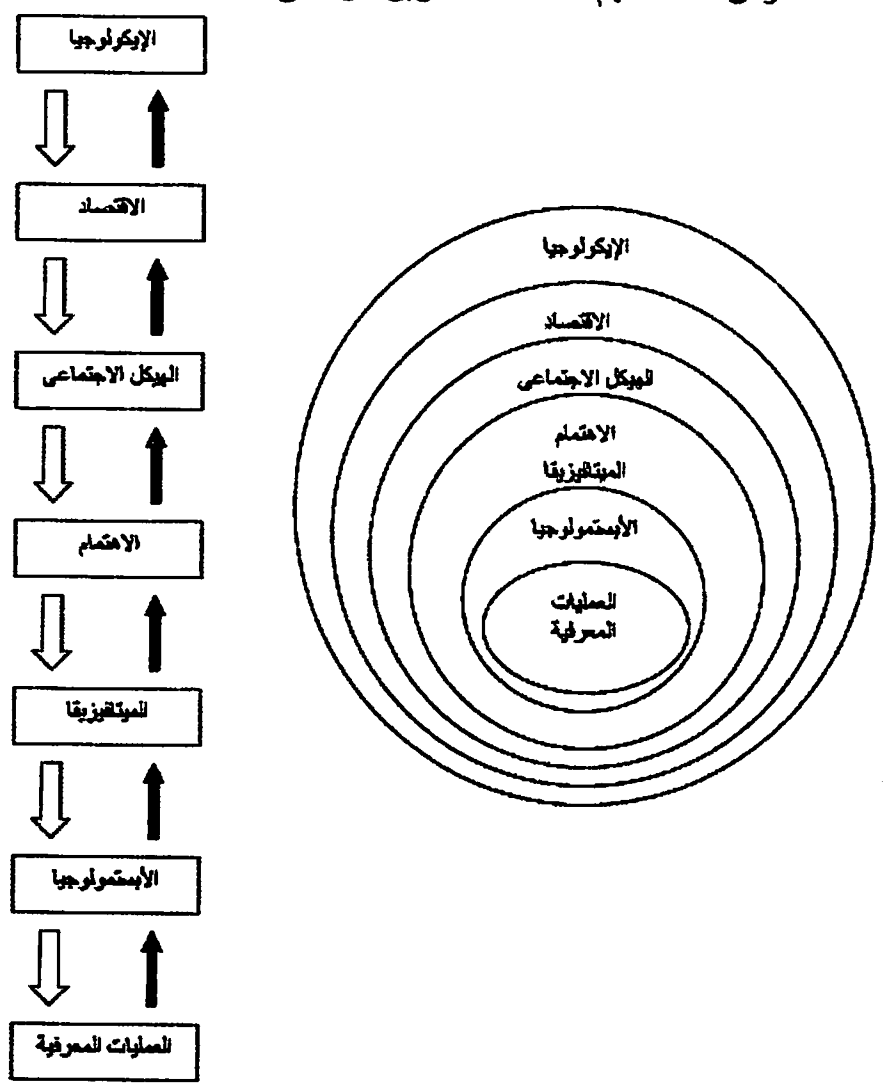
سبب آخر يذكره البعض أحيانا لتفسير تفرد الإغريق وهو موقعهم البحرى الذى جعل من التجارة البحرية عملا مربحا. معنى هذا أن الإغريق عرفت طبقة تجارية قوية يتمتع رجالها بقدرة مالية على تعليم أبنائهم. والقول بأن التجار كانت لديهم الرغبة فى تعليم أبنائهم يتطلب تفسيرا فى حد ذاته خاصة وأن التعليم بحد ذاته لم يكن مثلما كان فى الصين الطريق إلى السلطة والثراء. ولكن يبدو واضحا أن الدافع إلى التعليم كان نتيجة لحب الاستطلاع والفضول المعرفى والإيمان بقيمة المعرفة فى ذاتها. وأن خاصية الفضول المعرفى لدى الإغريق يمكن بدورها تفسيرها جزئيا فى ضوء موقعهم عند مفترق طرق العالم. إذ كانوا دائما وأبدا يلتقون جماعات جديدة مثيرة للحيرة والتساؤل من حيث عاداتهم ومعتقداتهم. وكان شائعا وعاديا بالنسبة لأى

إغريقى يحيا قرب السواحل (والغالبية كانوا كذلك) أن يلتقى جماعــات مــن البشر يمثلون أعراقا وديانات وسياسات مغايرة. وإن أثينا نفسها كانت بمثابة حاجز وسط حرب النجوم.

وثمة نتيجة واضحة للممارسات والمعتقدات المختلفة التى تحــوم دون هوادة حول الإغريق ألا وهى ضرورة أن يتعاملوا مع المتناقضات. اعتادوا دائما مواجهة مواقف حيث يرون شخصا يؤكد أن أ هى الحجة بينما ينــزع آخر إلى القول أنه ليس ــ أ هى الحجة. وهكذا عايشوا تناقضا وافــدا بــين آراء الغرباء، وتناقضا محليا يعبر عنه المواطنون من خلال آرائهم داخــل الجمعية العامة وفى الساحات العامة. وطبيعى أن يؤدى هذا بالضرورة إلــى تطور إجراءات معرفية من بينها المنطق الصورى للتعامــل مــع مظــاهر وأسباب التنافر.

هذا على عكس ما نراه حتى اليوم من أن ٩٥ بالمائة من الصينيين هم من جماعة عرقية واحدة المعروفة باسم الهان. والمعروف أن جميع الأقليات العرقية فى الصين والتى يزيد عددها عن الخمسين يعيــشون فــى الجــزء الغربى من الصين. كذلك فإن الشخص الصينى الذى يعيش داخل البلاد نادرا ما كان ليلتقى غريبا له معتقداته أو ممارساته التى تختلف عنه اختلافا بينــا. ويبدو أن التجانس العرقى للصين يمكن تفسيره جزئيا على الأقل فى ضوء السلطة السياسية المركزية. علاوة على هذا فإن حياة القرية الصينية حيــث يعيش أهلها وجها لوجه هى من النوع الذى يــضغط فــى اتجــاه التنــاغم والمعايير السلوكية المتفق عليها جماعيا. وهكذا عاش الصينيون لا يشهدون سوى اختلافا ضئيلا فى الرأى، ويرون الشقاق مظنة عقاب يحل من أعلى أو يأتى على أيدى رفاق الحياة. ومن هنا لم يكن لدى الصينيين حاجــة كبيــرة لاستخدام إجراءات من أجل اتخاذ قرار يحسم التناقض ويقرر أى القــضايا

هى الصواب. ورأوا بدلا من هذا أن الهدف هو اكتشاف الوسيلة لحسم الخلافات. ومن هنا دافعهم لاكتشاف الطريق الوسطى.



نموذج تخطيطى للمؤثرات فى العمليات المعرفية

التفسير فى أساسه مادى: بمعنى أنه يحاول تفسير الحقائق الثقافية فى ضوء وقائع فيزيقية. وهذا نهج بات باليا الآن لدى بعض الأوساط ذلك لأنه جزئيا يفترض خطأ أن التفسيرات المادية حتمية. ولكن المادية لا تستلزم بالضرورة القول بالحتمية ـ بحيث إنه إذا ما ظلت الأوضاع متكافئة فإن العوامل الفيزيقية يمكنها أن تؤثر بدرجة ما فى العوامل الاقتصادية وبالتالى فى العوامل الثقافية. وهذا التفسير ليس ماديا على الإطلاق بمعنى محدد: إن العوامل الحاسمة المؤثرة فى عادات العقول هى عوامل اجتماعية كما وأن الوقائع الاجتماعية المهمة يمكن أن تولدها وتصونها قوى ليست اقتصادية بطبيعتها.

الإيكولوجيا ← اقتصاد وهيكل اجتماعى. تتألف إيكولوجيا الصين فى أساسها من سهول خصبة نسبيا وجبال منخفضة وأنهار صالحة للملاحة وزراعة جيدة. وسيطرة مركزية سهلة نسبيا على المجتمع. وتحتاج الشعوب الزراعية إلى العيش معا فى انسجام ـ وليس بالضرورة أن يحب كل منهما الآخر (ولنفكر فى نمط الفلاح الفظ فى نيو إنجلاند) ـ ولكنهم يؤثرون العيش معا بأسلوب متناغم على نحو معقول. ويصدق هذا بوجه خاص على زراعة الأرز وهى الزراعة المميزة لجنوب الصين واليابان وتستلزم أن تتضافر جهود الناس لإعداد وزراعة الأرض. ولكنها أيضا مهمة حيثما يكون الرى مطلوبا وميسورا كما هو الحال فى وادى النهر الأصفر شمال الصين، حيث حكمت أسرة شانج (من القرن الثامن عشر وحتى الحادى عشر ق.م.) وأسرة شو (من القرن الحادى عشر ق.م. وحتى ٢٥٦ ق.م.). وطبيعى أن نظام الرى يهيئ الفرصة لكى يعيش الناس جيرانا متعاونين، ولكنه علاوة على هذا يستلزم سلطة مركزية. ولهذا كانت الصين شأن جميع المجتمعات الزراعية

قديما، خاضعة لحكام مستبدين. ويصبح لزاما على المزارعين أن يعيشوا فى انسجام مع جيرانهم وأن تخضع القرى لحكم كبار السن فيها علاوة على حاكم مدنى إقليمى يكون ممثلا للملك (أو للإمبراطور كما هو الحال بعد أن توحدت الصين). وهكذا عاش الإنسان العادى وسط عالم معقد من القيود الاجتماعية.

وتألفت إيكولوجيا اليونان القديمة، من ناحية أخرى، من جبال فى أغلبها تنحدر سفوحها إلى البحر، وآثر أهلها العمل بالقنص والرعى وصيد الأسماك والتجارة (بل لنكن صرحاء ونقول والقرصنة). وهذه جميعها مهن تستلزم قدرا قليلا نسبيا من التعاون مع الآخرين. والحقيقة أن هذه الأنشطة الاقتصادية جميعها، باستثناء التجارة، لا تستلزم بالضرورة العيش داخل المجتمع المحلى المستقر نفسه مع آخرين. والمعروف أن الزراعة المستقرة وفدت إلى اليونان القديمة متأخرة عن الصين بألفى عام، وسرعان ما أصبحت نشاطا تجاريا فى مناطق كثيرة وليس لسد الاحتياجات الغذائية فقط. وكانت تربة اليونان وكذا مناخها ملائمين تماما لصنع النبيذ وإنتاج زيت الزيتون. وأصبح أكثر المزارعين، مع حلول القرن السادس ق.م. أقرب إلى وصفهم برجال الأعمال وليسوا مزارعين. واستطاع اليونانيون قديما، لهذا السبب، أن يعملوا لحساب أنفسهم أكثر مما هو الحال بالنسبة للصينيين. ولم يكن اليونانيون القدامى يشعرون بأن من الضرورى الحفاظ على مناخ التناغم مع رفاقهم مهما كلفهم هذا من ثمن. ونجد على العكس تمكنت منهم عادة المحاجاة مع بعضهم فى ساحات اللقاء الاجتماعية والحوار داخل الجمعية العامة.

الهيكل الاجتماعى والممارسة الاجتماعية ← اهتمام وميتافيزيقا العامة.

اضطر الصينيون إلى التطلع إلى الخارج حيث نظرائهم وإلى أعلى حيث السلطات الحاكمة وذلك فى إدارة حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتمثل علاقاتهم مع الآخرين أساسا لكل من الضغوط الرئيسية الحاكمة لحياتهم، والمصدر الأول للفرص المتاحة أمامهم. وإن عادة التطلع إلى العالم الاجتماعى، ربما أدت إلى تعزيز الميل للنظر إلى المجال بوجه عام؛ كما وأن الحاجة إلى الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية ربما أدت إلى توسيع نطاق نزوعهم نحو الاهتمام بالعلاقات على اختلاف أنواعها. وعبر عن هذا عالما النفس الاجتماعيان هازيل ماركوس وشينوبو كيتاياما إذ قالا: إذا ما رأى المرء نفسه جزءا متكاملا فى سياق أكبر فإن من الأرجح أن يرى الموضوعات أو الأحداث بالطريقة نفسها: لذلك فإن ميتافيزيقا العامة Folk Metaphysics ـ المعتقدات بشأن طبيعة العالمين الاجتماعى والطبيعى ـ سوف تأتى وليدة حقيقة واقعة واحدة: أبدى الصينيون اهتماما شديدا بالعالم الاجتماعى. وإن الإحساس بأن الذات رهن شبكة من العلاقات والالتزامات الاجتماعية ربما جعل من الطبيعى النظر إلى العالم بعامة كجواهر متصلة ومركبة معا وليس موضوعات متمايزة ومنفصلة. ويمكن النظر، والحال كذلك، إلى السببية وكأنها حالة فى المجال أو ماثلة فى العلاقة بين الموضوع والمجال. وطبيعى أن يشجع الاهتمام بالمجال الإقرار بالتعقد والتغير وكذا القول بالتناقص بين عناصره الكثيرة والمتنوعة.

ولكن الإغريق كان لديهم ترف الاهتمام بموضوعات، من بينها الآخرين من البشر وأهداف هؤلاء بالنسبة لهم، دون أن تؤثر عليهم علاقاتهم

بالآخرين أو تحد من سلوكهم على نحو مبالغ فيه. يستطيع الإغريقى أن يخطط من أجل حصاد زراعى أو أن يغير الموقع الذى يرعى فيه ماشيته وأغنامه، أو أن يبحث فيما إذا كان من المفيد له أن يبيع سلعا ما جديدة وأن يستشير على نحو محدود أو لا يستشير على الإطلاق الآخرين. وربما جعل هذا من الطبيعى بالنسبة للإغريق أن يركزوا اهتمامهم على صفات الموضوعات مع النظر فى اتجاه تصنيفها إلى فئات واكتشاف القوانين والقواعد التى تسمح لهم بالتنبؤ وضبط السلوك. ويمكن هنا النظر إلى السببية باعتبارها نتيجة لخواص الأشياء أو ثمرة عمل الإنسان وتأثيره فى الأشياء. وشجعت مثل هذه النظرة إلى السببية وضع الافتراضات الإغريقية عن الاستقرار والثبات والدوام وكذا افتراض أن تغير الموضوع تحت سيطرتهم.

وهكذا يمكن القول إن ميتافيزيقا العامة فى المجتمعين نبعت مباشرة من الأهداف التى اهتم بها كل منهما: البيئة أو المجال فى حالة الصينيين والموضوع فى حالة الإغريق. وطبيعى أيضا أن تأتى الميتافيزيقا العلمية لكل مجتمع انعكاسا صادقا للنظرات السائدة بين العامة.

ميتافيزيقا العامة ← أبستمولوجيا ضمنية وعمليات معرفية. وكان متوقعا أن تؤثر ميتافيزيقا العامة فى الأبستومولوجيا الضمنية أو المعتقدات tacit epistemology بشأن كيفية اكتساب معارف جديدة. وإذا كان العالم مكانا تؤكد فيه العلاقات بين الأشياء والأحداث أنها حاسمة فى تحديد نتائجها فسوف يبدو مهما أن يكون بالوسع ملاحظة جميع العناصر المهمة فى المجال لمعرفة العلاقات بين الموضوعات واكتشاف العلاقة بين الأجزاء والكل. وسوف تتطور عمليات الانتباه والاهتمام والإدراك والتفكير العقلى والتى

تركز على تسجيل الأحداث المهمة وتمييز العلاقات المعقدة بينها. وإذا كان العالم، من ناحية أخرى، مكانا تكون فيه الموضوعات خاضعة لقواعد وقوانين وفئات فسوف يبدو حاسما أن يكون بوسعنا فصل الموضوع عن سياقه واستدلال أى الفئات يدخل ضمنها الموضوع، واستدلال الكيفية التى نطبق بها القواعد على تلك الفئات. وهنا سوف تتطور العمليات لخدمة تلك الوظائف.

أخيرا يمكن للممارسات الاجتماعية أن تؤثر فى عادات التفكير بشكل مباشر. ويمكن اعتبار الجدل والمنطق أداتين معرفيتين لمعالجة النزاع الاجتماعى. وليس لنا أن نتوقع ممن ينبنى وجودهم الاجتماعى على التناغم أن يطوروا تراثا للمواجهة أو الجدل. وإنما على العكس إنهم إذا ما واجهوا تعارضا فى الآراء ينزعون على الأرجح إلى حسم التناقض أو التعالى عليه أو التماس "طريق وسطى" ــ أى بإيجاز تناول الموضوع جدليا. ولكن على النقيض لنا أن نتوقع ممن هم أحرار فى المحاجاة أن يطوروا قواعد وقوانين لإدارة الجدل بما فى ذلك مبدأ عدم التناقض والمنطق الصورى. وإنها لخطوة يسيرة وميسورة للانتقال من المنطق إلى العلم كما لحظ ألان كرومر عالم الفيزياء ومؤرخ العلم الذى قال: "العلم من هذه الزاوية امتداد للخطابة. اخترعته اليونان القديمة، واليونان القديمة دون سواها، لأن المؤسسة الإغريقية الممثلة فى الجمعية العامة أولت مهارة الجدل مكانة عظمى .... البرهان الهندسى هو .... أقصى صورة خطابية".

إحدى الدلالات المهمة لهذه النظرة إلى أسباب الفوارق الذهنية عند اليونان والصين قديما هى ما تتضمنه هذه النظرة من الاتزان الوظيفى

الاجتماعي. إذ القوى الاقتصادية تعمل على الحفاظ على الهياكل الاجتماعية المختلفة وتدريب الأطفال فإن هذا كله سوف يسفر عن شعب يركز اهتمامه على أشياء مختلفة فى البيئة. وطبيعى أن تركيز الاهتمام على أشياء مختلفة تتولد عنه حالات فهم مختلفة لطبيعة العالم. كذلك فإن اختلاف النظرة إلى العالم سوف يعزز بدوره اختلاف مكان الاهتمام والممارسات الاجتماعية. علاوة على هذا فإن اختلاف النظرة إلى العالم سوف يحفز الفوارق فى عمليات الإدراك والتفكير الاستدلالى — الذى ينزع بدوره إلى تعزيز النظرة إلى العالم.

وليس ثمة من سبب لافتراض أن النتيجة التى تنتهى بعمليات معرفية لا بد وأن تبدأ مع الإيكولوجيا. إذ يمكن أن تكون هناك أسبابا اقتصادية كثيرة ومختلفة التى يمكن أن تجعل بعض المجتمعات أو الجماعات أكثر اهتماما بزملائهم من البشر، وأسباب كثيرة يمكن أن تجعلهم أكثر اهتماما بالموضوعات وبأهدافهم هم بالنسبة إليهم. مثال ذلك أن مشروعات الأعمال والبيروقراطيات الحديثة ومشروعات الأعمال التى يديرها مقاولو الأعمال لا تستلزم بالضرورة الاهتمام بنطاق واسع من نظائرها وعددًا كبيرًا من المراقبين. ولكنها بدلا من هذا تستلزم جماعات تركز على مجموعة محدودة نسبيا من الأهداف ومتابعتها بشكل مستقل. ويمكن أن يكون الأداء أفضل عمليا إذا ما تم إغفال آخرين إلى حد كبير بدلا من الاهتمام بهم عن كثب. ومن ثم لا ضرورة لأن تبدأ السلسلة حتى بالاقتصاد. ويمكن أن تكون هناك أسباب كثيرة مختلفة من شأنها أن تحفز الاهتمام بالآخرين: مثال ذلك العضوية فى مجتمع محلى دينى شديد التزمت والصرامة وله قواعده

السلوكية الصارمة. كذلك؛ بالمثل هناك عوامل كثيرة يمكن أن تحفز الناس إلى التركيز أولا وأساسا على الموضوعات وعلى أهدافهم المتعلقة بهم.

الدعم العصرى للنظرية الأصلية:

تصادف أن هذا التفسير الاجتماعى ـ الاقتصادى للمعرفة يتلاءم مع بعض التغيرات التاريخية المهمة فى الغرب. إذ ما أن أصبح الغرب زراعيا أساسا فى العصور الوسطى حتى أصبح أقل نزوعا للفردية. ولم يكن الفلاح الأوروبى على الأرجح مختلفا كثيرا عن الفلاح الصينى من حيث التكامل أو الحرية فى الحياة اليومية أو من حيث الإنجاز الفكرى والثقافى. وبينما كان الأمراء العرب يناقشون أفلاطون وأرسطو، وحكام مدن الصين يكشفون عن براعتهم فى جميع الفنون، كان نبلاء أوروبا قابعين على الأرض يهبرون قطع اللحم داخل قلاع رطبة.

وقرب نهاية العصور الوسطى شهدت الزراعة الأوروبية (خاصة باختراع طوق رقبة الحصان الذى يسر العمل بالمحراث الذى يجره الحصان) تقدما ملحوظا خلق ثروات وفيرة مما أدى إلى نشوء مراكز تجارية جديدة تشبه كثيرا الدول ـ المدن فى اليونان القديمة. وكانت الدول ـ المدن الإيطالية ثم من بعدها الدول ـ المدن الشمالية تتمتع بدرجة عالية جدا من الاستقلال الموضوعى ولا تخضع فى نواحٍ كثيرة لسلطة الملوك والأباطرة المستبدين. وتحلى كثيرون منهم بصفات ديمقراطية أو على الأقل صفات الحكام الأوليجاركيين، (الأغنياء). وطبيعى أن الميلاد الجديد للدولة ـ المدينة مقترنا بطبقة أغنياء التجار أفضى إلى بعث جديد للنزعة الفردية والحرية الشخصية والنزعة العقلانية والعلم. ومع حلول القرن الخامس عشر استيقظت

أوروبا من سباتها الذى امتد ألف عام وبدأت تنافس الصين فى جل المجالات ــ الفلسفة والرياضيات والفنون والتكنولوجيا.

ووقع حدث فى مطلع القرن الخامس عشر يكشف طبيعة الاختلافات بين أوروبا والصين. وأعنى به رحلة "الخصى الأعظم Grand Eunuch" التى ضمت مئات السفن التى أبحرت من الصين إلى جنوب وجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط وغرب أفريقيا محملة بالثروات والأعاجيب. حققت الرحلة هدفها الأول وهو إقناع الأمم المطلة على المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر أن الصين متفوقة من جميع النواحى على مجتمعاتهم. ولم يكن الصينيون معنيين برؤية أى شىء تنتجه هذه المجتمعات أو معروفا عنها ــ بما فى ذلك حيوان الزرافة الذى عرضه الأفارقة المضيفون على ضيوفهم. واكتفى الصينيون بالدفع بأن هذا الحيوان معروف لديهم باسم كى لين وأنه كائن من المتوقع ظهوره إيذانا بأحداث مهمة من مثل ميلاد إمبراطور عظيم.

وكان هذا الافتقار إلى الفضول المعرفى خاصية مميزة للصين. إذ كان معروفا أن سكان المملكة الوسطى (إذ إن اسم الصين بالرسم الصينى يعنى "مركز العالم") لم يهتموا كثيرا بالحكايات التى يرويها لهم الأجانب. علاوة على هذا لم تعرف الصين اهتماما قويا بالمعرفة من أجل المعرفة. وأكثر من هذا أن الفلاسفة الصينيين المحدثين كانوا عزوفين للغاية عن الاستخدام البرجماتى للمعرفة على عكس اهتمامهم بالتنظير المجرد لذاته.

إن الإنجازات الفكرية المتقدمة التى تميزت بها أوروبا بمعدلات متزايدة ابتداء من القرن الخامس عشر حتى الآن تحتاج فى ظنى إلى ما هو

أكثر من التفسير الإيكولوجي أو الجيوبوليتيكى من النوع الذى طرحه بعض أنصار النظرة التاريخية الكلية macrohistory بمن فـيهم صـاحب الكتـاب الرائع "البنادق والجراثيم والصلب" الذى ألفه جاريد دياموند. وحيث إن مـن الصحيح أن الاستبداد وما يترتب عليه من قمع للرأى وللمبـادرة يمكـن أن يظهر فى الصين بأيسر مما يظهر فى أوروبا على أسس إيكولوجيـة لـذلك يبدو لى أننا نخطئ إذ نقصر تفسير حرية البحث والتقدم العلمى فى أوروبـا على عوامل فيزيقية بحتة. ونعرف أنه قبل القرن الخامس عشر تم غـرس هذه القيم والذهنية المرتبطة بها فى العقل الأوروبى. وشرع مارتن لوثر فى عرض أطروحاته الخمس والتسعين ضد مباذل الكنيسة وطغيانها ليس فقـط لأن من اليسير عليه الانطلاق بها جغرافيا بل لأن تاريخ أوروبا خلق نوعـا جديدا من الإنسان ــ الإنسان الذى تصور الأفراد كيانـات منفـصلة عـن المجتمع المحلى الأكبر وفكر فى ضوء مصطلحات مشبعة حريـة. وأنجـز جاليليو ونيوتن اكتشافاتهما ليس فقط لأنه لم يكن أحدهما مقموعا بل بـسبب فضولهما المعرفى والعادات الفكرية لعقليهما.

وها هو الشرق الآن بطبيعة الحال يدنو من رصيد الغرب من الأفكار بمعدل متزايد السرعات. وثمة أسئلة تطرأ على الذهن: ما عسى أن يكون أثر هذه الأفكار على الشرق؟ كيف عساها أن تكون بعد أن تمر عبر المـصفاة الشرقية؟ وما هى التعديلات التى يمكن أن يتبناها الغـرب؟ يمكـن تخمـين الإجابات عند النظر إلى الاختلافات فى العادات العقلية للمعاصرين لنا الآن.

من حيث التاريخ فإن التفسير الذى اقترحه لبيان سبب تباعد الـصين واليونان قديما على نحو ما رأينا هو تفسير تأملى. بيد أنه، مع هـذا، يمثـل

رؤية علمية ــ ذلك لأنه يفضى إلى تنبؤات يمكن أن تخضع للاختبار، بل واختبارها فى معمل علم النفس.

قدم علماء النفس فى القرن العشرين شواهد وأدلة على أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية يمكن أن تؤثر على العادات الإدراكية. وأوضح هيرمان وتكين ورفاقه أن بعض الناس أقل ميلا من سواهم إلى فصل الموضوع عن البيئة المحيطة به. وسموا هذا البعد "الاعتمادية على المجال" field dependency ــ فى إشارة إلى درجة تأثر إدراك الموضوع بالخلفية أو البيئة التى يظهر فيها. وقاس وتكين ورفاقه الاعتمادية على المجال بوسائل عديدة متباينة. إحدى هذه الوسائل هى اختبار المؤشر والإطار ROD and frame test. ينظر المشارك فى هذا الاختبار داخل صندوق طويل فى نهايته عصا حولها إطار. ويمكن إمالة كل من العصا والإطار فى استقلال عن بعضهما، ومهمة المشارك فى الاختبار هنا أن يقول متى تكون العصا فى وضع رأسى تماما. ويوصف المشارك بأنه معتمد على المجال بقدر ما تكون أحكامه عن الوضع الرأسى للعصا متأثرة بوضع الإطار. أسلوب آخر لاختبار الاعتمادية على المجال هو أن يجلس الشخص المشارك فى كرسى يميل مستقلا عن الحجرة أو المكان الذى فيه. ويسمى الاختبار فى هذه الحالة "اختبار توافق وضع الجسم Body adjustment test". ويعتبر المشارك معتمدا على المجال بقدر ما تكون أحكامه عن الوضع الرأسى لجسمه هو متأثرة بانحدار أو ميل المجال. أسلوب ثالث، هو الأيسر فى التطبيق، هو اختبار الأشكال المطمورة Embedded figures test. وتتمثل مهمة المشارك هنا فى أن يحدد موقع شكل بسيط مطمور داخل شكل أكثر تعقيدا بدرجة كبيرة.

وكلما طالت الفترة الزمنية التى يقضيها المشارك للاهتداء إلى الشكل البسيط المطمور وسط سياقه المعقد كان أكثر اعتمادا على المجال.

إحدى دلالات فكرة أن العوامل الاقتصادية يمكن أن تؤثر فى العادات المعرفية هى أن الشعوب الزراعية أكثر اعتمادا على المجال من الشعوب التى تعوّل فى حياتها على أساليب عيش أقل ركونا إلى التنسيق الوثيق بين جهودهم وجهود الآخرين من مثل القنص وجمع الثمار. وهذا هو واقع الحال بالفعل. ولنا أيضا أن نتوقع أن تكون الشعوب العاملة بالزراعة تقليديا أكثر اعتمادا على المجال من الشعوب التى تعيش فى مجتمعات صناعية حيث يمكن للمرء أن يتابع إنجاز أهدافه الشخصية دون اهتمام عن كثب بشبكة الأدوار والالتزامات الاجتماعية. وهذا صحيح وما يشهد به الواقع. والملاحظ حقيقة أن من يعيشون على القنص وجمع الثمار وكذا من يعيشون فى المجتمعات الصناعية كلاهما متساويان فى درجة الاعتماد على المجال.

إذن الفارق الأول بين الشعوب الزراعية من ناحية والمجتمعات التى تعيش على القنص وجمع الثمار وكذا المواطنين المحدثين المستقلين فى المجتمعات الصناعية الحديثة من ناحية أخرى فارق يتعلق بدرجة الاهتمام بالعالم الاجتماعى. وإذا صح هذا سوف يكون من المقبول عقلا أن نتوقع أن الثقافات الفرعية داخل مجتمع ما مختلف من حيث درجة الاعتمادية على المجال. وعمد عالم النفس المختص بدراسة الشخصية زخارى ديرشوفيتز إلى اختبار هذا الفرض. لذلك درس الاعتمادية على المجال بين صبية يهود أورثوذكس الذين يعيشون، كما أكد هو، داخل أسر وأوضاع اجتماعية تؤكد صراحة على دور العلاقات وتفرض موضوعيا قيودا اجتماعية. وقارن بين

أدائهم وأداء صبية يهود علمانيين يخضعون، كما يؤكد، لضوابط اجتماعية أكثر استرخاء وتساهلا. وقارنها أيضا مع صبية بروتستانت يعيشون، كما يعتقد، حياة تسودها ضوابط أكثر من هؤلاء تسامحا. وكما هو متوقع وجد ديرشوفيتز أن الصبية الأورثوذكس أكثر اعتمادا على المجال من الصبية اليهود العلمانيين وهؤلاء بدورهم أكثر اعتمادا على المجال من الصبية البروتستانت.

وليس ثمة سبب يدعو إلى افتراض أن الاعتمادية على المجال تحدث فقط كنتيجة لقيود اجتماعية مفروضة من خارج. وإنما لنا أن نتوقع أن الاهتمام بالآخرين، أيا كان مصدره، لا بد وأن يقترن بالاعتمادية على المجال. والحقيقة أن من يتصفون بالاعتمادية على المجال نسبيا يروق لهم أن يكونوا مع آخرين أكثر مما هو الحال بالنسبة لمن يتصفون بالاستقلالية النسبية عن المجال. ويلاحظ أيضا أن المعتمدين على المجال لديهم ذاكرة أفضل من حيث تذكر الوجوه والكلمات الاجتماعية (زيارة، حقل) قياسا إلى المستقلين نسبيا عن المجال. وإذا أتيحت فرصة الاختيار للمعتمدين على المجال فإنهم يؤثرون الجلوس متقاربين جدا من بعضهم أكثر مما هو الحال بالنسبة للمستقلين نسبيا عن المجال.

دلالات خاصة بالفكر في العالم الحديث:

ولكن دلالات الرأى الذى أقترحه تتجاوز كثيرا حدود أسلوب بعينه فى إدراك الموضوعات من حيث علاقتها بالبيئة. وإذا كان صوابا ما ذهبت إليه من تفسير للعلاقة بين العوامل الاجتماعية وعمليات الفكر، وإذا كانت

الفوارق الاجتماعية بين الشرق والغرب اليوم تشبه ما كان في الأزمنة القديمة؛ إذن يصبح بوسعنا أن نصطنع عددا من التنبؤات المهمة بشأن الفوارق المعرفية بين الآسيويين الشرقيين والغربيين المعاصرين. وأعتقد أن من المحتمل أن نجد اختلافات في:

- أنماط الانتباه والاهتمام والإدراك حيث أبناء شرق آسيا يهتمون أكثر بالأوساط والبيئات، بينما الغربيون يبدون اهتماما أكثر بالموضوعات. كذلك أبناء شرق آسيا أكثر ميلا من الغربيين إلى اكتشاف العلاقات بين الأحداث والوقائع.
- الفروض الأساسية عن تكوين العالم، حيث أبناء شرق آسيا يرون في العالم تكوينات متداخلة بينما يرى فيه الغربيون موضوعات مستقلة.
- المعتقدات بشأن إمكانية التحكم في البيئة حيث يؤمن الغربيون بإمكانية التحكم أكثر مما يؤمن أبناء شرق آسيا.
- الفروض الضمنية عن الاستقرار والثبات مقابل التحول والتغير حيث يرى الغربيون الثبات بينما يرى أبناء شرق آسيا التحول.
- الأنماط الأثيرة لتفسير الأحداث، حيث الغربيون يركزون على الموضوعات بينما أبناء شرق آسيا يلقون بشبكة عريضة تشمل البيئة.
- العادات في تنظيم مكونات العالم، حيث الغربيون يؤثرون التصنيف إلى فئات بينما أبناء شرق آسيا أميل إلى تأكيد العلاقات.

- استخدام قواعد المنطق الصورى حيث الغربيون يميلون إلى استخدام القواعد المنطقية لفهم الأحداث أكثر مما هو حال أبناء شرق آسيا.
- تطبيق أساليب التناول الجدلية، حيث إن أبناء شرق آسيا يميلون أكثر إلى التماس طريق وسطى إذا ما واجهتهم حالة تناقض ظاهرى هذا بينما الغربيون أكثر ميلا إلى تأكيد صواب اعتقاد ما دون سواه.

هذه على أية حال توقعاتنا بشأن عادات العقل المترتبة على نظرتنا إذا كان الغربيون وأبناء شرق آسيا حقا لديهم أساليب مختلفة على نحو أساسـى فى النظر إلى أنفسهم دون رؤية العالم الاجتماعى.

الباب الثالث

العيش معا أم الحياة فرادى؟

يؤمن غالبية الغربيين، أو لنقل غالبية الأمريكيين بأن التعميمات التالية تصدق تقريبا على كل فرد:

- كل فرد يتصف بمجموعة من الصفات المتمايزة والمميزة له. وأكثر من هذا يريد الناس أن يكونوا متمايزين، أى مختلفين عن الآخرين من نواح مهمة.
- الناس متحكمون إلى حد كبير فى سلوكهم؛ يشعرون بأنهم فى حال أفضل حين يكونون فى مواقف من شأنها أن تجعل الاختيار والتفضيل الشخصى هما العامل المحدد للنتائج.
- الناس يتجهون صوب أهداف شخصية تمثل نجاحا وإنجازا، ويرون أن العلاقات والانتماء عضويا لجماعة ما يتوافق أحيانا مع نهج المرء لبلوغ هذه الأهداف.
- يجاهد الناس بغية الإحساس بالرضى عن أنفسهم. وتمثل النجاحات الشخصية والضمانات التى تؤكد هذه الخاصيات الإيجابية عنصرا مهما لتوليد هذا الإحساس بالرضى والرفاه.

- يفضل الناس الكيف فى حالة العلاقات الشخصية أو يفضلون الوضع الاسمى حين تكون العلاقات تراتبية هرمية.
- يؤمن الناس بضرورة أن تنطبق القواعد والقوانين نفسها على الجميع. ينبغى عدم استثناء أحد ليلقى معاملة خاصة بسبب صفات شخصية أو روابط وعلاقات خاصة تربطه بأشخاص مهمين ذوى حيثية. العدالة عمياء لا تميز بين شخص وآخر.

وهناك فى الحقيقة ملايين بهذه الصفات، ولكن نجدهم أساسا فى أوروبا وبخاصة فى شمال أوروبا وفى بلدان الكومنولث البريطانى الآن وفى الماضى بما فى ذلك الولايات المتحدة. ويلاحظ أن السمات النفسية الاجتماعية المميزة لغالبية المجتمعات الأخرى فى العالم، خاصة مجتمعات شرق آسيا أميل إلى الاختلاف عن ذلك بدرجة أو بأخرى.

الذات غير الغربية:

هناك تعبير آسيوى يعكس انحيازا ثقافيا ضد الفردية: "الخنزير الذى يبعد عن القطيع يشبع ضربا". ويسود اعتقاد عام يفيد بأن الآسيويين أقل اهتماما من الغربيين بالأهداف الشخصية أو تعظيم الذات ولكن الاهتمام ينصبّ غالبا على أهداف الجماعة والعمل المتآزر. كذلك فإن الحفاظ على العلاقات الاجتماعية فى تناغم له الأسبقية على إنجاز نجاح شخصى. والنجاح هدف منشود باعتباره هدفا جماعيا وليس وسام استحقاق شخصيًا. والتميز الفردى ليس مستصوبا فى ذاته. والملاحظ عند الآسيويين أن الشعور بالرضى عن النفس مقترن على الأرجح بالشعور بأنهم فى تناغم مع رغبات

وأمانى الجماعة التى ينتمون إليها ووفائهم بكل ما تتوقعه الجماعة منهم. أما المساواة فى المعاملة فليست مفترضة ولا ينظرون إليها كشىء مستصوب بالضرورة.

ومن المسلم به أن القواعد التى تنطبق على العلاقات فى شرق آسيا هى قواعد محلية خاصة، ومحددة جيدا على أساس الدور المنوط بها وليست قواعد كلية. وقال لى صديق آسيوى إن أهم شىء لحظه عند زيارته للأسر الأمريكية هو أن كل فرد حريص دائما على توجيه الشكر لكل فرد آخر: "شكرا لإعدادك المائدة"؛ "شكرا لك إذ غسلت السيارة". ولكن فى بلده كل امرئ عليه التزام واضح فى سياق محدد، ولا حاجة بك لأن تقدم شكرا على أداء الواجب. والاختيار ليس أولوية قصوى عند غالبية شرب العالم. [سألنى ذات يوم صديق من شرق آسيا : لماذا يرى الأمريكيون ضرورة أن يحددوا اختيارهم من بين أربعين نوعا من حبوب طعام الإفطار فى السوق المجمعة "السوبر ماركت"؟]. ويتسق هذا مع ما يشعر به الآسيوى من أنه غير أهل ليكون صاحب قرار عندما يكون لزاما عليه أن يختار.

إن غالبية الأمريكيين ممن تجاوز عمرهم سنا معينة يتذكرون كتاب "تعلم القراءة" فى الطفولة وعنوانه "ديك وجين". كان ديك وجين وكلبهما سبوت عناصر فردية نشطة. نطالع الصفحة الأولى من الطبعات الأولى فى ثلاثينيات القرن العشرين (هذا الكتاب لتعلم القراءة ظل مستخدما على نطاق واسع حتى ستينيات القرن العشرين) ونجد هذه الصفحة تصور صبيا صغيرا يجرى وسط المروج. وتقول العبارات الأولى : "انظر ديك يجرى. انظر ديك يلعب. انظر ديك يجرى ويلعب". ويبدو أن هذا نوع طبيعى جيدا لتقديم

المعلومات الأساسية عن الأطفال، وفقا للذهنية الغربية. ولكن الصفحة الأولى من الكتاب الأول الصينى لتعليم القراءة خلال الحقبة نفسها يوضح صبيا صغيرا جالسا على كتفى ولد أكبر: "الأخ الأكبر يعتنى بالأخ الأصغر. الأخ الكبير يحب الأخ الصغير. الأخ الصغير يحب الأخ الكبير". ها هنا لا نجد سلوكا فرديا بل علاقات بين الناس، وهى الشيء المهم نقله للطفل فى أول عهده مع الكلمة المطبوعة.

والحقيقة أن الذات بالأسلوب الغربى تبدو فى نظر الآسيوى الشرقى ضربا من نسج الخيال. ويقول فى هذا الصدد الفيلسوف هو شيه: "فى الفلسفة الكونفوشية التى تتخذ الإنسان محورا لها، لا يمكن أن يوجد الإنسان وحده؛ ويجب أن تكون جميع الأعمال فى صورة تفاعل بين إنسان وإنسان". المرء موجود دائما داخل أوضاع ــ خاصة المواقف التى تضم أفرادا أو جماعات بذاتها ممن يرتبط بهم المرء بعلاقات من نوع محدد ــ والفكرة التى ترى أن بالإمكان وجود صفات أو أفعال غير مشروطة بظروف وملابسات اجتماعية فكرة غريبة على الذهنية الآسيوية. وقدم عالم الأنثروبولوجيا اوارد تى. هول فكرة مجتمعات "السياق ــ الأدنى" low-context society ومجتمعات "السياق ــ الأعلى" high-context societies. وأراد بذلك أن يمسك بالفوارق فى فهم الذات. يرى الغربى أنه من المعقول لديه أن يتحدث عن شخص باعتبار أن له صفات محددة مستقلة عن الملابسات والظروف أو عن علاقات شخصية محددة. إن هذه الذات ــ العنصر الفاعل الحر ذا الحدود الملزمة الذى لا يقبل النفاذية ــ يمكن أن تنتقل من جماعة إلى جماعة ومن وضع إلى آخر دون أن يطرأ عليها تغير مهم. ولكن المرء من

أبناء شرق آسيا (وكذا غالبية الشعوب الأخرى بـدرجات متفاوتـة) يـرى الشخص ملزمًا بارتباطات ومحكومًا بشروط وأوضاع وغير معزول بحدود. وعبر عن هذا الفيلسوف دونالد مونرو إذ قال : "يفهم الآسيويون الـشرقيون أنفسهم فى ضوء علاقاتهم بالكل من مثل الأسرة أو المجتمع أو مبدأ الطـاو أو الوعى المحض". يشارك المرء فى مجموعة من العلاقات التـى تيـسر عليه العمل، كما أن السلوك المستقل تماما هو سلوك غير ممكـن ولا حتـى مستصوبا".

وحيث إن كل عمل يجرى فى تضافر واتساق مع الآخرين، أو علـى أقل تقدير يؤثر فى الآخرين فإن التناغم "الهارمونى" فى العلاقات يغدو هدفا رئيسيا للحياة الاجتماعية. وعرضت تصويرا تخطيطيا عاما بهـدف تحديـد مختلف أنمـاط الإحـساس بالـذات فـى علاقتهـا بالجماعـة المفـضلة أو الجماعة الداخلية(*) أو دائرة الأصدقاء وثيقة الصلة أو الأسرة. ويكـشف التصوير التوضيحى أيضا عن البعد النسبى بين الجماعة الداخلية والجماعـة الخارجية، أو من هم مجرد معارف على أحسن تقدير. ويشعر أبناء شـرق آسيا أنهم ساكنون فى أعماق جماعاتهم الداخلية وبعيـدون عـن جماعـاتهم الخارجية. وهم أميل إلى الشعور بأنهم متماثلون للغاية مع أعضاء الجماعـة

(*) الجماعة الداخلية in-group جماعة يسودها مستوى عال من روح الجماعة وشـعور قوى بالاعتداد الذاتى لهذا الانتماء، ويحدد الفرد انتماءه الاجتماعى على أساس هـذه العلاقة ويؤثرها على غيرها. أما الجماعة الخارجية فهى الجماعة التى لا ينتمى إليها المرء ولا يربطه بها التزام ما (المترجم).

الداخلية، ويولونهم ثقة أكبر كثيرا من ثقتهم بأعضاء الجماعة الخارجية. ويشعر الغربيون أنهم مقطوعو الصلة نسبيا بجماعاتهم الداخلية، وهم أميل إلى اصطناع تمايزات أساسية وكبيرة تمايز بين الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية.

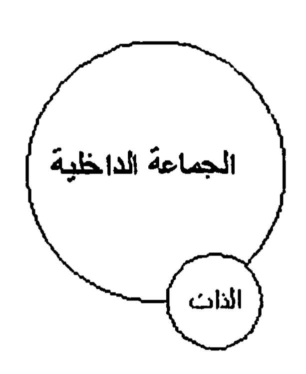
وتوضح بعض الحقائق الإنسانية الهوة النفسية الاجتماعية بين الشرق والغرب. إننا لا نجد فى اللغة الصينية كلمة للدلالة على "النزعة الفردية". وأقرب كلمة للدلالة عليها كلمة تعنى "الأنانية". كذلك فإن الرسم الصينى لكلمة جِنْ ــ الخيرية ــ يعنى "رجلان". كذلك كلمة "أنا" فى اللغة اليابانية – التى تعنى الذات المتعدية للموقف، غير المشروطة والعامة الكاملة لجميع صفاتها وأهدافها وقدراتها وأفضلياتها ــ لا تستخدم كثيرا فى المحادثات. ونجد فى اللغة اليابانية بدلا من هذا كلمات كثيرة للدلالة على "أنا" وكل منها رهن جمهور المخاطبين ورهن السياق. وإذا حدث أن أدلت امرأة يابانية بحديث رسمى فإنها عادة ما تستخدم، حسب العرف والتقاليد، كلمة "واتاشى" وهى أقرب كلمة يابانية لكلمة "أنا" المتعدية للموقف. وإذا أشار رجل إلى نفسه من حيث علاقته بأصدقاء حميمين فإنه يقول مثلا: "بوكو" أو "أور". وعندما يتكلم أب مع طفله فإنه يقول: "أوتوسان" أى أب "دادى". وقد تشير الفتاة إلى نفسها بكنيتها إذا ما كانت تحادث عضوا فى الأسرة: "تومو ستذهب إلى المدرسة اليوم". وغالبا ما يسمى اليابانيون أنفسهم "جيبون" وهى كلمة يفيد تحليلها التاريخى أنها تعنى "حصتى أو نصيبى أو قدرى".

النظرة الشرق آسيوية





النظرة الغربية





النظرتان الشرق آسيوية والغربية إلى العلاقات بين الذات والجماعة الداخلية والجماعة الخارجية

ونجد فى اللغة الكورية عبارة مثل "هل لك أن تحضر لتناول العشاء؟" تستلزم استخدام كلمات مختلفة للدلالة على "أنت أو المخاطب" وهو أمر شائع فى لغات كثيرة. ولكن كلمة العشاء أيضا تتوقف على نوع من تخاطبه

هل تدعو طالبا أم أستاذا. وتعكس مثل هذه الممارسات ليس فقط الأدب أو التواضع وإبقاء الذات بعيدا عن الأضواء، بل تعكس أيضا اقتناع أبناء شرق آسيا بأن المرء شخص مختلف باختلاف من يتفاعل معهم.

وعبارة "حدثنى عن نفسك" تبدو عبارة مباشرة تماما وكافية لكى تسأل عن شخص ما. ولكن نوع الإجابة يعتمد إلى حد كبير على نوع المجتمع الذى تسأل فيه هذا السؤال. الأمريكيون الشماليون سيحدثونك عن سماتهم الشخصية (ودود، دعوب فى العمل) وعن تصنيفات وصفات الدور (معلم، أعمل فى شركة تنتج الشرائح الالكترونية) وعن الأنشطة (سأذهب لمعسكر فترة من الزمن). وهنا نلحظ أن الأمريكيين لا يربطون أوصافهم لذواتهم بالسياق إلى حد كبير. ولكن الذات الصينية أو اليابانية أو الكورية ، على العكس من ذلك، تتوقف إلى حد كبير على السياق ("أنا جاد فى عملى"، أحب المزاح مع أصدقائى). وثمة دراسة طلبت من يابانيين وأمريكيين أن يصفوا أنفسهم سواء فى سياقات محددة أو دون تعيين نوع محدد من المواقف. وأوضحت الدراسة أن اليابانيين وجدوا أن من الصعب عليهم جدا وصف أنفسهم دون تعيين نوع محدد من المواقف فى العمل، فى البيت، مع أصدقاء... إلخ. ولكن الأمريكيين فى المقابل غلب عليهم الشعور بالارتباك حين حدد الباحث سياقا "أنا من أنا". ويلاحظ أن أبناء شرق آسيا حين يصفون أنفسهم يشيرون إلى الأدوار الاجتماعية (أنا صديق جون) ويهتمون بذلك أكثر من الأمريكيين. وكشفت دراسة أخرى عن أن اليابانيين ضعف الأمريكيين فى نزوعهم عند وصفهم لأنفسهم إلى الإشارة إلى الآخرين ("أطهو العشاء مع أختى").

وأوضحت دراسة استقصائية عن صفات وأفضليات الأمريكيين الشماليين أنهم يبالغون فى تقييمهم لتميزهم. ووضح من سؤال بعد آخر أن الأمريكيين الشماليين يتحدثون عن أنفسهم بأنهم أكثر تفردا مما هم فى الحقيقة، بينما أبناء شرق آسيا أقل ميلا للوقوع فى هذا الخطأ. ويفضل الغربيون كذلك التفرد فى البيئة أو الوسط وكذا التفرد فى ممتلكاتهم وما يتميزون به. ونذكر أن اثنين من علماء علم النفس الاجتماعى وهما هيجونج كيم وهازل ماركوس؛ سألا كوريين وأمريكيين أن يختار كل منهم من بين مجموعة موضوعات مصورة أى موضوع يفضلونه. اختار الأمريكيون الموضوع الأندر بينما اختار الكوريون الموضوع الأكثر شيوعا. وطلبوا منهم أن يختار كلٌ قلما هدية فاختار الأمريكيون اللون الأقل شيوعا من بين الألوان المطروحة أمامهم بينما اختار الكوريون الأكثر شيوعا.

وإنه لأمر ذو دلالة أن الكلمة اليابانية المعبرة عن تقدير الذات هى "سيروفو ايسوتيمو". إذ لا توجد كلمة وطنية تستوعب مفهوم الإحساس بالرضى عن النفس. ويلاحظ أن الغربيين أكثر اهتماما من أبناء شرق آسيا بتعزيز أنفسهم فى نظرهم وفى نظر الآخرين. كذلك نرى الأمريكيين أميل من اليابانيين إلى إطلاق تعبيرات تلقائية محببة عن أنفسهم. وتأتى تعبيرات الثناء على النفس الموجهة إلى الأمريكيين والكنديين متجاوزة كثيرا حدود المتوسط. ولكن أبناء شرق آسيا يضعون أنفسهم فى مرتبة أدنى قياسا بكل الأبعاد. إنهم لا يدعمون فقط أقل قدر من العبارات الإيجابية بل يؤكدون على الأرجح أن لديهم بعض الخلال السلبية. وليس من المرجح أن الآسيويين إذ يضعون أنفسهم فى مثل هذه المكانة إنما يعبرون عن قدر من التواضع أكثر

من الأمريكيين الشماليين. إن الآسيويين فى واقع الأمر يظهرون تواضعا بدافع من وخز الضمير، ولكن الفارق فى تحديد مكانة الذات يظل قائما حتى إذا ما ظن المشاركون أن إجاباتهم عامة وجماعية تماما.

ليس معنى هذا أن أبناء شرق آسيا مستاءون من صفاتهم. وإنما العكس إذ لديهم التزام ثقافى قوى بالشعور بخصوصيتهم أو بأنهم موهوبون غير عاديين. وأن هدف الذات فى علاقتها بالمجتمع ليست تأكيد التفوق أو التفرد بل تحقيق التناغم داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية الداعمة، وأن يؤدى المرء دوره فى إنجاز الغايات الجمعية. وتستلزم هذه الأهداف قدرا من النقد الذاتى، وهو نقيض دغدغة مشاعر الذات. وإذا كان علىّ أن أكون ملائما للجماعة ومتلائما معها يصبح لزاما أن أتجرد من كل ما يتعلق بنفسى ويثير حنق وغضب الآخرين أو يضاعف من صعوبة مهامهم. ويحرص أبناء شرق آسيا على تعليم أطفالهم التمازج مع الآخرين فى تناغم. ولكننا فى المقابل نجد بعض الأطفال الأمريكيين يذهبون إلى مدارس يحصل فيها كل طفل على صفة "فى. آى. بى." VIP أى شخص مهم جدا. (أذكر أنه فى بلدتى اجتمع مجلس إدارة المدرسة منذ بضع سنوات مضت وناقش هل الهدف الرئيسى للمدارس نقل المعارف أم غرس احترام الذات. وأشعر بالتقدير إزاء فيلم كارتون ظهر خلال هذه الفترة نفسها ويعرض باب غرفة يحمل عبارة "قاعة الاحترام".

ويتعلم أطفال المدارس فى اليابان كيف يمارسون نقد الذات سواء من أجل تحسين علاقاتهم مع الآخرين أو ليضاعفوا من مهاراتهم فى حل المشكلات. ونجد هذا الموقف الذى ينشد بلوغ نزعة الكمال perfectionism

من خلال النقد الذاتى مستمرا على امتداد العمر. إن رئيس الطهاة أو معلم الرياضيات لا ينظر إليه المجتمع باعتباره مستقلا إلا بعد أن يمضى المرء فى وظيفته عقدا كاملا. وواقع الأمر أن المعلمين اليابانيين يظلون طوال حياتهم العملية محط اهتمام ومتابعة ومساعدة نظرائهم لكى يصبحوا أفضل فى وظائفهم. وحرىّ أن نقارن هذا بالممارسة الأمريكية التى تدفع بالمعلمين حديثى التخرج إلى الفصول الدراسية بعد بضعة شهور من تدريبهم ثم يتركونهم وحدهم للنجاح أو للفشل، ويتركون التلاميذ لمصير قد يكون حسنا أو سيئا.

وأجرى ستيفن هاين ورفاقه تجربة تحدد الفارق بين اندفاع الغربى لكى يشعر بالرضى عن نفسه وبين دافع الشرق آسيوى لتحسين الذات. طلب الباحثون فى تجربتهم من طلاب كنديين ويابانيين الإجابة على اختبار كاذب لـ"الإبداع"، وأعطوا الطلاب "تغذية مرتدة" تفيد بأنهم أدوا أداء حسنا للغاية أو سيئا جدا. وحرىّ المجربون على أن يتابعوا سرا ويسجلوا طول المدة التى يستغرقها كل من المشاركين لإنجاز مهمة مماثلة. عكف الكنديون على أداء المهمة مدة أطول إذا كان النجاح حليفهم، بينما عكف اليابانيون على أداء المهمة مدة أطول إذا كان الفشل حليفهم. ولم يكن اليابانيون سعداء بالفشل إذ ليست لديهم نزعة مازوخية. وإنما رأوا أنهم إزاء فرصة لتحسين ذواتهم واستثمروها. وتكشف الدراسة عن دلالات مهمة بالنسبة لتطوير المهارات فى كل من الغرب وشرق آسيا. الغربيون أميل إلى إجادة عدد محدود من المهام ويتخذون ذلك منطلقا لعمل جيد. ويبدو أن الشرقيين أميل إلى أن يجيدوا كل شىء، أى صاحب الصنائع السبع.

الاستقلال مقابل الاعتمادية المتبادلة:

المفاضلة العامة بين طــرازى المجتمعات التى ناقشناها فيمــا ســلف كانت فكرة ثابتة رئيسية فى علم الاجتماع منذ القرن التاسع عشر. ويماثــل التمييز هنا التمييز الذى اصطنعه علماء الاجتماع الألمان فى القرن التاســع عشر خاصة فرديناند تونييس. إذ قدم تونييس تمييزا مفيــدا للمقارنــة بــين الثقافات، أى بين ما يسميه Gemeinschaft (المجتمع المحلى القائم على حس مشترك بالهوية) وGesellschaft (المؤسسة التى تهدف إلى تيسير النشاط من أجل إنجاز أهداف أداتية). وينبنى المجتمع المحلــى Gemeinschaft علــى العلاقات القائمة لذاتها ويرتكز على إحساس بالوحدة والتبادلية؛ مثال ذلــك: العلاقات بين أبناء الأسرة أو المحفل الدينى أو شبكة الأصدقاء. إنه مجتمــع قائم على التعاطف والتفاعل المباشر وجها لوجه، والخبرات المــشتركة بــل وربما الملكية المشتركة. ولكن المجتمع أو المؤســسة Gesellschaft ينبنــى على التفاعلات التى هى فى غالب الأحيان وسيلة نحو غاية. وتتضمن كثيرا تبادلات للسلع والعمل، كما ترتكز غالبا على أسلوب المساومة والتعاقــدات. وتسمح مثل هذه المنظومات الاجتماعية بالكسب الشخصى والميزة التنافسية. وتمثل الشركات الاتحادية الكبرى والبيروقراطيات مجتمع Gesellschaften.

ولا يحسبنّ أحد أن ثمة مؤسسة أو مجتمعًا هو بالكامل ودون اســتثناء من هذا الطراز أو ذاك. إنهما طرازان مثاليان نظريان لا أكثر. ولكن التمييز بينهما له أهمية تحليلية كبرى بالنسبة لكثير من العلوم الاجتماعيــة الحديثــة وخاصة علم النفس الثقافى. وغالبا ما يوصف مجتمع Gemeinschaft بالنظام الاجتماعى "الجمعى" ويوصف Gesellschaft بالنظام الاجتماعى "الفــردى".

وسبق أن اقترح كل من هازيل ماركوس وشينوبو كيتاياما مصطلحى "المتكافل أو القائم على الاعتماد المتبادل، و"المستقل". وهذان المصطلحان يفيدان الأفكار نفسها، لذلك سوف أستخدمهما.

يبدأ التدرب على الاستقلال أو التكافل حرفيا فى المهد. وإذا كان الأطفال الأمريكيون حديثو الولادة ينامون فى سرير مستقل عن الأبوين، أو ربما فى غرفة مستقلة، إلا أن هذا نادر الحدوث بالنسبة لأطفال شرق آسيا، وهو ما يحدث أيضا فى أغلب أنحاء العالم. ونجد على العكس أن النوم فى السرير نفسه هو الأكثر شيوعا. وتتضاعف الفوارق والاختلافات فى مظاهر حياة اليقظة. مثال ذلك أن الكبار المعجبين من أجيال عديدة غالبا ما يحيطون بالطفل الصينى الوليد. (حتى قبل أن تؤدى سياسة الطفل الواحد إلى إنتاج "الأباطرة الصغار"). كذلك الطفل اليابانى حديث الولادة يكاد يكون دائما مع أمه. وتعتبر العلاقة الوثيقة بالأم وضعا يتمنى بعض اليابانيين له أن يستمر بلا نهاية أو حدود. وأذكر بهذه المناسبة أن الباحثين فى معهد البحوث الاجتماعية بجامعة ميتشيجان أجروا دراسة تستلزم جدولا يقارن درجة ارتباط المفحوصين من كبار اليابانيين والأمريكيين بأمهاتهم. وبدت المهمة شديدة الصعوبة لأن الباحثين اليابانيين أصروا على ضرورة إضافة خاتمة مقبولة لديهم إلى جدول الاختبار للإجابة عليها. وتقول هذه العبارة الختامية: "أريد أن أكون مع أمى كل الوقت تقريبا". وأصر الأمريكيون بطبيعة الحال على أن عبارة كهذه ستثير صخب وسخرية المفحوصين الأمريكيين وربما تجعلهم يمتنعون عن أن يأخذوا الاختبار مأخذا جادا.

ويلقى أطفال الغرب تشجيعا دائما وبأساليب صريحة على الاستقلال ويطلب الآباء والأمهات الغربيون من أطفالهم دائما وأبدا أداء أعمال اعتمادا

على أنفسهم فقط، ويسألونهم دائما أن يحددوا اختياراتهم بأنفسهم: "هل تحب أن تنام الآن أم تفضل تناول شيء من الطعام أولا؟" ولكن الأب الآسيوى يتخذ القرار لابنه مفترضا أن الأب يعرف أفضل من الابن ما هو خير له.

وطبيعى أن الآباء والأمهات الذين يعملون على غرس روح الاستقلال فى نفوس أطفالهم لن يدهشهم إنجاز هدفهم جيدا بحيث إن أطفالهم يعارضون أى تهديد يمس حريتهم فى الاختيار. وطلب عالما النفس الاجتماعيان شينا ينجار ومارك ليبار من أطفال أمريكيين وصينيين ويابانيين تتراوح أعمارهم بين السابعة والتاسعة من العمر أن يعيدوا ترتيب أحرف عبارات محددة. مثال ذلك أن سألوهم: "ما هى الكلمة التى يمكن أن نؤلفها من الأحرف "ظ ى ع م"؟ وطلبوا من بعض الأطفال العمل على فئة محددة من لعبة إعادة توليف الأحرف. وأعطوا أطفالا آخرين حق الاختيار من بين عدد من اللعب ليختاروا أى لعبة توليف للأحرف يفضلون العمل على حلها. وقيل لآخرين إن الباحث القائم بالتجربة تحدث إلى أم الطفل التى تريد من الطفل أن يجيب على فئة بذاتها. وقاس الباحثون بعد ذلك عدد لعب توليف أحرف الكلمات التى تم حلها والوقت الذى استغرقه حل كل منها. كشف الأطفال الأمريكيون عن أعلى مستوى للحفز- قضوا أطول وقت لأداء المهمة وحلوا أكبر عدد - وذلك حين سمح لهم الباحثون باختيار الفئة. وكشف الأطفال الأمريكيون عن أدنى مستوى للحفز عندما كانت الأم هى التى اختارت الفئة مما يفيد أن فى هذا انتهاكًا لاستقلالهم الذاتى، ولهذا فقدوا بعض اهتمامهم الذاتى بالمهمة المنوط بهم حلها. وكشف الأطفال الآسيويون عن أعلى مستوى للحفز عندما كانت الأم هى التى اختارت الفئة.

والتأكيد على العلاقات يشجع الاهتمام بمشاعر الآخرين. إن الأمهات الأمريكيات حين يلعبن مع أطفالهن وهم يدرجون، نراهن يملن إلى توجيه أسئلة عن الموضوعات وإلى تقديم معلومات عنها. ولكن حين تلعب الأمهات اليابانيات مع أطفالهن وهم يدرجون فإن أسئلتهن أميل إلى الاهتمام بالمشاعر. إن الأمهات اليابانيات ينزعن على الأرجح إلى استخدام كلمات وثيقة الصلة بالمشاعر حين يخطئ أطفالهن فى السلوك: "الفلاح سوف يستاء إذا لم تأكل كل ما طهته ماما لك". "اللعبة تبكى لأنك ألقيتها على الأرض". "الحائط يقول آى". ولا ريب فى أن تركيز الانتباه على الموضوعات، كما يميل الأبوان الأمريكيان إلى أن يفعلا هذا، يساعد على إعداد الأطفال لعالم من المتوقع أن يعملوا فيه مستقلين. ولكن التركيز على المشاعر والعلاقات الاجتماعية، كما يميل الآباء والأمهات فى شرق آسيا إلى أن يفعلوا، يساعد الأطفال على استباق ردود أفعال الناس الآخرين ممن سيكون لزاما عليهم أن يلائموا سلوكهم معهم.

ويمكن أن نشهد فى الكبر النتائج المترتبة على هذا التركيز الفارق على الحالات العاطفية للآخرين. وتوجد دلائل تؤكد أن أبناء شرق آسيا واعون ومهتمون بدقة بمشاعر ومواقف الآخرين أكثر مما هو حال الغربيين. مثال ذلك أظهر جيفرى سانشيز ـ بوركس وزملاؤه إلى الكوريين والأمريكيين تقييمات حددها أصحاب الأعمال بشأن جداول التقديرات. كان الكوريون أفضل من الأمريكيين فى الاستنتاج من التقديرات لمشاعر أصحاب الأعمال إزاء العاملين، بينما مال الأمريكيون إلى أخذ التقديرات على وجهها الظاهرى فقط. ويتسع نطاق التركيز على عواطف الآخرين ليشمل حتى

مدركات المرء عن عالم الحيوان. عرضت أنا وتاكا ماسودا فيلم فيديو يصور مشاهد تحت الماء على طلاب أمريكيين ويابانيين وسألناهم أن يكتب كل منهم تقريرا عما شاهده. كتب الطلاب اليابانيون ما يفيد أنهم "شاهدوا" مشاعر وحوافز من جانب الأسماك أكثر من الأمريكيين. مثال ذلك: "السمك الأحمر غضب بالضرورة بسبب إيذاء حراشيفه" وبالمثل عرض كايبنج ينج وفويبى الزوورث على طلاب صينيين وأمريكيين صورا متحركة عن سمك يتحرك حركات مختلفة من حيث العلاقة بين بعضه البعض. مثال ذلك أن تظهر جماعة من السمك وكأنها تطارد سمكة واحدة أو تنطلق بعيدا حين تقترب السمكة الوحيدة. وسأل الباحثون الطلاب عن مشاعر السمكة المفردة وجماعات السمك. استجاب الصينيون على نحو حسن للأسئلة. ولكن شعر الأمريكيون بصعوبة إزاء المهمتين وأُسقط فى أيديهم حقيقة حين طلب الباحثون منهم تقريرا عن حقيقة انفعالات المجموعة.

وتنعكس الدرجة النسبية للحساسية تجاه عواطف الآخرين فى الافتراضات الضمنية عن طبيعة الاتصال. إذ يعلِّم الغربيون أطفالهم توصيل أفكارهم بوضوح وتبنى توجه "الناقل"، أى أن المتحدث مسئول عن نطق جمل تكون مفهومة بوضوح من جانب المخاطب، ومفهومة فى الواقع مستقلة بدرجة أو بأخرى عن السياق. وإذا حدث سوء فهم نتيجة الاتصال فهو خطأ المتكلم. ولكن أبناء شرق آسيا هم على العكس يعلمون أطفالهم توجه "المتلقى" بمعنى أن مسئولية المستمع أن يفهم ما يقال. وإذا حدث أن أثار غناء طفل بصوت عال ضيق أب أمريكى، فإن الأب على الأرجح سيطلب من الطفل خفض الصوت. وها هنا لا نجد لبسا أو غموضا. ولكن الأب

الآسيوى سيقول على الأرجح: "ما أحلى الأغنية التى تغنيها!". ربما يشعر الطفل بالسرور أول الأمر، ولكنه سيدرك على الأرجح أن ثمة معنى آخر مقصودا. وهنا سيحاول الطفل أن يخفض من صوته وربما يكف عن الغناء.

والغربيون عادة ــ وربما الأمريكيون بخاصة ــ أميل إلى الاعتقاد بصعوبة فهم أبناء شرق آسيا ذلك لأن هؤلاء على الأرجح يفترضون أن بيت القصيد من حديثهم وضح على نحو غير مباشر وبطريقة مهذبة. ولكن الغربى يظل فى حالة من اللبس. وأبناء شرق آسيا بدورهم أميل إلى الاعتقاد بأن الغربيين ــ وربما الأمريكيون بخاصة ــ مباشرون إلى حد التعالى بل وربما الخشونة فى الكلام.

وثمة وسائل كثيرة لبيان التمييز بين المجتمعات المستقلة نسبيا والمتكافلة نسبيا. ولعل من المفيد لتوضيح ذلك أن نركز على أربعة أبعاد متمايزة وإن كانت مترابطة:

- الإصرار على حرية العمل الفردى مقابل تفضيل العمل الجمعى.
- الرغبة فى التميز الفردى مقابل إيثار الامتزاج فى تناغم مع الجماعة.
- إيثار المساواتية والمكانة العصامية مقابل قبول التراتبية الهرمية والمكانة التى يضفيها الخارج.
- إيمان بأن القواعد الحاكمة للسلوك السوى ينبغى أن تكون كلية وشاملة مقابل تفضيل أساليب التناول التخصيصية التى تأخذ فى الاعتبار السياق وطبيعة العلاقات المتضمنة.

هذه الأبعاد مترابطة مع بعضها ومن الممكن، على سبيل المثـــال، أن يكون مجتمع ما مستقلا تماما بالنسبة لبعض الأبعاد وأقل اســـتقلالا بالنـــسبة لأبعاد أخرى. وحاول علماء الاجتماع قياس كل من هذه الأبعاد، وقياس أبعاد أخرى في اقتران بعضها البعض بوسائل مختلفة من بينها دراسة استقصائية للقيم ودراسات عن مادة مسجلة في محفوظات وتجارب.

وجدير بالذكر أن من أهم مواد الدراسات الاستقصائية هي تلك التـــي وفرتها دراسة رجال الأعمال في الثقافات المختلفة. إذ تزودنا هذه الدراسات الاستقصائية بأدلة مقنعة تماما نظرا لثبات قدر كبير منها بدرجة أو بـــأخرى بما في ذلك الثروة النسبية والمستويات التعليمية. وثمة دراسة كلاسيكية مـــن هذا النوع أعدها جيرت هوفستيد وتهيئ لنا إمكانية أكبـــر للمقارنـــة: إذ إن جميع مشاركيه الوافدين من عشرات المجتمعات المختلفة كانوا عاملين فـــي شركة آي. بي. إم. واكتشف فوارق ثقافية درامية من حيث القيم بين كبـــار العاملين ذوي الرداء الأزرق (المرتبة الدنيا).

وحصل على بيانات مماثلة كل من شارتس هامبدن ـ تورنر والفونس ترومبنارس ويعملان أستاذين في مدرسة دولية لمشروعات الأعمـــال فـــي هولندا. قدما على مدى فترة تمتد إلى سنوات عديدة عشرات الأسـئلة التـــي طرحاها على مديرين من الدرجة الوسطى خمسة أشـــرفوا علـــي نـــدوات انعقدت في مختلف أنحاء العالم. وبلغ عدد المشاركين في النـــدوات خمـــسة عشر ألفا. ووفدوا جميعا من الولايات المتحدة وكندا واســـتراليا وبريطانيـــا وهولندا والسويد وبلجيكا وألمانيا وفرنسا وايطاليا وسنغافورة واليابان (وعدد ضئيل من أسبانيا وكوريا أيضا). عرض هامبدن ـ تورنر وترومبنارس على

طلابهما معضلات تتضمن قيما مستقلة وتتداخل معها قيم مناهضة للاعتمادية المتبادلة أو التكافل.

وأراد هامبدن ــ تورنر وترومبنارس دراسة قيمة التميز الفردى مقابل علاقات التناغم مع الجماعة. ووصولا إلى هذا سألا المديرين أن يشيروا إلى أىّ أنماط الوظائف المعروضة عليهم يفضلونها: (أ) وظائف تكفل تشجيع المبادرات الشخصية وينجز فيها الفرد مبادراته. مقابل (ب) وظائف لا ينفرد إنسان عن الآخرين بسبب امتياز شخصي ولكن حيث يعمل الجميع معا. أكثر من ٩٠ بالمائة ممن أجابوا من الأمريكيين والكنديين والاستراليين والبريطانيين والهولنديين والسويديين دعموا الاختيار الأول ــ بديل المعبر عن الحرية الفردية ــ مقابل أقل من ٥٠ بالمائة من اليابانيين والسنغافوريين؛ واحتلت موقعا وسطا تفضيلات الألمان والإيطاليين والبلجيكيين والفرنسيين.

وتوصف الولايات المتحدة بأنها المكان الذى يمكنك فيه أن تبين أنك تغير الرقم الرمزى للمنطقة التى تعيش فيها كل خمس سنوات أو نحو ذلك. (كان هذا قبل أن تبدأ شركة الهاتف فى تغيير الأرقام الرمزية للمناطق دون أن تنتظر حتى ينتقل الناس منها). ولكن نجد فى بعض البلدان الأخرى علاقة الناس بالشركة التى يعملون بها، والرابطة بين المرء وزملاء العمل، موضع تقدير رفيع أكثر مما هو الحال فى الولايات المتحدة، فضلا عن احتمال استمرارها بشكل دائم إلى حد ما. وعمد هامبدن ــ تورنر وترومبنارس إلى تقييم هذا الفارق. لذلك طلبا من المشاركين فى الدراسة أن يختار كل منهم ما يروقه من بين التوقعات التالية: إذا تقدمت بطلب لشغل وظيفة فى شركة (أ) سوف أعمل فيها يقينا طوال العمر أو (ب) إننى شبه متأكد بأن العلاقة ستمتد لفترة محدودة.

أكثر من ٩٠ بالمائة من الأمريكيين والكنديين والاستراليين والبريطانيين والهولنديين رأوا أن الأرجح البقاء لفترة محدودة فى الوظيفة. وصدق هذا بالنسبة لأربعين فى المائة فقط من اليابانيين (وإن كانت هذه النتيجة ستكون دون شك أعلى موضوعيا اليوم بعد أن بدأت اليابان تطبق نظام خفض العمالة. ومرة أخرى احتل الفرنسيون والألمان والإيطاليون والبلجيكيون موقعا وسطا، وإن كان أقرب إلى الأوروبيين منهم إلى أبناء شرق آسيا.

وأراد هامبدن ـ تورنر وترومبنارس دراسة القيمة النسبية التى يراها المجتمع والفرد فى المكانة العصامية مقابل المكانة الممنوحة. لذلك طلبا من المشاركين فى الفحص بيان ما إذا كانوا يتفقون أم لا يتفقون مع النظرة التالية: أن يكون نجاح المرء واحترامه نتيجة جهد شاق يبذله. من المهم للمدير أن يكون أكبر سنا من مرؤوسيه. كبار السن أحق بالاحترام من صغار السن.

أكثر من ٦٠ بالمائة من الأمريكيين والاستراليين والسويديين والبريطانيين الذين أجابوا رفضوا فكرة أن تتبنى مكانة المرء على أساس السن مهما كان السبيل. وأجاب حوالى ٦٠ بالمائة من اليابانيين والكوريين والسنغافوريين بالموافقة على نظام تراتبى هرمى قائم على أساس العمر. وللمرة الثالثة كان الفرنسيون والإيطاليون والألمان والبلجيكيون فى موقع وسط، وإن كانوا أقرب إلى الأوروبيين منهم إلى أبناء شرق آسيا.

وبدهى أن تنشأ احتمالات كبيرة للنزاع حين يضطر أبناء ثقافات ذات توجهات مختلفة إلى العمل مع بعضهم. ويصدق هذا بوجه خاص حين

يتعامل من يؤمنون بالقواعد الكلية الشاملة مع من يرون أن كل موقف بذاته يتعين دراسته وتقييمه منفصلا على أساس ما له من قيمة وجدارة، وأن القواعد المختلفة يمكن أن تصلح لبشر مختلفين. ويفضل الغربيون الالتزام فى حياتهم بمبادئ أساسية مجردة كما يحبون أن تكون هذه المبادئ صالحة للتطبيق على الجميع. ويرى الغربى أنه ليس من الأخلاق فى شىء التخلى عن القواعد الكلية الشاملة بغية ملاءمة حالات مفردة. ولكن التمسك بتطبيق قواعد واحدة على كل حالة يبدو فى أحسن الظروف فى نظر أبناء شرق آسيا أمرا يكشف عن جمود وضعف فكر، ويبدو فى أسوأ الظروف قاسيا. وجدير بالذكر أن الكثير من المسائل التى بحثها هامبدن – تورنر وترومبنارس تكشف عن الفارق الكبير القائم بين الثقافات فى تفضيلها لقواعد يمكن تطبيقها على نحو كلى وشامل مقابل الاعتبار الخاص بكل حالة تأسيسا على جوانبها المتمايزة. ولوحظ أن إحدى هذه المسائل موضوع بحثهما تتعلق بكيفية تناول حالة عامل ظل عمله لدى الشركة على مدى عام دون المستوى على الرغم من أنه ظل متميزا طوال أربعة عشر عاما قبل ذلك. إذا لم يكن ثمة سبب يدعونا إلى أى توقع بتحسن الأداء، فهل يتعين على الشركة بالنسبة للعامل (أ) أن تفصله تأسيسا على أن الأداء الوظيفى سوف يظل القاعدة التى ينبنى عليها سبب الفصل، بغض النظر عن العمر وسجله السابق؛ أم (ب) هل من الخطأ إسقاط خمسة عشر عاما من الاعتبار التى قضاها العامل موظفا جيدا لدى الشركة، وأنه على المرء أن يضع فى الحسبان مسئولية الشركة عن حياته؟

أكثر من ٧٥ بالمائة من الأمريكيين والكنديين رأوا أنه على العامل أن يرحل. ووافق على هذا الرأى حوالى ٢٠ بالمائة من الكوريين والسنغافوريين. ووافق أيضا حوالى ٣٠ بالمائة من اليابانيين والفرنسيين والإيطاليين والألمان، بينما وافق حوالى ٤٠ بالمائة من البريطانيين والاستراليين والهولنديين والبلجيكيين (يلاحظ فى هذه المسألة تحديدا أن البريطانيين والاستراليين كانوا أقرب إلى أبناء القارة الأوروبية منهم إلى الأمريكيين الشماليين).

توضح هذه النتائج التزام الغربيين بقواعد كلية لتطبيقها على الجميع. ونلحظ تأثير ذلك على فهمهم لطبيعة الاتفاقات بين الأفراد والشركات. وامتدادا لهذه النظرة يؤمن الغربيون بأن العقد ملزم فور الاتفاق عليه، بغض النظر عن الظروف والملابسات التى يمكن أن تجعل الاتفاق أقل استهواء لدى أطراف التعاقد عما كان عليه فى البداية. ولكن بالنسبة لأبناء ثقافات عالية السياق تؤمن بالتكافل والاعتمادية المتبادلة فإن تغير الظروف يفرض تغيرات فى الاتفاق.

هذه النظرات الاستشرافية المختلفة عن بعضها اختلافا شديدا هى التى يتولد عنها بانتظام سوء فهم على الساحة الدولية. وخير مثال على هذا مسألة "عقد السكر" اليابانى ــ الاسترالى فى منتصف سبعينيات القرن العشرين. إذ تعاقدت شركات تكرير السكر اليابانية مع الموردين الاستراليين لتزويدهم بالسكر على مدى خمس سنوات بسعر ١٦٠ دولارا للطن. ولكن بعد توقيع العقد بفترة قصيرة انخفض سعر السكر فى السوق العالمية انخفاضا حادا. هنا طالب اليابانيون بإعادة التفاوض بشأن العقد على أساس أن الظروف

تغيرت جذريا. ولكن الاستراليين رأوا أن العقد ملزم بغض النظر عن الظروف ورفضوا التفكير فى إدخال أى تغييرات.

وثمة دلالة مهمة تتعلق بمشروعات الأعمال بسبب الفوارق بين المجتمعات المؤمنة بالاستقلالية والمجتمعات المؤمنة بالاعتمادية المتبادلة. تتمثل هذه الدلالة فى ضرورة تعديل أسلوب الإعلان فى ضوء الجمهور الثقافى المعنىّ. ونذكر هنا أن خبيرىْ التسويق سانج — بيل هان وشارون شافيت أجريا دراسة تحليلية للإعلانات الأمريكية والكورية فى مجلات الأخبار الشعبية والمجلات النسائية. وتبين لهما أن الإعلانات الأمريكية تؤكد المنافع والأفضليات الفردية (شق طريقك فى الزحام "اغتنم حياة المتعة")؛ هذا بينما الإعلانات الكورية تؤكد فى الأغلب المنافع والأفضليات الجمعية (لدينا الطريقة لجمع شمل الناس أكثر "تعلن عن أنباء صداقات مشروعات الأعمال التى تحقق كسبا حقيقيا"). وأجرى كل من هان وشافيت تجارب تتمثل فى عرض أنواع مختلفة من الإعلانات على الناس، ووجدا أن الإعلانات الفردية أكثر تأثيرا بالنسبة للأمريكان، بينما الإعلانات الجمعية أكثر تأثيرا بالنسبة للكوريين.

وطبيعى أن الاستقلالية مقابل التكافلية ليست مسألة إما/أو. ذلك أن كل مجتمع، بل كل فرد هو مزيج من الاثنين. ويبدو واضحا أنه من اليسير تماما أن يحتل هذا التوجه أو ذاك مكان الصدارة. ونذكر أن علماء النفس وندى جاردنر وشيرا جابرييل وأنجيلا لى "أعدوا" طلاب معهد أمريكى للتفكير إما على نحو "مستقل" أو "متكافل". وأنجزوا هذا بوسيلتين مختلفتين. طلبوا فى إحدى التجارب من المشاركين قراءة قصة عن جنرال فى الجيش بحاجة إلى

أن يختار محاربا يرسله إلى الملك. لوحظ فى الصيغة "المستقلة" أنه على الملك أن يختار الشخص الأفضل للوظيفة. ولكن فى الصيغة "التكافلية" أراد الجنرال أن يجرى اختيارا من شأنه أن يفيد أسرته. ونجد فى طريقة أخرى لإعداد الطلاب أنه طلب الباحثون من المشاركين البحث عن كلمات محددة ضمن فقرة تصف رحلة إلى مدينة. وكانت الكلمات إما تدل بطبيعتها على الاستقلال (مثل "أنا" و"لى") أو على التكافل (مثل "نحن" و"لنا").

وطلب الباحثون من المشاركين بعد أن فرغوا من قراءة القصة أو البحث عن الكلمات داخل الفقرة، أن يملئوا بيانات فى بحث استقصائى عن القيمة من شأنه تقييم ما يولونه من أهمية للقيم الفردية (من مثل الحرية وأن يعيش المرء حياة متنوعة) وكذا للقيم الجمعية (من مثل الانتمائية واحترام الكبار). وقرءوا أيضا قصة تحكى أن "ليزا" رفضت أن تعطى صديقها "آمى" توجيهات عن الطريق إلى مستودع للفنون لأنها كانت مستغرقة فى قراءة كتاب. وسأل الباحثون بعد القراءة عما إذا كان سلوك ليزا أنانيًا وغير ملائم. ولوحظ أن الطلاب الذين جرى تهيئتهم للميل الاستقلالى وضعوا القيم الفردية فى مكانة عالية بينما وضعوا القيم الجمعية فى مكانة أدنى، قياسا إلى الطلاب الذين تهيئوا فى ضوء اختبار التكافلية، كذلك كان الطلاب المهيئون للاستقلالية أكثر تسامحا فى نظرتهم إلى ليزا المستغرقة فى قراءة الكتاب. أعاد جاردنر وزملاؤه هذه الدراسة مرة أخرى بعد أن أضافوا طلابا من هونج كونج إلى العينة الأمريكية، وأضافوا أيضا شرطا ضابطا للتجربة ولكن دون إعداد أو تهيئة. ولوحظ أن الطلاب الأمريكيين وضعوا القيم الفردية فى مرتبة أعلى من القيم الجمعية، ما لم يكونوا قد طُبق عليهم أسلوب التهيئة

التكافلية. ووضع الطلاب من هونج كونج القيم الجمعية فى مرتبة أعلى من القيم الفردية، ما لم تتم تهيئتهم بالأسلوب الاستقلالى.

وطبيعى أن أبناء شرق آسيا مهيئون دائما للمعايير التكافلية بينما الغربيون مهيئون للمعايير الاستقلالية. وهذا من شأنه أن يثير مسألة تتعلق باحتمال أنهم حتى وإن لم تعدهم تنشئتهم للميل نحو هذا الاتجاه أم ذاك فإن المعايير المحيطة بهم ستجعل من يحيون فى مجتمعات متكافلة يسلكون على نحو متكافل، بينما من يعيشون فى مجتمعات مستقلة سوف يسلكون بوجه عام سلوكا مستقلا. ويبدو هذا فى الحقيقة تقريرا عاما عمن يعيشون فى كنف الثقافة الأخرى لفترة من الزمن. ويتعلق المثال المفضل عندى بعالم نفس شاب كندى عاش سنوات عديدة فى اليابان. ثم شغل بعد ذلك وظائف فى جامعات أمريكا. أحس المشرف عليه بالفزع إذ اكتشف أنه استهل رسالته باعتذارات عن عدم جدارته للوظائف موضوع البحث. ويوضح دليل آخر أن احترام الذات مسألة مرنة جدا. إذ لوحظ أن اليابانيين الذين عاشوا لفترة غير قصيرة فى الغرب يبدون زيادة ملحوظة فى احترام الذات، ربما لأن المواقف التى واجهتهم كانت بوجه عام داعمة للتحلى بمشاعر المزيد من الاحترام أكثر مما هو شائع فى اليابان. ومن ثم فإن السمات النفسية الاجتماعية للناس الذين نشئوا فى كنف ثقافات مختلفة أبعد من أن تكون غير قابلة للتغير بتاتا.

تباينات فى وجهة النظر:

توضح أعمال هامبدن ــ تورنر وترومبنارس أن الغرب ليس كتلة صماء أحادية فيما يتعلق بمسائل الاستقلال مقابل التكافل. إذ توجد أيضا

مظاهر اطراد موضوعي للاختلافات القائمة فى البلدان الغربيـــة. ذلــك أن بلدان المتوسط علاوة على بلجيكا وألمانيا تحتل موقعا وسطا بين بلدان شرق آسيا من ناحيـــة والبلـــدان التـــى تتغلغـــل فيهـــا البروتـــستانتية والثقافـــة الانجلوساكسونية من ناحية أخرى. وثمة اطراد أكثر من هذا أيضا. هناك من قال: "الفكرة تتجه غربا" بمعنى أن قيم الفردية والحرية والعقلانية والكلية أو الكونية غدت أكثر هيمنة وإحكاما بشكل مطرد علـــى مراحـــل مـــع اتجـــاه الحضارة غربا ابتداء من أصولها الأولى فى منطقة الهلال الخـــصيب. دوّن البابليون القانون وأضفوا عليه خاصية كلية. وأكـــد الإســـرائيليون التميـــز الفردى. وأعلى الإغريق من قيمة الفردية أكثر مما ســـبق وأضـــافوا إليهـــا الالتزام بالحرية الفردية وروح الجدل والمنطق الصورى. وأوتى الرومـــان موهبة التنظيم العقلانى وشيئا يشبه العبقرية الصينية للإنجاز التكنولـــوجى؛ ثم بعد فترة انحطاط امتدت ألف عام أعاد خلفاؤهم الإيطاليون اكتشاف هـــذه القيم وشرعوا فى بناء جديد تأسيسا على إنجازات حقبتيْ الإغريق والرومان. ثم بدأ عصر الإصلاح البروتستانتى انطلاقا من ألمانيا وسويـــسرا مـــرورا بفرنسا وبلجيكا، وأضاف المسئولية الفردية وتعريفا جديدا للعمـــل باعتبـــاره نشاطا مقدسا. كذلك أتى الإصلاح البروتستانتى بالتزام ضعيف تجاه الأســـرة والجماعات الداخلية الأخرى مقترنا بإرادة أكبـــر نحـــو الثقـــة بالجماعـــات الخارجية وعقد تعاملات مع أبنائها. وتعززت وترســـخت هـــذه القـــيم فـــى الثقافات الفرعية الكالفنية (البروتستانتية) فى بريطانيا بمن فيهم البيوريتـــان والمشيخيون أنصار أيديولوجيا المساواتية. وأرسى هؤلاء الأساس الذى قـــام عليه الحكم فى الولايات المتحدة. (لقد كان توماس جيفرسون يردد عبـــارات قالها جون لوك المتعاطف مع البيوريتان حين قال: "تؤمن بأن هـــذه حقـــائق

بدهية، أن جميع البشر ولدوا متساوين .... يتمتعون بحقوق لا تقبل التصرف من بينها حق الحياة والحرية ....").

الاكتشافات التي توصل إليها هامبدن – تورنر وترومبنارس بشأن القيم الاجتماعية وكذا اكتشافات هوفستد تتتبع بدقة تلك الرحلة الأيديولوجية لشرق آسيا وللغرب. ويلاحظ أنه كلما كان موقع البلد أبعد في الاتجاه غربا ازداد دعم هذا البلد بعامة للقيم الاستقلالية. علاوة على هذا فإن هذه الفوارق بين الثقافات الأوروبية نراها منعكسة في ما خلفته من ثقافات فرعية لها في الولايات المتحدة. وهذه حقيقة وثقها باحثون من أمثال الاقتصادي توماس سو ويل في دراسته لتواريخ المهاجرين الثقافية. وأذكر أنني عرفت ذات يوم عالما اجتماعيا متميزا للغاية ويحتل موقعا رائعا وهو أمريكي من أصل سكوتلاندي يؤمن بالمذهب المشيخي البروتستانتي وغارق حتى أذنيه في الالتزام بالاستقامة الكالفنية. وله ابن عالم اجتماع أيضا، يصارع بين الحين والآخر لضمان عمله ومستقبله خلال سبعينيات القرن العشرين وقتما كانت الوظائف نادرة في الولايات المتحدة. واعتاد زميلي أن يؤكد أحيانا بفخر أنه وإن كان يسيرا عليه التدخل لمساعدة ابنه إلا أنه أبى ولم يتدخل على الإطلاق. وكان زملاء هذا الصديق وهم من الأصدقاء الانجلو – ساكسون البريطانيين يهزون رؤوسهم موافقين على عدالة موقفه على الرغم مما يعرفونه عن الألم الذي يعاني منه صديقهم. هذا بينما زملاؤه اليهود والكاثوليك وما لهم من قيم تنتمي إلى القارة الأوروبية كانوا يحدقون فيه بأنظارهم مصدومين غير مصدقين افتقاره للمشاعر الأسرية. ولننتقل إلى مستوى أسمى قليلا من الناحية العلمية عن هذه الحكاية: نحن نجد بشكل عام

فى دراساتنا أن البروتستانت البيض من بين المشاركين الأمريكيين في الدراسة هم الذين يكشفون عن أنماط سلوكية "غربية" إلى حد كبير، بينما الكاثوليك وأبناء الأقليات بما فى ذلك الأفارقة الأمريكيون والهسبانيون (المولدون) يحتلون موقعا يبتعد قليلا عن أولئك متجها نحو الأنماط الشرقية.

وتتضمن الثقافات الشرقية فى داخلها أيضا فوارق كبيرة تشتمل على جميع أنواع السلوكيات والقيم الاجتماعية المهمة بعضها مرتبط بالاستقلالية مقابل التكافلية.

كنت فى الصين عام ١٩٨٢ قرب نهاية الثورة الثقافية. بدا لى البلد غريبا إلى أقصى حد من حيث مظاهره التقليدية ومظاهره الشيوعية المفروضة عليه. وأقيمت فى بكين وأنا هناك أول مسرحية غربية يجرى عرضها منذ الثورة. إنها مسرحية "موت بائع" تأليف آرثر ميلر. وبدا لى الاختيار غريبا. وشاهدت المسرحية ليس فقط باعتبارى غربى الشخصية إلى حد كبير بل وباعتبارى أمريكيا متميزا. الشخصية المحورية فيها بائع. وكم كانت دهشتى كبيرة إذ لاقت المسرحية نجاحا مهولا. ولكن آرثر ميلر الذى حضر إلى الصين للمشاركة فى إخراج المسرحية قدم سببا مقنعا لهذا الاستقبال إذ قال: "المسرحية تدور حول أسرة والصينيون هم مخترعو الأسرة". ولعله أضاف أيضا أن المسرحية عن الوجه أو الحاجة إلى أن يحظى الوجه بالاحترام من المجتمع وأن الصينيين هم أيضا الذين اخترعوا الوجه.

ولعل اليابانيين يهتمون هم أيضا اهتماما كبيرا بالوجه شأن الصينيين. ولكن ربما دون تورط فى الأسرة المباشرة مع قدر كبير من الالتزام

بالاتحاد. وثمة فوارق أخرى واضحة بين اليابانيين والصينيين. وأذكر أن كثيرين من بينهم عالم الاجتماع روبرت بيلاه والفيلسوف هاجيمى تاكامارا وعالمة النفس دورا ديين والفيلسوف الاجتماعى لين يوتانج عرضوا بالتفصيل بعض هذه الفوارق. والمعروف أن الضغوط والقيود الاجتماعية بعامة أكبر على الصينيين واليابانيين منها على الغربيين؛ إلا أن الضغوط فى حالة الصين مصدرها أساسا السلطات، ولكنها فى حالة اليابانيين مصدرها النظراء. مثال ذلك أن المعلم هو المسئول عن ضبط الفصل الدراسى والتحكم فيه بينما التلاميذ زملاء الدراسة هم المسئولون فى اليابان. وقالت دورا ديين: "يؤكد الصينيون علاقات ثنائية محددة مع الاحتفاظ بفرديتهم، بينما يميل اليابانيون إلى الذوبان فى الجماعة". وعلى الرغم من أن كلا من الصينى والياباني مطالب بالامتثال نحو الحركة السلسة فى الحياة اليومية إلا أن الصينى، كما يقال، يغضب من الشروط بينما اليابانى يستمتع بها عمليا. وثمة اعتقاد بأن اليابانيين يشاركون الألمان والهولنديين الحاجة إلى النظام فى جميع مجالات حياتهم، ويشارك الصينيون سكان المتوسط نهجا أكثر استرخاء إزاء الحياة.

وهناك من يدفع أحيانا بأن اليابانيين يتفردون بنمط محدد للعلاقة الاجتماعية. ويسمى هذا النمط آماى amae وهو مفهوم ناقشه بإسهاب عالم التحليل النفسى اليابانى تاكيو دوى. وتصف كلمة آماى علاقة تسمح لمن هو أدنى، طفلا أو موظفا على سبيل المثال، بالانخراط فى سلوك غير ملائم - كأن يطلب لعبة باهظة الثمن أو يطلب ترقية فى وقت لا تسمح فيه سياسة الشركة بذلك ــ ويأتى هذا السماح تعبيرا عن الثقة بأن العلاقة قوية ووثيقة

بحيث إن الرئيس سيكون متساهلا. إن آماى تيسر العلاقة وتعزز الثقة بين الطرفين وتقوى الأواصر على الرغم من أن هذه النتائج تتحقق على حساب الاستقلال الذاتى للشخص الأدنى مستوى.

ولكن الفوارق الحقيقية بين ثقافات الشرق الآسيوى وبين الثقافات الغربية حرىّ أن لا تعمينا عن واقع أن شرق آسيا والغرب مختلفان عن بعضهما تماما، وبشكل عام بالنسبة لقيم محورية وصفات نفسية – اجتماعية لها أهمية محورية عظيمة.

أواسى وايرابى - فعالية نشطة أم تناغم؟- أساليب الصراع والتفاوض :

الجدل غير شائع فى شرق آسيا الحديث مثلما كان غير شائع فى الصين القديمة. والملاحظ فى الحقيقة أن كل المحاجاة الخطابية التى تمثل طبيعة ثانية للغربيين شبه غائبة فى شرق آسيا. ونعرف أن الأمريكيين يبدءون فى التعبير عن آرائهم وتبريرها منذ فترة باكرة فى مدارس الحضانة. ("هذا الإنسان الآلى (الروبوت) لعبتى، هو يسعده اللعب به لأن ....". ولكننا على العكس من هذا لا نجد محاجاة أو مساومة بشأن الأفكار فى حياة شرق آسيا. وأذكر أن صديقا يابانيا قال لى إن مفهوم "النقاش الساخن أو الذى يفيض حيوية" لا وجود له فى اليابان ضمانا لعدم المخاطرة بالتناغم الجماعى. وهذا الواقع هو الذى أدى على الأرجح إلى تفويض محاولة من جانب هذا الصديق لإقامة حفل عشاء فى اليابان بالأسلوب الأمريكى. ودعا ضيوفا يابانيين فقط أعربوا عن غرامهم بهذا ابتداء من شراب المارتينى وحتى الشواء وكعكة التفاح. ولكن فشل المشروع فشلا ذريعا بسبب افتقاره إلى الآراء وإلى الراغبين فى الدفاع عنها.

وكان لافتقاد تراث للجدل دلالات درامية محددة بالنسبة لإدارة الحياة السياسية. وأذكر أن كوريا الجنوبية أقامت منذ عهد قريب جدا أول حكومة ديمقراطية لها. وقبل تشكيل هذه الحكومة كان من غير المشروع مناقشة شمال كوريا. وبدا عسيرا على الغربيين فهم هذا بعد أن حققت كوريا الجنوبية واحدة من أهم المعجزات الاقتصادية فى العالم على مدى الأربعين عاما الماضية بينما كوريا الشمالية تجسيد للفشل فى جميع المجالات. ولكن نظرا لعدم وجود تراث للجدل والحوار لم تكن لدى الكوريين ثقة بأن الأفكار الصحيحة سوف تنتصر فى ساحة الجدل بين الأفكار. ولهذا عمدت الحكومات السابقة إلى "حماية" مواطنيها عن طريق منعهم من مناقشة الأفكار الشيوعية أو ممارسات كوريا الشمالية.

ويقترن تراث الجدل دائما بأسلوب معين فى فن الخطابة فى القانون وفى العلم. يتألف فن الخطابة فى أوراق البحوث العلمية من نظرة شاملة للأفكار موضوع البحث، ووصف للنظريات الأساسية ذات الصلة، وفرض علمى محدد، وطرح لمناهج البحث وتبرير لها، وعرض للشواهد والدلائل الناتجة عن طرق البحث، ودفاع مدعوم بالحجج يبين لماذا الشواهد والدلائل تدعم الفرض العلمى المطروح، وتفنيد لأى حجج مناهضة محتملة، وسند مرجعى يدعم النظرية الأساسية، وتعقيب على المجال الأكبر الذى تشكل المقالة جزءا منه. ويلاحظ بالنسبة للأمريكيين أن هذا الفن الخطابى عملية يجرى بناؤها خطوة بعد خطوة ابتداء من مدارس الحضانة وحتى المعاهد الدراسية العليا. ومع تخرجهم فى الجامعة تكون إزاء طبيعة ثانية. ولكن فن الخطابة بالنسبة لطلاب شرق آسيا هو فى الغالب الأعم أمر جديد عليهم، وتعلمه يكون بطيئا إن لم يكن عسيرا. وجدير بالذكر أنه من المألوف أن

أساتذة العلوم الأمريكيين يبدون إعجابا كبيرا بالطلاب الآسيويين الجادين الدءوبين فى عملهم والممتازين بدرجة عالية، ثم يستشعرون خيبة أمل عند الاطلاع على أول ورقة بحث أساسية لهم، ليس بسبب قصورهم فى اللغة الإنجليزية بل لافتقارهم إلى امتلاك ناصية فن الخطابة الشائع فى مجال البحث الخاص بالأستاذ المسئول. وتشهد خبرتى بأنه من الشائع كذلك أن الأساتذة لا يدركون أن السبب هو افتقار الطلاب لأسلوب الخطابة الغربى واعتراضهم عليه، بل يظنون سببا أعمق هو افتقارهم لفهم واستيعاب المشروع المنوط بهم إنجازه.

والشكل الخطابى القتالى غائب أيضا فى قانون شرق آسيا. ذلك أن القوانين هناك لا تتألف أساسا، كما هو فى الغرب، من نزال بين خصمين. وإنما المتبع أكثر هو أن المتخاصمين يحملون قضيتهم لعرضها على وسيط هدفه ليس الإنصاف بل خفض حدة العداوة، وذلك بالتماس حل وسط أو طريق وسطى بين مزاعم المتخاصمين. ولا نجد هناك محاولة للوصول إلى حسم للنزاع القانونى على أساس مبدأ كلى، وإنما العكس إذ إن أبناء شرق آسيا يميلون على الأرجح إلى النظر إلى العدالة فى صورتها المجردة ويرون الحس الغربى تعبيرًا عن نص مكتوب صارم جامد بغير شعور.

كذلك نجد للتفاوض خاصية مختلفة فى مجتمعات السياق المرتفع فى شرق آسيا عنها فى الغرب حيث مجتمعات السياق المنخفض. ويصف عالم السياسة موشا كوجى كينهايد الأسلوب الغربى إيرابى (النشط الإيجابى الفعال) بأنه مبنى على أساس الاعتقاد بأن "الإنسان يمكنه بحرية أن يتعامل مع بيئته ويؤثر فيها وفقا لأغراضه. وتتضمن هذه النظرة متوالية سلوكية يحدد من خلالها المرء هدفه ويستحدث خطة يضع تصميمها بحيث يبلغ بها

هدفه، ثم يعمل بجهده على تغيير البيئة وفقا لتلك الخطة. وطبيعى أن شخصا ينهج مثل هذا الأسلوب لن يركز أساسا على العلاقات. وإنما الذى يعنيه أساسا هو النتائج. وتتمثل الاقتراحات والقرارات غالبا فى صورة إما/أو ذلك لأن الغربى يعرف ما يريد، ولديه فكرة واضحة عما هو ملائم ليأخذه أو ليعطيه وصولا إلى صفقة مقبولة. ويتعين أن تكون المفاوضات قصيرة وفى الصميم تحاشيا لتضييع الوقت وصولا إلى الهدف.

ولكن الأسلوب اليابانى إيواس (المتناغم — الملائم) يرفض فكرة أن الإنسان بإمكانه معالجة البيئة والتأثير فيها ويفترض بدلا من ذلك أن يوفق نفسه معها. ولا يرون المفاوضات جهودا "قذائفية" يجريها مرة واحدة وصولا إلى الهدف مباشرة ولا سبيل إلى العودة إليها ثانية أبدا، كما يفترضون أن العلاقات بعيدة المدى طويلة الأمد. لذلك يتجنبون الاختيار ـ الحاسمة على أساس إما/أو. ويسود اعتقاد بأن الحكمة قصيرة الأمد يمكن أن تكون حمقا على الأمد الطويل. والملاحظ أن المفاوض اليابانى يمكن أن يكون حصاده من المفاوضات لأول صفقة أكثر من حصاد الغربى الذى يكون فى وضع مماثل له ويتوقع من المفاوضات أن ترسى قاعدة صلبة للثقة والتعاون فى المستقبل. ويرى اليابانيون أن المسائل معقدة وذاتية ومتداخلة على عكس البساطة والموضوعية والقابلية للتجزئة التى يراها ويجسدها الأمريكى فى أسلوبه الموسوم بأنه إيرابى.

وهكذا يبين واضحا أن هناك فوارق نفس — اجتماعية شديدة العمق بين أبناء شرق آسيا كمجموعة وبين أبناء الثقافة الأوروبية فى جملتهم. يعيش أبناء شرق آسيا فى عالم من التكافل أو الاعتمادية المتبادلة حيث الذات جزء من كلٍ أكبر؛ ويعيش الغربيون فى عالم الذات فيه عنصر فاعل حر وحدَى.

ويعلى أبناء شرق آسيا من قيمة النجاح والإنجاز عن رضى ورحابة صـــدر لأنهما يعودان بالنفع على الجماعات التى ينتمون إليها. ويعلى الغربيون من قيمة النجاح والإنجاز لأنهما وسام دال على جدارة شخصية. ويعلـــى أبنـــاء شرق آسيا من قيمة التلاؤم مع المجموع والالتزام بالنقد الذاتى بغية التأكد من أنهم حققوا ذلك الهدف. بينما يعلى الغربيون من قيمة الفردية ويكابدون لكى يظهروا فى صورة جيدة على هذا الأساس. ويحرص أبناء شرق آسيا علـــى التوافق مع مشاعر الآخرين ومشاركتهم هذه المشاعر ويكابدون مـــن أجـــل التناغم فيما بين الناس. ولكن الغربيين معنيون أكثر بمعرفـــة أنفـــسهم هـــم ومستعدون للتضحية بالتناغم وفاء بالإنصاف. ويرضى أبناء شـــرق آســـيا بالتراتبية الهرمية والتحكم الجماعى. ولكن الغـــربيين أميـــل إلـــى تفـــضيل المساواة ويتطلعون للفعالية الشخصية. ويتجنب أبناء شـــرق آســـيا الجـــدل والخلاف فى الرأى، بينما يؤمن الغربيون بالمحاجات الخطابية فـــى جميـــع المجالات ابتداء من القانون وصولا إلى السياسة وحتى العلم.

وطبيعى أن لا شىء من هذه التعميمات ينطبق بالكامل على جميع أبناء أىٍّ من الفريقين. ذلك أن كل مجتمع يضم أفرادا قريبين جدا فى الشبه لأفراد فى مجتمع آخر مختلف تماما عنهم أكثر مما يشبهون أبناء مجتمعهم. كـــذلك فإن كل فرد فى مجتمع بذاته يتراوح وضعه بين قطبى الاستقلال والاعتمادية المتبادلة على مدى مسيرة حيات، بل على مدى مسيرة يوم واحد فى الحقيقة. ولكن التباينات بين المجتمعات وفى داخلها، وكذا بين الأفراد يجب ألا تحجب عنا واقعا حقيقيا وهو وجود فوارق حقيقية للغاية وموضـــوعية مـــن حيـــث المتوسط العام بين أبناء شرق آسيا وأبناء الثقافة الاوروبية.

ولنا أن نقول، عن ثقة قدر الاستطاعة، إن هذه الفـوارق الاجتماعيـة تكاد تكون هى عينها الفوارق التى مايزت بين الصين والإغريق قديما. وإذا كانت الظروف والملابسات الاجتماعية هى التى أنتجت فى الماضى الفوارق المعرفية بين الصين والإغريق قديما، فإن لنا أن نتوقع اسـتمرار الفـوارق المعرفية بين مجتمعات شرق آسيا وبين الغربيين فى عصرنا الحديث، والتى تنبنى فى توافق على مظاهر الاختلاف بين الصين والإغريق قديما.

الباب الرابع

"لتكن لك عينان فى مؤخرة رأسك"

أم "لتكن عيناك على الكرة"؟

إذا كان الناس حقًا يرون العالم فى ضوء مصطلحات بشروط يفرضها عليهم وجودهم الاجتماعى، فإن لنا أن نتوقع أن يكون لدى مجتمعات شرق آسيا الحديثة النوع نفسه من النظرات الكلية إلى العالم شأن مفكرى الصين قديمًا. ولنا أيضًا أن نتوقع أن يكشف أبناء الثقافة الأوروبية فى عصرنا الحديث عن الأنواع نفسها من النُهُج التحليلية التى تميز بها مفكرو الإغريق قديمًا. علاوة على هذا فإن الحقائق الواقعية الاجتماعية المختلفة يمكن أن تولد أنماطًا شديدة الاختلاف من حيث رؤية العالم بالمعنى الحرفى للكلمة. إن من يعيشون فى عالم تكون فيه القوى الخارجية البيئية هى القوى المهمة نتوقع منهم أن يولوا اهتمامًا وانتباهًا شديدين للبيئة المحيطة. وأن من يعيشون فى عالم تكون فيه الثمار والنتائج وليدة الفعالية الشخصية سوف يركزون أساسًا على الموضوعات التى بوسعهم التعامل معها والتأثير فيها لخدمة أهدافهم هم.

النظرة الكلية مقابل التحليل :

كنت يومًا جالسًا فى طائرة أقلعت من شمال كاليفورنيا حين سمعت صوت رجل ـ أمريكى أوروبى الأصل ـ يوجه أسئلة إلى ابنه البالغ سنتين ونصفًا:

الأب: "ما شكل البالونة؟" لا إجابة. "إنها مستديرة يا جاسون".

الأب: "هذا زوج جوارب. هل هى طويلة أم قصيرة؟".

الطفل: "قصيرة".

الأب: "صح، قصيرة".

الأب: "هذان زوجان من البنطلونات ... هل هما ...؟"

الطفل: "قصيرة".

الأب: "لا يا جاسون، إنهما طويلان".

على الرغم من أن هذا الحديث المتبادل قد يبدو فى نظر الغربيين عاديًا إلا أنه وفقًا للمعايير الشرق آسيوية أمر غير عادى تمامًا. تقوم أسئلة الأب على توجيه انتباه ابنه إلى موضوعات بذاتها ويسأله عن خواصها. وبينما يبدو هذا فى نظر الغربيين أسلوبًا طبيعيًا جدًا لتوجيه انتباه الطفل إلا أنه ليس كذلك فى نظر أبناء شرق آسيا. وأسباب ذلك تكشف عن دلالات عميقة من حيث الاختلافات الثقافية وأثرها على الإدراك والمعرفة.

اعتاد فلاسفة الصين القدامى أن يروا العالم مؤلفًا من جواهر متصلة (عناصر أساسية قابلة للتغير ضمن نسيج مركب [المترجم])، ونزع فلاسفة الإغريق قديمًا إلى أن يروا العالم مؤلفًا من موضوعات [موضوعات أو كيانات ندركها بالحواس ونخضعها مستقلة للبحث أو للفعل والتأثير - المترجم] متمايزة أو فى صورة ذرات منفصلة. إن قطعة الخشب فى نظر الصينى هى مادة متماثلة ومتجانسة، بينما هى فى نظر الإغريقى مؤلفة من

جسيمات. ولكن شيئًا جديدًا مثل صدفة بحرية يمكن أن ينظر إليها الصينى على أنها جوهر بينما يراها الإغريقى موضوعًا. واللافت للنظر أن ثمة دلائل على أن أبناء شرق آسيا المحدثين أميل إلى رؤية العالم مؤلفًا من جواهر متصلة، بينما الغربيون المحدثون أميل إلى أن يروه موضوعات.

وجدير بالذكر هنا أن عالمين من علماء نفس المعرفة هما موتسومى إيماى وديدر جنتنر عرضا موضوعات مؤلفة من مواد محددة على أمريكيين ويابانيين من أعمار مختلفة تتراوح بين أقل من سنتين وحتى سن البلوغ. ووصفا لهم الموضوعات المعروضة بعبارات محايدة من حيث بيان أنها موضوعات أم مادة (جوهر). مثال ذلك أن يعرضا هرمًا مصنوعًا من الفلّين ويطلبا من المشاركين "النظر إلى هذا التكوين". ثم يعرضا بعد ذلك على المشاركين صينيتين إحداهما موضوع عليها شيء له نفس شكل الموضوع المعروض سابقًا ولكنه مصنوع من مادة مختلفة (مثال ذلك هرم من البلاستيك) مصنوع من المادة نفسها ولكنه ذو شكل مختلف (مثال ذلك قطع من الفلّين). وطلب الباحثان بعد هذا من المشاركين أن يشيرا إلى الصينية التى عليها "التكوين" الذى رأوه التكوين الأصلى.

كان الأمريكيون أميل إلى اختيار الشكل نفسه باعتباره التكوين الأصلى على عكس اليابانيين. ويفيد هذا بأن الأمريكيين رمزوا إلى ما رأوه بأنه موضوع. وكان اليابانيون أميل إلى اختيار المادة نفسها باعتبارها التكوين الأصلى مما يفيد بأنهم رمزوا إلى ما رأوه باعتباره مادة ــ جوهر. وتبين أن الاختلافات بين الأمريكيين واليابانيين كبيرة جدًا. إذ كان المتوسط وعلى مدى محاولات كثيرة تضمنت عروضًا مختلفة أن أكثر من ثلثى الأطفال

الأمريكيين البالغين من العمر أربع سنوات اختاروا موضوعًا آخر باعتبـــاره التكوين الأصلى بينما لم يفعل هذا سوى أقل من ثلـــث الأطفـــال اليابـــانيين البالغين من العمر أربع سنوات. كذلك كانت الفوارق متساوية بالنسبة للكبار. وأكثر من هذا أن الأطفال من عمر سنتين اختلفوا عـــن بعـــضهم. إذ كـــان صغار الأطفال الأمريكيين أميل إلى اختيار الموضوع دون صغار الأطفـــال اليابانيين.

إذا أخذنا النتائج التى توصل إليها كل من إيماى وجنتنر على ظاهرها نجد أنها تشير إلى أن الغربيين وأبناء شرق آسيا يـــرون حرفيّـــا عـــالمين مختلفين. إن الغربيين المحدثين، مثلهم مثل فلاسفة الإغريق القدامى يـــرون عالم موضوعات أى أشياء منفصلة ومتمايزة وغير مترابطة. كـــذلك أبنـــاء شرق آسيا المحدثون مثلهم مثل فلاسفة الصين القدامى يميلون إلى أن يـــروا عالم جواهر أى كتل متصلة من المادة. يرى الغربى تمثالاً مجردًا بينما يرى الشرق آسيوى قطعة من رخام؛ ويرى الغربى جدارًا بينمـــا يـــرى الـــشرق آسيوى كتلة من الأسمنت. وثمة شواهد أخرى كثيرة ـــ ذات طبيعة تاريخية أو قصصية أو علمية منهجية ـــ تشير إلى أن لدى الغربيين نظـــرة تحليليـــة تركز على الموضوعات البارزة وصفاتها. بينما لدى أبناء شرق آسيا نظـــرة كلية تركز على مظاهر الاتصال فى الجواهر والعلاقات فى البيئة.

ومع مطلع القرن العشرين ضمت المجاورة التى أسكن فيها آن آربور فى النصف الأوسط من ميتشيجان بيوتًا كثيرة هى أكواخ جذابة الشكل يسكنها عمال، ومبنية من جدران عبارة عن ألواح خشب وأسقف عبارة عن جمالون مثلث. شحنت أخشاب هذه البيوت شركة سيرز رويبوك وأفرغت حمولتهـــا

عند محطة القطار لتحملها بعد ذلك إلى قمة التل عربات تجرها خيـول ثـم ترصها بجوار بعضها كأنها لعبة اللغز المؤلف من عدد من القطع. وبعد ذلك بفترة غير طويلة كان هنرى فورد صاحب شركة صناعة السيارات والتـى يقع مقرها على بعد أربعين ميلاً من بلدتى، اختـرع خـط تجميـع أجـزاء السيارات. كان العمال يجمعون أجزاء السيارة أو "ذراتها" الواحدة مع قرينتها بحيث يؤدون مجموعة أعمال تكرارية ومتطابقة المرة بعد الأخرى فى موقع ثابت على مدى خط التجميع. وتجلب الشركة خام الحديد إلى المصنع المقام عند أحد طرفى ريفر روج فى ديربورن – ميتشيجان وبعد صهره وتصنيعه أجزاء صغيرة يجمّعها العمال إلى بعضها عن طريق عمليات بسيطة متتابعة ليخرج من الطرف الآخر السيارة فورد نموذج أ.

وبدأ الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، فى أواخر القرن ١٨ ومطلـع القرن ١٩ عملية تذرى (تحويل إلى ذرات)، أى معايرة (تحويل إلى معايير) عالمى الصناعة والتجارة. وجرى تقسيم وتجزئة إنتاج كل شيء ابتداء مـن البندقية البدائية وحتى الأثاث فى صورة أجزاء معيارية قدر الإمكان، وأعمال فى أبسط صورها التى يمكن أداءها مرارًا وعلى نحو متكرر. وهكـذا تـم تحليل كل أداة عمل وكل مكون من مكونات السلع وكل عمل أو تصرف مع الوصول به إلى أقصى درجات الفعالية. وأصبح الآن بالإمكان إنتـاج سـلع خلال ساعات بعد أن كانت تستغرق فى أيدى الحرفيين شـهورًا. وأصـبح الزمن وحدة معيارية: ثـلاث دقـائق لتثبيـت مـسمار جهـاز الاحتـراق "الكاربيراتور" ونصف دقيقة لتركيب شمعات الشرر.

وبداية من أواخر القرن التاسع عشر تحولت متاجر التجزئة إلى "سلاسل" معيارية. كان من الممكن أن تدخل متجر، وبعد ذلك بحوالى نصف قرن تدخل ماكدونالدز فى أى مكان فى مختلف أنحاء البلاد ــ والآن فى مختلف أنحاء العالم ــ وترى فى كل فرع صفوف البضائع نفسها أو الموائد والساندويتشات نفسها فى أى فرع منها. وأذكر أحد أفلام الكارتون التى أحبها ويحمل عنوان "مواطن من نيويورك". يصور الفيلم سيدتين أمريكيتين عجوزتين تسألان حارس بوابة فندق: "هل هذا شيراتون جنيف أم شيراتون بروكسل؟".

ويمتد نطاق الموقف الذرى للغربيين ليشمل فهمهم لطبيعة المؤسسات الاجتماعية. ونلحظ أن هامبدن ــ تورنر وترومبنارس فى دراستهما الاستقصائية وجّها سؤالاً إلى المشاركين عن رأيهم فى الشركة هل يرون الشركة منظومة تنظم المهام، أم كائنًا ينسق بين الناس العاملين:

(أ) الشركة منظومة هدفها أداء وظائف ومهام بأسلوب كفء. وتؤجر العاملين بها لأداء هذه الوظائف بمساعدة ماكينات ومعدات أخرى. ويتقاضون أجرًا مقابل المهام التى يؤدونها.

(ب) الشركة مجموعة من الناس يعملون معًا. وهؤلاء تربطهم علاقات اجتماعية بآخرين وبالمنظمة. وأداء الأعمال يتوقف على هذه العلاقات.

اختار حوالى ٧٥ بالمائة من الأمريكيين التعريف الأول، وأكثر من ٥٠ بالمائة من الكنديين والاستراليين والبريطانيين والهولنديين والسويديين اختاروا هذا التعريف نفسه، واختاره أيضًا حوالى ثلث اليابانيين

والسنغافوريين. واحتل الألمان والفرنسيون والإيطاليون كمجموعة مكانا وسطا بين أبناء شرق آسيا وأبناء الثقافة البريطانية وشمال أوروبا. وهكذا فإن الغربيين، والأمريكيين بخاصة وغيرهم من أبناء ثقافة شمال أوروبا أساسًا يرون الشركة مكانا ذريًا معياريًا يؤدى فيه الناس وظائفهم المميزة. ولكن أبناء شرق آسيا، وبدرجة أقل أبناء شرق وجنوب أوروبا، يرون الشركة كيانًا تمثل فيه العلاقات الاجتماعية جزءًا مكملاً ومتكاملاً مع كل ما من شأنه أن يوحد الأشياء معًا.

واتسع نطاق النظرة الكلية للصينيين القدماء ليشمل معنى عن وحدة الوجود البشرى مع الوقائع الطبيعية بل وما فوق الطبيعة. إن ما حدث على كوكب الأرض تردد صداه وأثره مع أحداث فى الطبيعة وفى السماء. ويصدق الشيء نفسه على أبناء شرق آسيا المحدثين. إن الطاوية لا تزال سائدة بنفوذها فى الصين وفى أنحاء أخرى من شرق آسيا، وعقيدة الشنتوية لا تزال مهمة وذات شأن فى اليابان، ويحتفظ الاثنان بعناصر قوية من العقيدة الإحيائية؛ التى تؤمن بأن الحيوانات والنباتات والموجودات الطبيعية بل والمصنوعات الفنية التى صنعتها يد الإنسان جميعها لها أرواح. ويلاحظ أن الإعلانات التى تؤكد على الطبيعة تحقق حتى الآن نجاحًا فى آسيا أكثر منها فى الغرب. واكتشفت شركة نيسان هذه الحقيقة، وكم كان حزنها عميقًا عندما استهلت حملتها الإعلامية لسيارتها التى بلغت أوج الترف وذروة الإتقان فى الولايات المتحدة بصور عن السيارة ولكن مع مشاهد عن الطبيعة ـ غالبًا ما كانت صفحات باهظة الكلفة عن مشاهد متتابعة للطبيعة - ولم تتضمن سوى اسم السيارة فى أحد أطراف هذه السلسلة وكانت الحملة ضربًا من الفشل الذريع.

وإذا كانت الاتجاهات الاجتماعية والقيم فى أوروبا القارة تحتل موقعًا وسطًا بين اتجاهات وقيم شرق آسيا من ناحية واتجاهات وقيم الانجلو - أمريكان فإن التاريخ الفكرى لقارة أوروبا أكثر ميلاً إلى النظرة الكلية من أمريكا وبلدان الكومونولث. إن الأفكار الدالة على النظرة الكلية نجدها فى الثقافة الانجلو أمريكية أندر منها فى القارة الأوروبية. لقد شغل الفلاسفة الانجلو ـ أمريكيين أنفسهم على مدى عقود طويلة بالتحليل الذرى أو ما يسمى تحليل اللغة العادية. هذا بينما عُنِىَ الفلاسفة الأوروبيون فى هذه الأثناء بابتكار الفلسفة الظاهراتية "الفينومونولوجية" والوجودية والبنيوية وما بعد البنيوية وما بعد المودرنزم. والملاحظ أن أكبر المنظومات الفكرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية تنبع بداية وأساسًا من القارة. فالماركسية منتج فكرى ألمانى، وعلم الاجتماع ابتكره الفرنسى أوجست كونت ثم ارتقى به إلى أرفع مستوى له من حيث الإنجاز الألمانى ماكس فيبر. ونجد أيضًا فى علم النفس أن أبناء القارة هم أصحاب السيادة الذين هيمنوا على النظريات الكلية الكبرى: فرويد النمساوى وبياجيه السويسرى ربما يكونان أعظم علماء القرن العشرين نفوذًا وتأثيرًا. كذلك فى الميدان الفرعى الخاص بى فى علم النفس الاجتماعى برز عالمان ألمانيان هما كورت ليوين وفريتز هايدر اللذان أسهما بأكثر النظريات عمومية وشمولاً حتى الآن. وإن مدرسة علم النفس التى انتميت إليها متأخرًا هى مدرسة علم النفس الثقافى - التاريخى التى أسسها عالما النفس الروسيان ليو فيجوتسكى والكسندر لوريا.

وليس فقط أن الباحثين الانجلو - أمريكيين لا يميلون إلى ابتكار نظريات كبرى واسعة النطاق، بل إنهم أيضًا يبدون وكأن لديهم حساسية

إيجابية تجاه هذا النوع من النظريات. إن بى. إف. سكينر أبرز الأمـــريكيين المرشحين ليحتل موقعًا فى "بانثيون" أو مجمع أرباب علم النفس لم يكن فقط مفكرًا اختزالى المنهج فى المدرسة الذرية المتطرفة، بل إنه كان يؤمن فعلاً بأن أى نظرية مهما كان نوعها غير ملائمة ولا صحيحة، إذ إنها تكون عامة شديدة العمومية، وبعيدة كل البعد عن الحقائق الواقعية الـصلبة. لقـد كـان زملائى فى الجامعة ممن اعتادوا اللعب بالأفكار الكبرى يـتهمهم نظـراؤهم بالانغماس فى "ميتافيزيقا المدرســة المـسائية" night-school metaphysics وأكثر من هذا أن علماء الاجتماع الانجلـو - أمـريكيين المتعـاطفين مـع النظريات لا يميلون إلى النظريات الكبرى الشاملة. وأذكر أن مدرسى الـذى كان يدرس لنا علم الاجتماع ويدعى روبرت ميرتـون، اعتـاد أن يمتـدح "النظريات متوسطة المدى" باعتبارها المستوى الذى من الصواب أن تهـدف إليه. (وكم كان فزعه ذات يوم حين عرف أن باحثًا إيطاليًا ترجم العبارة إلى نظريات متوسطة المستوى).

إدراك العالم:

إذا كان على أبناء شرق آسيا أن ينـسقوا ويـوازروا سـلوكهم مـع الآخرين، وأن يتلاءموا مع المواقف فإن لنا أن نتوقع منهم الاهتمام والانتباه عن كثب إلى مواقف وسلوك الآخرين أكثر مما هو حال الغـربيين. وواقـع الأمر أن لدينا من الشواهد والدلائل ما يؤكد أن أبناء شـرق آسـيا يولـون اهتمامًا بالعالم الاجتماعى أكثر مما يفعل الغربيون. ووجدت أنا ولى - جون جى ونوربرت شوارتز دلائل على أن طلاب جامعة بكـين لـديهم معرفـة

بمواقف واتجاهات وسلوكيات نظرائهم أكبر من معرفة طلاب جامعة ميتشيجان. وسبق أن تألف فريق بحث من معاملنا فى ميتشيجان برئاسة ترى هيدين ودنيس بارك، ورئاسة كيشنج جنج بالمعهد الصينى لعلم النفس. وقام هذا الفريق بدراسة الكيفية التى تتأثر بها ذاكرة الكلمات بنمط الخلفية التصويرية التى تظهر فيها الكلمات. وطلب الفريق من الطلاب الصينيين والأمريكيين بالكلية ومن آخرين من الكبار أن ينظروا إلى عدد كبير من الكلمات. وجرى عرض بعض الكلمات فوق خلفية "اجتماعية" مؤلفة من صور لناس، وبعض الكلمات الأخرى على خلفية مؤلفة من موضوعات "غير اجتماعية" مثل الأزهار، ومجموعة ثالثة من الكلمات بدون خلفية على الإطلاق. وبعد أن رأى المشاركون مجموعة الصور كتبوا جميع الكلمات التى أمكنهم تذكرها. لم يكن هناك فارق بين الصينيين والأمريكيين فى تذكر الكلمات التى تم عرضها أول الأمر على خلفيات غير اجتماعية أو بدون خلفية. ولكن المشاركين الصينيين تذكروا عددًا من الكلمات المعروضة على خلفيات اجتماعية أكبر من العدد الذى تذكره المشاركون الأمريكيون. ويبدو أن ذاكرة صور الناس أفادت كعامل استعادة للكلمات التى اقترنت بها مما يفيد بأن الصينيين أولوا اهتمامًا بالدلالات الاجتماعية أكثر من الأمريكيين.

وثمة سبب جيد للاعتقاد بأن الغربيين وأبناء شرق آسيا يدركون حرفيًا العالم على نحو مختلف للغاية عن بعضهم البعض. الغربيون هم أبطال رواياتهم التى تحكى سيرهم الذاتية؛ أما أبناء شرق آسيا فهم مجرد ممثلين فى أفلام تلمح إلى أساليب حياتهم. وأعد عدد من علماء نفس النمو هم جيسيكا هان وميشيل ليختمان وكى وانج دراسة تضمنت توجيه سؤال إلى أطفال

أمريكيين وصينيين تتراوح أعمارهم بين الرابعة والسادسة من العمر. طلبوا من الأطفال أن يرووا أحداثًا يومية من مثل ما فعلوه أثناء نومهم في الليلة الماضية أو كيف أمضوا آخر احتفال بعيد ميلادهم. ووجد الباحثون ثلاثة أشياء لافتة للأنظار: على الرغم من أن جميع الأطفال أشاروا إلى أنفسهم أكثر من الإشارة إلى الآخرين، إلا أن نسبة الإشارة إلى الذات عند الأطفال الأمريكيين ثلاثة أمثال إشارة الأطفال الصينيين إلى أنفسهم. ثانيًا: قدم الأطفال الصينيون كثيرًا من التفاصيل الصغيرة عن الأحداث التي مروا بها ووصفوها بإيجاز كوقائع. وتحدث الأطفال الأمريكيون بإسهاب وروية أكثر عن كثير من الأحداث المحدودة التي تحظى باهتمام شخصي من جانبهم. ثالثًا: أشار الأطفال الأمريكيون إلى أنفسهم ضعف إشارة الأطفال الصينيين إلى أنفسهم من حيث الحديث عن الحالة الباطنية الخاصة وتفضيلاتهم وعواطفهم. صفوة القول أن لسان حال الأطفال الأمريكيين كأنه يقول: "حسن، كفى حديثًا عنك، لنتحدث عن نفسي".

يتصف أبناء شرق آسيا بأن لديهم نظرة أكثر كلية وشمولاً إلى الأحداث تضع في الاعتبار توجه الآخرين من الناس. وهذا ما تشير إليه دراسة أجراها عالما النفس الاجتماعيان دوف كوهين والكس جونز. إذ طلبا من طلاب أمريكيين شماليين (غالبيتهم كنديون) وطلاب من شرق آسيا (خليط من هونج كونج والصين وتايوان وكوريا وأقطار مختلفة من جنوب وشرق آسيا) أن يتذكروا حالات محددة من عشرة مواقف مختلفة كانوا هم فيها محور الانتباه. مثال ذلك "أن كانوا في حالة ارتباك". كان الامريكيون الشماليون أكثر ميلاً من الآسيويين إلى استعادة المشهد من وجهة نظرهم

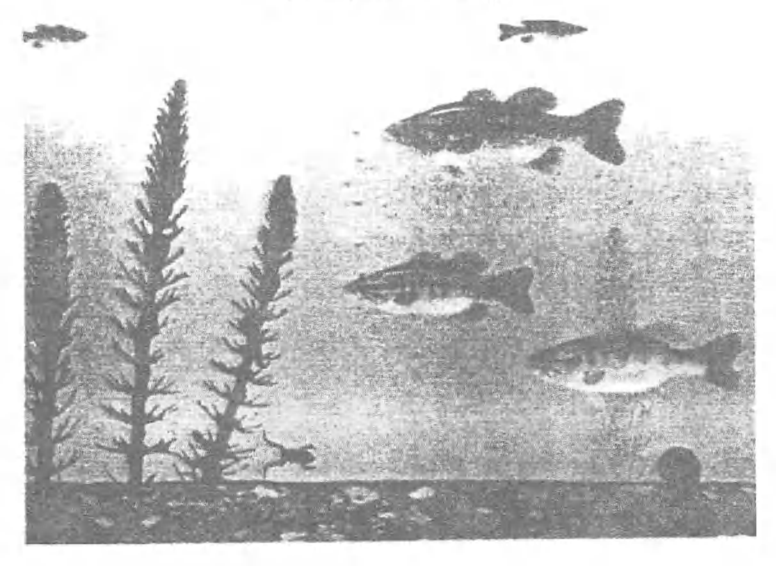
الخاصة وهم يتطلعون إلى الخارج. وكان الآسيويون أميل إلى تخيل المشهد كمراقب يصفه من منظور طرف ثالث.

وجدير بالإشارة أن الدراسات المعروضة فـي هـذا البـاب وكـذلك جميع الدراسات التي أجراها فريقنا البحثي التـي اختبرنـا خلالهـا بعـض المشاركين باللغة الإنجليزية والبعض بلغة أخرى، حرص خلالها البـاحثون على استخدام طريقة "الترجمة العكسية" ضـماناً لإمكانيـة عمـل مقارنـة صحيحة. إذ كانت المادة تؤلف باللغة أ ثم تترجم إلى اللغة ب. بعد ذلك يأتي أحد مواطني اللغة ب يترجم المادة عكسيّا إلى اللغة أ. وإذا حـدث أن قـرر مواطن اللغة أ أن الأصل والصيغة المترجمة عكسيّا متطابقتان في المعنـى يجرى استخدام مواد الاختبارات كما تكونت. وإذا لم تكـن متطابقـة نعيـد ونكرر الإجراء مرة ثانية.

كان تلميذي الياباني الجديد تاكا ماسودا يبلغ طوله ستة أقدام وبوصتين، ووزنه ٢٢٠ رطلاً. وهو لاعب كرة (نعم، كرة قدم فهي أهـم ثالـث لعبـة شعبية في اليابان). وبدهي أن كان مستثاراً لكي يلحق بفريق كرة القدم بعـد وصوله بفترة قصيرة إلى ميتشيجان في الخريف. كان في الواقع عاشقاً للعبة ويهتز لها كيانه طرباً ولكنه يستشعر خوفاً شديداً من سلوك زملائه. إذ كانوا يظلون وقوفاً ويحجبون عنه الرؤية. وقال لي: نحن في اليابان يـتعلم كـل امرئ منا منذ نعومة أظافره عبارة "احترس مما وراءك". ليس في هذا نوع من الشعور بالاضطهاد وجنون العظمة، وإنما على العكس الفكـرة هـي أن تتأكد من أن ما تفعله لا يؤثر سلباً في متعة أو راحة الآخرين، ولكن الطلاب الأمريكيين غير مبالين بمن خلفهم من الناس على نحو يبدو لي نوعـاً مـن القحة والغلظة.

ودفع سلوك هواة كرة القدم الأمريكيين ماسودا إلـــى اختبــار فــرض يقضى بأن الآسيويين يرون العالم من خلال عدسة منفرجة الزاويـــة، بينمــا الغربيون لديهم نظرة ضيقة كأنها عبر نفق. وأنجز ذلك مــستخدمًا إجــراءً بسيطًا خادعًا. إذ عرض ثمانى لقطات لصور حية ملونة تحت المــاء مثــل الصورة المعروضة باللونين الأبيض والأسود عند رأس الــصفحة التاليـــة. عرضها على طلاب فى جامعة كيوتو وجامعة ميتــشيجان. تميــز جميــع المشاهد المصورة بأن بها سمكة أو أكثر تحتل بؤرة الصورة وتتصف بأنها أكبر وأكثر لمعانًا، وأسرع حركة من أى سمك آخر فى الصورة. واشــتمل المشهد أيضًا على حيوانات متحركة بسرعة أقل، ونباتات وصخور وفقاعات هواء ... إلخ. ويستمر عرض المشاهد لمدة حوالى عشرين ثانية ثم تعرض للمرة الثانية. ويطلب من المشاهدين بعد العرض الثانى أن يحكوا مــا رأوه. وجرى ترميز إجاباتهم على أساس ما أشاروا إليه: سمكة فى بؤرة المــشهد، أى موضوعات نشطة أخرى، الخلفية والموضوعات الساكنة ... إلخ.

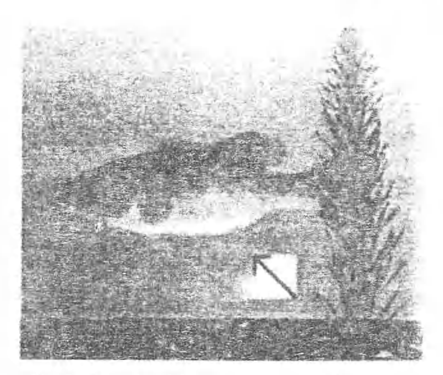
مهمة خاصة بالتذكر



مهمة التعرف



سمكة وراءها خلفية جديدة





سمكة وراءها الخلفية الأصلية

أمثلة لمشاهد مصورة تحت الماء

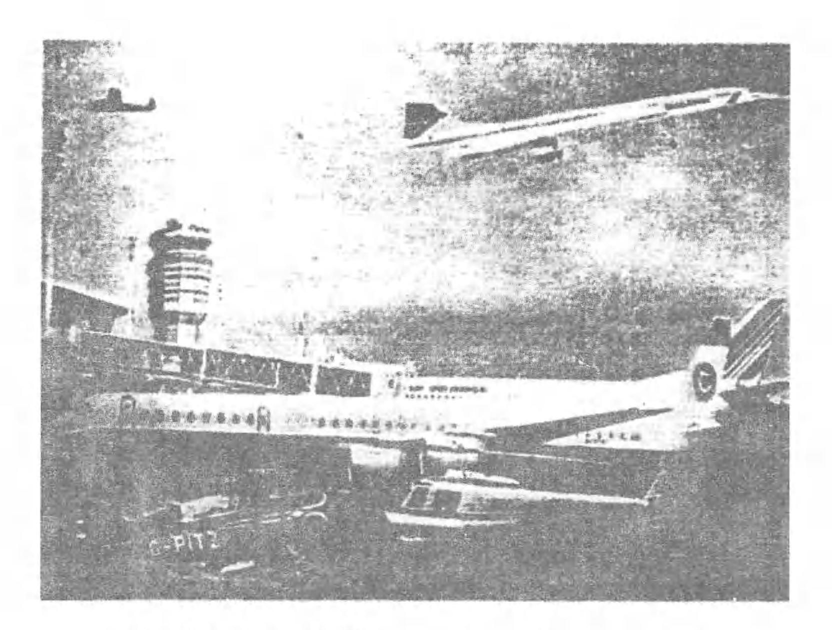
أعلى: إطار من فيلم لاختبار مهمة التذكر

أسفل: صور ساكنة لاختبار مهمة التعرف

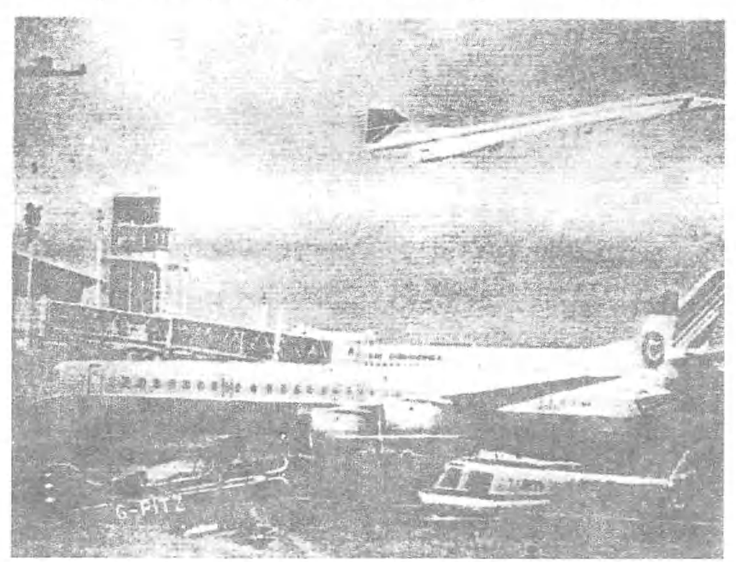
تساوى الأمريكيون واليابانيون فى عدد الإشارات إلى السمكة التى تحتل بؤرة المشهد. ولكن اليابانيين كانت إشاراتهم إلى عناصر الخلفية أكثر من ٦٠ بالمائة بما فى ذلك المياه، والصخور والفقاعات والنباتات والحيوانات الساكنة. بينما تساوى المشاركون اليابانيون والأمريكيون فى عدد الإشارات إلى الحركة المتضمنة حيوانات نشطة. كانت إشارات اليابانيين ضعف إشارات الأمريكيين إلى العلاقات التى تتضمن خلفية لموضوعات ساكنة. ولعل أبلغ تعبير هو ما تضمنته أول جملة على لسان المشاركين اليابانيين فى إشارة إلى البيئة إذ قالوا: (تشبه غديرًا) بينما كانت أول جملة على لسان المشاركين الأمريكيين والتى ترددت ثلاث مرات فى إشارة إلى السمكة التى تحتل بؤرة الصورة: (توجد سمكة كبيرة، ربما تكون نوعًا من سمك التروت تتحرك جهة اليسار).

بعد أن قال المشاهدون إفادتهم عما شاهدوه فى كل لقطة من لقطـــات الصور، عرض عليهم الباحثون صورًا ثابتة لستة وتسعين شيئًا، نصفها سبق لهم رؤيته والنصف الآخر جديد عليهم لم يروه من قبـــل. وكانـــت المهمـــة المطلوبة هى أن يقولوا إذا ما كانوا قد رأوا هذه الأشـــياء مـــن قبـــل أم لا. وجدير بالذكر أن بعض الموضوعات التى رأوها بالفعل قبـــل ذلـــك ســـبق عرضها فى بيئتهم الأصلية، والبعض الآخر جرى عرضها فى بيئة جديـــدة. ويجد القارئ أمثلة عن كل من النوعين معروضة فى أسفل الرسم. ولـــوحظ أن قدرة اليابانيين على التعرف على أنهم رأوا الـــشىء المعـــروض ســـابقًا تميزت بأنها أكبر موضوعيًا حين يكون الشىء معروضًا عليهم فـــى بيئتـــه الأصلية مما لو جاء عرضه ضمن بيئة جديدة. ويفيـــد هـــذا بـــأن الـــشىء المعروض أصبح "مرتبطًا لزومًا" بالبيئة منذ رؤيته لأول مرة وظل بصورته هذه المتكاملة فى الذاكرة. ولم يظهر أى فارق بالنسبة لجميـــع الأمـــريكيين سواء رأوا الموضوع فى بيئته الأولية الأصلية أو فى بيئة جديدة مما يوحى بأن إدراك الشىء منفصل تمامًا عن بيئته.

وقام ماسودا بدراسة للمتابعة عرض أثناءهـــا أنواعًـــا مختلفـــة مـــن الحيوانات داخل سياقات مختلفة على أمريكيين ويابانيين. ولم يكن هدفه هذه المرة قاصرًا فقط على قياس دقة التعرف بل وأيضًا سرعة المعالجة. وتبين للمرة الثانية أن اليابانيين أكثر تأثرًا من الأمريكيين بتغيير الخلفية إذ وقعـــوا فى عدد أكبر من الأخطاء عند عرض موضوعات الصور على خلفية جديدة على عكس الحال عند عرضها على الخلفية الأصلية لها. بينمـــا لـــم تتـــأثر سرعة أحكام الأمريكيين.



إطار من موقع مطار جوى فى فيلم (نسخة ١)



إطار من موقع مطار جوى فى فيلم (نسخة ٢)

نسختان لموقع مطار جوى من فيلم

لنفترض أن شخصًا اقترب منك وأنت فى الطريق وسألك عن الاتجاهات. وبينما أنت تتحدث إلى الشخص اقترب شخصان ووقفا بينكما وهما يحملان لوحًا كبيرًا من الخشب الرقيق "الأبلكاش". وأمسك الشخص الذى كان يتحدث إليك بطرف اللوح الخشبى وبقى زميله بعد أن توارى الآخران وكأن زميله هو ذات الشخص الذى كان يتحدث معك. ترى إلى أى مدى يمكن أن يذهب بك الظن إلى أنك كنت تتحدث مع مخادع؟ إنك ما لم تدرك أن الاثنين كانا توأمين متطابقين ربما تخمن بأن لا مجال لمثل هذا الخطأ. وكم هو يسير فى الواقع خداع الناس بحيلة كهذه. والمعروف أن الناس بعامة لا تقبل التصديق بواقع أن مشهدًا ما يرونه بأعينهم قد تغير موضوعيًا. وهذا هو الأسلوب المتبع فى بعض الحيل السينمائية.

وإحدى الدلالات الضمنية لفكرة أن أبناء شرق آسيا يولون اهتمامًا أكبر نسبيًا من الغربيين للمجال أن لنا أن نتوقع أن يكون الغربيون غير واعين نسبيًا بالتحولات التى تطرأ على الموضوعات فى الخلفية، وبالتحولات فى العلاقات بين الموضوعات. ولنا أن نتوقع أيضًا أن الغربيين سيكونون أسرع من أبناء شرق آسيا فى إدراك التقلبات الطارئة على الموضوعات البارزة فى المقدمة. ورأينا أنا وماسودا أن ندرس هذه الإمكانية. لذلك عرضنا قصاصات مختصرة لفيلم ملون بالكومبيوتر على مشاركين يابانيين وأمريكيين. كانت القصاصات شبه متطابقة وليست متطابقة تمامًا. ويوضح الرسم فى الصفحة التالية نسخًا باللونين الأبيض والأسود لإحدى قصاصتين ويعرض المشهد إطارين من منتصف القصاصتين. وكانت مهمة المشارك

الإفادة من نقاط الاختلاف بين القصاصات. ويمكن للقارئ أن يكتشف أنها تختلف من نواح عديدة. مثال ذلك أن دوار الدفع للطائرة المروحية فى أسفل الصورة موجود على اليسار فى إحدى النسختين وعلى اليمين فى النسخة الأخرى. كذلك عجلات الهبوط لطائرة الكونكورد وهى فى حالة انطلاق نازلة فى إحدى الصورتين ومرتفعة فى الصورة الأخرى. وتختلف العلاقات بين الموضوعات أيضًا. مثال ذلك الطائرة المروحية والطائرة أحادية المحرك أقرب إلى بعضهما فى نسخة عن النسخة الأخرى. أخيرًا تفاصيل الخلفية مختلفة: برج المراقبة مختلف الشكل فى نسخة عن الأخرى.

كما توقعنا مسبقًا لحظ المشاركون اليابانيون أكثر من الأمريكان بكثير عديدًا من الاختلافات فى الخلفية بين القصاصتين والعديد من الاختلافات فى العلاقات. وكان الأمريكيون أميل إلى التقاط المتغيرات فى الأشياء التى تحتل بؤرة الصورة والمقدمة.

وإذا كان أبناء شرق آسيا يولون انتباهًا أكبر من الغربيين للبيئة فإن لنا أن نتوقع أن يكونوا أكثر دقة فى إدراك العلاقات بين الأحداث. ورغبة منا فى استكشاف هذه المسألة أنا ولى - جون جى وكى ينج ينج عرضنا على مشاركين صينيين وأمريكان لوحة على شاشة الكومبيوتر. وأطلقنا وميضًا على الجانب الأيسر من الشاشة يضيء شكلاً واحدًا من بين شكلين جرى اختيارهما كيفما اتفق، كأن يكون على سبيل المثال شكلاً تخطيطيًا لميدالية أو رسمًا تخطيطيًا لبصيلة مصباح كهربائى. وعقب ذلك مباشرة أطلقنا وميضًا على الجانب الأيمن للشاشة يضيء شكلاً من شكلين آخرين تم اختيارهما كيفما اتفق، مثال ذلك إصبع يشير إلى شيء أو رسم تخطيطى

لعملة. وبعد بضع محاولات لم يحدث أى ارتباط بين ما ظهر على اليسار وما ظهر على اليمين. مثال ذلك أنه إذا كانت الميدالية هى التى ظهرت على اليسار فإنه لم يكن مرجحًا أن تظهر العملة على اليمين أكثر مما لو كان المصباح الكهربائى هو الذى ظهر على اليسار. ولكن بعد عدة محاولات أخرى ظهر ترابط يبدو أحيانًا قويًا إلى حد كبير. وسألنا المشاركين عن مدى تقديرهم أو إحساسهم بقوة الترابط خلال كل مجموعة من المحاولات وعن مدى ثقتهم بأنهم على صواب.

أفاد المشاركون الصينيون عن وجود ترابطات بين ما ظهر على اليسار وما ظهر على اليمين وكانت إفادتهم أقوى مما قال به الأمريكيون. كذلك كانت ثقتهم فى أحكامهم أكبر وثقتهم أفضل من الأمريكيين تأسيسًا على درجة الارتباط الفعلية. ولكن ما أذهلنا أكثر من أى شىء آخر هو أن الأمريكيين كشفوا عن ميل طبيعى أوضحته دراسات الكشف عن تلازم التغيير Covariation-detection studies يتمثل فى أن أحكامهم تأثرت بشدة مفرطة بالتزاوج بين الصور الذى شاهدوه أولاً. مثال ذلك إذا اقترن المصباح الكهربائى مرارًا بالميدالية فى المحاولات الأولى فإن الأمريكيين على الأرجح يرون أن هذه هى القاعدة بعامة، حتى وإن لم يكن الأمر كذلك. هذا بينما لم يقع الصينيون فى مثل هذا الخطأ.

اتجهنا أيضنا أنا وجى وينج إلى دراسة ما إذا كان الأمريكيون أقدر من أبناء شرق آسيا على فصل موضوع ما عن سياقه. عرضنا على الآسيويين الشرقيين (أغلبهم صينيون وكوريون) والأمريكيين اختبار المؤشر والإطار الخاص بكشف "الاعتمادية على المجال" والذى ابتكره وتكين وزملاؤه.

ويقضى هذا الاختبار بأن نعرض على المشاركين صندوقًا طويلاً فى آخره مؤشر. ويمكن تطويع المؤشر فى استقلال عن الصندوق مما يساعد على تأطير الحبل. ومهمة المشارك هنا أن يحكم متى يكون المؤشر رأسيًا تمامًا وإن كان وضع الإطار يؤثر حتمًا على الأحكام بشأن المؤشر بدرجة ما. ويعتبر المرء "معتمدًا على المجال" بقدر ما تكون أحكامه بشأن الوضع الرأسى للمؤشر متأثرة بالسياق أى توجه الإطار. وتوقعنا مسبقًا أن الآسيويين الشرقيين سيكونون أكثر اعتمادًا على المجال، وهذا ما ثبت صوابه. لقد بدا من الصعب عليهم أكثر من الأمريكيين إصدار أحكام عن وضع المؤشر بدون التأثر بوضع الإطار.

التحكم فى العالم:

إذا كانت الحياة بسيطة وما على المرء إلا أن يضع عينه على الهدف كى ينجز شيئًا ما، إذن فالحياة يمكن التحكم فيها. وإذا كانت الحياة معقدة وعرضة لتقلبات الحظ دون إشعار سابق فلن يكون مهمًا نوع الهدف الذى ننشده، إذ ستكون الحياة أمرًا يصعب التحكم فيه بسهولة. وتكشف البحوث الاستقصائية أن أبناء شرق آسيا يشعرون بأنهم أقل من نظرائهم الغربيين فى السيطرة والتحكم. لذلك فإنهم بدلاً من أن يحاولوا التحكم فى المواقف نراهم أميل إلى محاولة توفيقها وملاءمتها. درس هذه الظاهرة علماء النفس الاجتماعيون بت مورلنج وشينوبو كيتاياما ويورى مى ياموتو. إذ طلبوا من طلاب يابانيين وأمريكيين أن يحكوا لهم عن حوادث عرضت لهم فى حياتهم وتكيفوا فيها مع الموقف، وعن حوادث كانوا مسيطرين فيها على الموقف. كانت الأحداث التى اقتضت تكيفًا أكثر شيوعًا بين اليابانيين حيث إن الأحداث

التى تذكروها كانت أقرب عهدًا من الأحداث التى تذكرها الأمريكيون. وبدا أن الأحداث التى أمكن التحكم فيها أكثر شيوعًا لدى الأمريكيين عنها لدى اليابانيين. ذلك أن هذا النوع من الأحداث كان أقرب إلى ذاكرة الأمريكيين. وسألت مورلنج مشاركيها عن شعورهم فى حالة كل موقف. لاحظت أن الأمريكيين وليس اليابانيون شعروا بالحرج والقلق وفقدان الأهلية عندما كان لزامًا أن يتكيفوا مع الموقف.

ويفيد دليل آخر أن شعور المرء بالتحكم ليس مهمًا لدى الآسيويين بالقدر نفسه لدى الغربيين. وكشفت دراسة استقصائية عن شرق آسيويين وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين أن شعورهم بالتحكم فى حياتهم يرتبط ارتباطًا قويًا بالصحة العقلية عند الأمريكيين الأوروبيين، ولكنه أقل من ذلك كثيرًا عند الشرق آسيويين والأمريكيين الآسيويين. علاوة على هذا فإن مشاعر الرفاه يعززها عند الشرق آسيويين أكثر من الأمريكيين وجود آخرين حولهم ممن يمكن لهم تقديم المساعدة لتوفير إمكانات التحكم. وبينما يبدو أن الغربيين يؤمنون بأنه من الأمور الحاسمة أن تتوفر للمرء قدرة على التحكم الشخصى المباشر، نجد الشرقيين الآسيويين يؤمنون بأن النتائج ستكون أفضل إذا كانوا جميعًا معًا فى مركب واحد.

وطلب عالم النفس المختص بالتنظيم الإدارى، بى. كرستوفر إيرلى، من مديرين صينيين وأمريكيين إنجاز مهام إدارية فى ظل ظروف عديدة مختلفة. ظن المديرون إما أنهم يعملون وحدهم، أو يعملون مع أعضاء آخرين من فريقهم الخاص، أو مع جماعة من الإقليم نفسه فى بلدهم ولهم مصالح مشتركة مطابقة لمصالحهم، أو يعملون مع أبناء جماعة خارجية أى

من إقليم آخر من خارج بلدهم لا يجمعهم شيء مشترك إلا القليل. وتم تجهيز الوضع بحيث إن المديرين شعروا فعلاً أنهم وحدهم فى جميع الظروف. وظن المشاركون فى ظروف "الجماعة الداخلية" و"الجماعة الخارجية" أن أداءهم سوف يجرى تقييمه على مستوى الجماعة فقط وليس على المستوى الفردى. كان أداء الصينيين عندما رأوا أنهم يعملون مع أعضاء الجماعة الداخلية أفضل من أدائهم حين رأوا أنهم يعملون مع جماعة خارجية. وكان أفضل أداء للأمريكيين حين رأوا أنهم وحدهم، ولم يظهر أى فارق بين العمل وهم يعتقدون أنهم مع جماعة داخلية أو خارجية.

إن القول المأثور: "الأمان فى الأرقام" يمكن أن يكون غربى النشأة، ولكن عالم النفس الاجتماعي سوسومو ياماجوشى وزملاءه بينوا أن طلاب الجامعة اليابانيين أكثر إيمانًا وتشبثًا بهذه العقيدة من الطلاب الأمريكيين. قالوا للمشاركين فى دراستهم إنهم معنيون بالكشف عن آثار ونتائج "خبرة غير سارة" وهى ابتلاع شراب مر أثناء أداء مهمة محددة. وسوف يجرى تخصيص المشاركين إما إلى وضع التحكم أو إلى وضع الخبرة غير السارة. وإن أيًا من الوضعين سوف يتوقف على الحظ فى اليانصيب.

تضمنت التجربة فى الحقيقة وضعين، ولكنهما كانا وضعًا "أحاديًا" ووضعًا "جماعيًا". إذ قيل للمشاركين فى الوضع الأحادى إنهم سيسحبون أربع تذاكر يانصيب كل تذكرة مطبوع عليها رقم. واعتقد جميع المشاركين فى الوضع الجماعى أنهم جزء من جماعة مؤلفة من خمسة أشخاص (الذين لم يروا أعضاءها على الإطلاق) وأن كل شخص سوف يسحب تذكرة يانصيب. وأوضح الباحثون للمشاركين فى الحالين أن مجموع الأرقام على التذاكر الأربعة سوف يحدد من الذى سيتناول الشراب المر. وسأل

ياماجوشى وزملاؤه المشاركين عن مدى احتمال أن يكونوا بين غير المحظوظين. (لم يكن هناك أى سبب موضوعى لكى يظن المشاركون فى أى من الحالين أن الفرص ستكون مختلفة فى الوضع الأحادى عنها فى الوضع الجماعى) وظن اليابانين أنهم على أرجح تقدير سيفلتون من الخبرة غير السارة فى الوضع الجماعى. وظن الأمريكيون أنهم على أرجح تقدير سيفلتون فى الوضع الأحادى. وتطابق سلوك النساء الأمريكيات مع سلوك اليابانيات إذ أعتقدن أن الإفلات سيكون مرجحًا فى الجماعة.

الدراسة التى أجراها ياماجوشى، علاوة على دراسة أخرى سنعرضها فيما بعد فى هذا الباب، هى واحدة من الدراسات النادرة التى تكشف عن اختلاف الذكور والإناث الغربيين عن بعضهم، وأنه اختلاف أكبر مما هو حادث بين الذكور والإناث من أبناء وبنات شرق آسيا. ويمكن القول بوجه عام إننا إما أن نجد فوارق جنوسية "الجندر" بين كل من الثقافتين الغربية والشرق آسيوية ـــ من حجم واحد ـــ أو لا نجد فوارق جنوسية خاصة بأى ثقافة. ولكن كما كان متوقعًا، تأسيسًا على نظريتنا عن الأصول الاجتماعية للفوارق المعرفية والإدراكية، فإن الإناث فى كل من الثقافتين ينزعن إلى أن يكن أكثر انتحاء إلى النظرة الكلية من الذكور فى توجهاتهن. بيد أننا نجد هذا فقط فى حوالى نصف الحالات بينما الفوارق الجنوسية "الجندر" أصغر دائمًا من الفوارق الثقافية. وعجزنا عن تحديد الاختلاف بين المهام التى تكشف عن فوارق جنوسية وتلك التى لا تكشف عنها.

وهكذا العالم فى نظر الشرق آسيوى مكان معقد مؤلف من جواهر - مواد متصلة، يمكن فهمه فى ضوء الكل وليس فى ضوء الأجزاء، ويخضع للتحكم الجمعى أكثر مما يخضع للتحكم الفردى. والعالم فى نظر الغربى

مكان بسيط نسبيًا مؤلف من موضوعات متمايزة يمكن فهمها دون اهتمام كبير بالسياق، ويخضع بدرجة كبيرة للتحكم الفردى. عالمان مختلفان عن بعضهما غاية الاختلاف فى الحقيقة.

ولكن عالم الغربيين ليس عالمًا يمكن التحكم فيه كما يرون. وها هى الين لانجر عالمة مختصة فى علم النفس الاجتماعى تحدد نقطة ضعف أساسية تسميها "وهم التحكم". وتعرفه بأنه توقع أن النجاح الشخصى أكبر مما تكفله الاحتمالية الموضوعية. نعم يمكن أن يفيد الوهم أحيانًا فى شىء ما. مثال ذلك أن إحدى الدراسات كشفت عن أن الناس يكون أداؤهم أفضل بالنسبة للمهام الروتينية عندما يؤمنون عن خطأ أن بوسعهم التحكم فى ضوضاء عالية مشتتة للانتباه تقع على نحو دورى أثناء أداء المهام. وتوجد من ناحية أخرى بعض البراهين بشأن الوهم الذى يجعلنا نبدو بلهاء. فى دراستى المفضلة اقتربت لانجر من بعض عمال يعملون بالبناء وسألتهم إذا ما كانوا يرغبون فى شراء تذكرة يانصيب مقابل دولار. إذا قال الشخص: نعم أشترى، فإنها إما أن تناوله التذكرة أو أن تبسط أمامهم حزمة من التذاكر وتطلب من الشخص أن يختار. وبعد أسبوعين عادت إلى جميع من اشتروا تذاكر وقالت لهم إن أعدادًا كبيرة من الناس يريدون شراء تذكرة ولكن التذاكر نفدت. إذا كان أيكم يريد أن يبيع تذكرته لى فليقل ما الثمن الذى يريده؟ لاحظت فى المتوسط أن من ناولتهم يدًا بيد التذكرة أبدوا رغبة فى بيعها لها مقابل دولارين ولكن من سمحت لهم بانتقاء تذاكرهم أرادوا تسعة دولارات مقابل التذكرة الواحدة.

إن القدر الأكبر من معارفنا يفيد ضمنًا أن أبناء شرق آسيا أقل تأثرًا من الغربيين بمثل هذه الأوهام فى التحكم، كما أنهم أقل اهتمامًا بمسائل

التحكم عمومًا. واختبرنا، أنا وجى وينج هذه الأفكار من خلال صيغ جديدة لاختبار الكشف عن تلازم التغير Covariation detection test واختبار القضيب المعدنى والإطار.

أحدثنا تغييرًا ظاهريًا فى مهمة الكشف عن تلازم التغير. والهدف من الصيغة الجديدة هو تحديد مدى احتمال أن يظهر موضوع محدد على الجانب الأيمن من شاشة الكومبيوتر مع ظهور موضوع محدد آخر على الجانب الأيسر. وهيأنا للمشاركين قدرة على التحكم فى الموضوع الذى سيظهر على الجانب الأيسر من شاشة الكومبيوتر. وسمحنا لهم باختيار كم الوقت المنقضى مع كل محاولة بين عرض الموضوع على اليسار وعرض الموضوع الآخر على اليمين. ولوحظ فى ضوء هذه الظروف أن الأمريكيين رأوا قدر ما رأى الصينيون من تلازم التغير، وكانوا واثقين شأنهم شأن الصينيين. علاوة على هذا كان الأمريكيون على مستوى معقول من الدقة فى تحديد درجة تلازم التغير التى شاهدوها، بينما كان الصينيون عمليًا أقل قليلاً جدًا فى الدقة عندما تكون لديهم القدرة على التحكم، على عكس الحال إذا لم تكن لديهم هذه القدرة.

وفى اختبار المؤشر والإطار الذى أدخلنا عليه تغييرًا بسيطًا هيأنا للمشاركين قدرة على التحكم فى المؤشر بما يسمح لهم بتدويره بأنفسهم. ووضح فى هذه التجربة أن الأمريكيين أصبحوا أكثر ثقة فى دقة أحكامهم بينما لم يصبح أبناء شرق آسيا أكثر ثقة. ولوحظ أيضًا أن الرجال الأمريكيين الذين كانوا الأدق بين الجماعات التى بدأنا بها أصبحوا عمليًا ولا يزالون هم الأكثر دقة. ولكن الدقة بالنسبة لأبناء شرق آسيا وللنساء الأمريكيات لم تتأثر نتيجة للقدرة التى هيأناها لهم للتحكم.

ثبات أم تغير؟

حين نفكر فى مستقبل العالم نعتقد دائمًا أنه سيكون حيث يتعين له أن يكون إذا ما استمر يتحرك كما نراه يتحرك الآن. ونحن لا ندرك أنه لا يتحرك فى خط مستقيم ... وأن اتجاهه فى تغير دائمًا وأبدًا.

الفيلسوف لودفيج فتجنشتين

نحن نميل إلى التسليم دائمًا بأن الغد سيكون مثل اليوم، وبالمثل حين نكون على وعى بالحركة فإننا نفترض أن الغد سيأتى مختلفًا عن اليوم تمامًا مثلما أن اليوم مختلف عن الأمس ... لقد أضحت دورة حياة الإنسان أطول، وسوف تكون أطول مستقبلاً. ونقصت ساعات العمل التى يعملها المرء على مدى العام، وسوف تنقص أكثر فأكثر ... وكلما ازدادت حدة وعينا بالحركة ازدادت قوة إيماننا باتصال واستمرار الحركة مستقبلاً.

الفيلسوف السياسى برتراند دو جوفينال

كما يبين فى نهاية الأمر فإن "تا" تمثل تعميمًا مفرطًا للغاية. لقد كان فلاسفة الإغريق القدامى لديهم نزوع قوى نحو الاعتقاد بأن الأمور لا يطرأ عليها تغير كبير، أو أنها، إذا كانت تتغير حقًا، فإن التغير مستقبلاً سوف يستمر فى الاتجاه نفسه، وبالمعدل نفسه، للتغير الراهن. ويصدق الرأى نفسه بالنسبة للغربيين المحدثين العاديين. ولكن أبناء شرق آسيا المحدثين مثلهم مثل الطاويين والفلاسفة الكونفوشيين القدامى يؤمنون بأن الأشياء فى تغير

دائب، وأن الحركة فى اتجاه بذاته أبعد من أن تشير إلى حدوث التغيرات مستقبلاً فى الاتجاه نفسه، وربما تكون علامة على أن الأحداث ربما تعكس الاتجاه.

وإن هذه الافتراضات المختلفة عن التغير يمكن أن نستمدها من صور فهم مختلفة عن تعقد العالم، والتى تكون بدورها نتيجة وتجليًا للاهتمام بالجزء الصغير فى البيئة بدلاً من جماع أو مجموعات من الأجزاء. وإذا بدا العالم مكانًا صغيرًا لأننا لا نولى القسط الأكبر منه اهتمامًا وانتباهًا، فإننا لن نتوقع تغيرًا كبيرًا. وحيث يكون التغير واقع مطرد فليس لدينا مبرر لافتراض أنه سيؤدى إلى أى شىء غير استمراره فى اتجاه واحد. ولكن إذا ما بدا العالم مكانًا شديد التعقد لأننا نلحظ قدرًا كبيرًا من أحداثه، إذًا فإن الثبات سيكون هو الاستثناء والتغيير هو القاعدة. وكلما ازداد عدد العوامل المؤثرة والفاعلة ازداد احتمال أن يؤدى متغير ما إلى تعديل معدل التغير أو حتى أن يعكس اتجاهه. وجدير بالملاحظة أن الافتراضات الدورية تحديدًا التى تقول بها انطاوية يمكن أن تنبثق عن هذه النظريات عن التعقد. أو ربما تكون العكس تمامًا: الإيمان بأن العالم فى حالة عود على بدء دائمًا، وهو اعتقاد من شأنه أن يفرز افتراض التعقد. ولكى نكون جدليين فى هذه النظرة يمكن القول باحتمال فعالية الاتجاهين معًا وأن كلاً منهما يغذى الآخر بالتبادل ... فى صورة دورة.

واشتركت مع لى – جون جى، الذى كان وقتذاك طالبًا بجامعة ميتشيجان ويانجى سو، زميل بجامعة بكين، وذلك لدراسة المعتقدات الصينية والأمريكية عن التغير. وسألنا فى دراسة منها طلاب جامعة ميتشيجان

وجامعة بكين إلى أى مدى يعتقدون أن المرجح أن يطرأ تحول جذرى على وضع ما لبعض الأمور. مثال ذلك: "لوسيا وجيف كلاهما من قدامى طـلاب الجامعة نفسها. اعتادا أن يلتقيا معًا بانتظام على مدى عامين. إلى أى مـدى ترجحون أن علاقتهما سوف تنقطع بعد التخرج؟".

وكان هناك أربعة موضوعات كهذه للسؤال عن احتمال التغير. لوحظ فى الحالات الأربعة جميعها أن الصينيين رأوا التغير أكثـر ترجيحًـا مـن الأمريكيين. ورأى الصينيون فى المتوسط أن التغير مرجح بنسبة ٥٠ بالمائة من الوقت ورأى الأمريكيون أن التغير مرجح بنسبة ٣٠ بالمائة من الوقت.

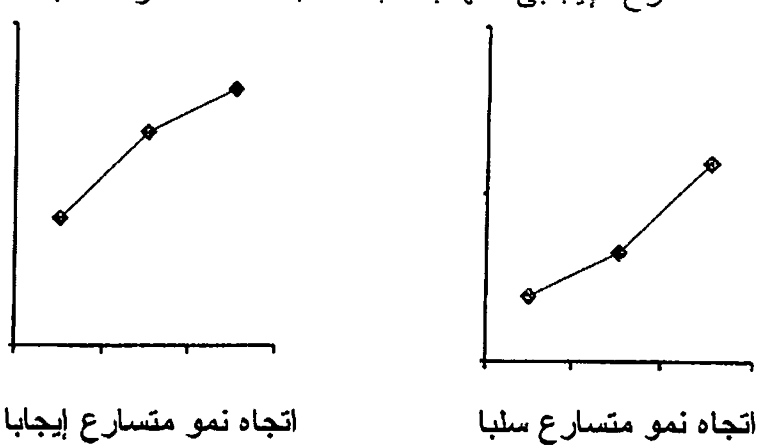
وفى دراسة أخرى عرضنا أنا وجى وسو على المشاركين من طلاب جامعة بكين اثنى عشر رسمًا بيانيًا فى كراسة. ويعرض كل رسـم بيـانى خريطة لاتجاه مزعوم على مدى فترة زمنية من مثل معدل النمو الاقتصادى العالمى أو معدل الوفيات فى العالم بسبب السرطان. مثال ذلك: معدلات نمو الاقتصاد الكوكبى (تغير النسبة المئوية سنويًا من إجمـالى النـاتج القـومى الحقيقى) كانت ٣,٢ بالمائة، ٢,٨ بالمائة، ٢,٠ بالمائـة، للأعـوام ١٩٩٥، ١٩٩٧، ١٩٩٩ على التوالى.

وسألنا المشاركين عما يرونه مرجحًا لمعدل النمو الاقتصادى الكوكبى أن يرتفع أم ينخفض أم يظل كما هو عام ٢٠٠١.

وكانت الاتجاهات المعروضة إما النمو أو الانخفاض، وكـان معـدل التغيير إما متسارعا أو متناقصا. ويوضح الرسم منحنى نمو متسارعا إيجابيًا ومنحنى نمو متسارعًا سلبيًا. وذهبنا فى تفكيرنا إلى أنه كلما تعاظمت الزيادة

فى معدل التغير كان مرجحًا أكثر أن الصينيين سيتوقعون تباطؤًا أو حتـــى تحولاً عكسيًا للاتجاه. وكلما زاد معدل التغير فى اتجاه معين سيكون علامة على تحول عكسى فى المستقبل القريب. ولكن بالنسبة للأمريكيين فإن الزيادة فى التسارع ربما يكون مؤشرًا قويًا جدًا على استمرار الحركة فـــى اتجـــاه بذاته. ولهذا توقعنا أن تظهر الاختلافات على هذا النحـــو بـــين الـــصينيين والأمريكيين، وستكون عند تقييم الاتجاهات المتسارعة إيجابيًا أكبر منها عند تقييم الاتجاهات المتسارعة سلبيًا.

وتبين لنا، كما توقعنا، أن الأمريكيين قـــدموا تنبـــؤات متـــسقة مـــع الاتجاهات التى عرضناها عليهم أكثر مما قدم الصينيون. وصدق هذا بالنسبة لكل الاثنى عشر رسمًا بيانيًا التى عرضناها عليهم. ولـ[illegible] أنـــه إذا صـــعد اتجاه معين كان الأمريكيون أميل من الصينيين إلى التنبؤ بأنـــه سيواصـــل الصعود. وإذا هبط الاتجاه كان الأمريكيون أميل من الصينيين إلى التنبؤ بأن الانخفاض سيطرد. وكانت هذه الاختلافات، كما توقعنا أيضًا، أكبر بالنـــسبة لاتجاهات التسارع الإيجابى عنها بالنسبة للاتجاهات المتسارعة سلبًا.



اتجاه نمو متسارع سلبا   اتجاه نمو متسارع إيجابا

مثالان لاتجاهات النمو المتسارعة إيجابا وسلبا :

وفى شكل آخر لهذه الدراسة عرضنا المجموعة نفسها من الرسوم البيانية الاثنى عشر مع البيانات الثلاثة الأولية الخاصة بها على فريق جديد من المشاركين، وسألناهم أن يحددوا عمليًا ما يتوقعون أن تكون عليه بيانات النقطتين التاليتين. كان الأمريكيون أميل إلى مواصلة السير فى الاتجاه نفسه وبالمعدل نفسه كما بالإمكان أن نستنتج من الموضوعات السابقة. ولكن الصينيين فى المتوسط العام تنبئوا بثبات التغير عند مستوى محدد وكانوا فى مرات عديدة أميل من الأمريكيين إلى التنبؤ بأن يسير التغير فى اتجاه عكسى. وأعود لأقول إن هذه الاتجاهات بدت أكثر وضوحًا عندما كانت الرسوم البيانية متسارعة إيجابيًا عما كانت متسارعة سلبيًا.

وجدير بالذكر أن المعتقدات التى تؤمن بالحركة خطية المسار مقابل الحركة دائرية المسار تنطبق على التغير على مدى فترات زمنية طويلة جدًا. إن الدراسة السياسية التى كتبها توماس مور عام ١٥١٦ تضمنت تأملاً بشأن شكل نظام الحكم الكامل. وابتكر مور مصطلح "يوطوبيا" كاسم لهذا المجتمع. والكلمة ضرب من التورية لجذر يونانى يحمل معنيين "اللامكان" و"المكان الفاضل". ولا ريب فى أن يوطوبيا مور ليست الأولى، كما أنها يقينًا ليست الأخيرة على مدى تاريخ طويل للابتكارات الغربية، بما فى ذلك جمهورية أفلاطون والحركة البيوريتانية وطوائف الهزازين (طوائف دينية أمريكية تؤمن بأن حركات الجسم التى تشبه الذكر جزء من العبادة ـ المترجم) ومذهب المورمون والثورتان الأمريكية والفرنسية والمذهب الشيوعى والفاشية. وجدير بالملاحظة أنه باستثناء اليوطوبيات التى صيغت نماذجها

طبقًا لأفكار الكتاب المقدس عن جنة عدن والوعد الإلهى فى التوراة بأورشليم القدس الجديدة، فإن اليوطوبيات الغربية تتسم بخمس سمات بارزة، وهذه السمات جميعها تجعلها مختلفة اختلافًا كبيرًا عن إيمان كونفوشيوس وغيره من المفكرين الصينيين القدماء بأن العالم الكامل وُجد فى الماضى، وأن كل ما نملكه هو الأمل فقط فى أن نجاهد ونكابد للتحرك من واقعنا الراهن المتدنى إلى ذلك الزمان.. زمان الكمال.

وتؤمن اليوطوبيات الغربية بما يلى:

هناك تقدم ثابت وخطى بدرجة أو بأخرى فى اتجاههم.

ما إن تتحقق اليوطوبيات حتى تصبح حالة ثابتة.

نصل إليها بفضل الجهد البشرى وليس القدر أو تدخل مفارق.

تلتزم عادة بالمساواتية.

وتتبنى عادة على أساس عدد قليل من الفروض المتطرقة عن الطبيعة البشرية.

وتعتبر هذه الصفات من نواح كثيرة النقيض التام للمستقبل كما يمكن أن يتصوره العقل البشرى، الذى يميل إلى البحث عن طريق وسطى بين متطرفين ويفترض ردة لا تقدمًا، أى عودًا إلى البداية.

وجدير بالذكر هنا أن العبرانيين القدامى كانوا من هذه الناحية أقرب إلى الصينيين منهم إلى الإغريق. إن يوطوبيا العبرانيين التى تمثلها جنة عدن كانت قائمة فى الماضى وتمنوا لو تعود ويتم إحياؤها من جديد. وكانت فكرتهم عن طبيعة التغير مماثلة لفكرة الصينيين؛ إذ كانت لديهم فكرة واضحة عن

ين ويانج الحياة. ولقد باع أنبياء العبرانيين فى القرن الثـــامن قبـــل المـــيلاد عقاراتهم وممتلكاتهم إذا ما أصاب اليهود خيرًا وسارت حياتهم رخـــاء ــ إذ كانوا على يقين بأن الحياة دوارة وسرعان ما تستدير نحو الأسوأ ــ واعتادوا أن يشتروا حين تسوء الأمور! ولا يزال هذا الاتجاه من الحياة باقيًـــا لـــدى طائفة اليهود المحدثين وتحكى عنه نكات لا حصر لها: "أمى خمنى مـــاذا ــ كسبت سيارة بونتياك من اليانصيب!" الأم: "آه، الضرائب وحدها ستسد علينا السبل وتضعنا أسرى الفقر".

إذا استمرت الفوارق فى الافتراضات بشأن اتجاه التقدم البشرى، وإذا صاغ الناس الحياة على غرار اتجاه حياة بشرية وحيدة، فإن لنا أن نتوقع أن يؤمن الغربيون بأن مستقبلهم الخاص سوف يتحرك باستمرار فى اتجاه واحد، من شر إلى خير أو من خير إلى شر. ويمكن لأبناء شرق آسيا أن يتوقعـــوا أن تعانى حياتهم من تقلبات فى الحظ، من خير إلى شر إلى خير، أو من شر إلى خير إلى شر. ورغبة منا فى دراسة هذه الإمكانات عمدت أنا وجى وسو إلى مطالبة عدد من طلاب جامعتى ميتشيجان وبكين بـــأن يتنبئـــوا بمـــسار السعادة فى حياة كل منهم. وعرضنا عليهم ثمانيـــة عـــشر اتجاهًـــا مختلفًـــا للاختيار من بينها. ست منها مسارات خطية ــ مستقيمة صعودًا أو هبوطًـــا ولكن مع تذبذبات على مدى المسار. واثنا عشر منها لا خطية! إما تتوقـــف عند الاتجاه الأول أو تعكس مسار الاتجاه الأول لتغيـــر الحيـــاة. لـــوحظ أن نصف الأمريكيين تقريبًا اختاروا واحدًا من المسارات الست الخطية للحيـــاة باعتقادهم أنه الأكثر احتمالاً. هذا بينما أقل من ثلث اختيارات الصينيين كانت خطية. (لم تكن الاختيارات مردها إلى افتراضات تشاؤمية أو تفاؤليـــة عـــن

مسار الحياة. إذ كان الفريقان متعادلين من حيث الشعور بأنهم سيبلغون النهاية سعداء وكذا من حيث الشعور بأنهم سينتهون إلى وضع غير سعيد).

معنى هذا أن أبناء شرق آسيا مثلهم مثل أسلافهم يؤمنون بأن العالم زاخر بالتغيرات وأنه ما طار طائر وارتفع إلا كما طار انخفض. هذا بينما الغربيون (أو لنقل الأمريكيين ـ حيث لا توجد لدينا بيانات عن غربيين آخرين فيما يتعلق بهذه النقطة) يعتقدون بأن ما يصعد ليس بحاجة إلى أن يهبط ثانية.

ورأينا فى الباب الثالث أن التنظيم الاجتماعى والممارسات الاجتماعية لدى أبناء شرق آسيا المحدثين تشبه ما كان لدى الصينيين قديمًا، وأن التنظيم الاجتماعى والممارسات عند الأوروبيين المحدثين تشبه ما كان لدى الإغريق القدامى. ورأينا فى هذا الباب أن أبناء شرق آسيا المحدثين مثلهم مثل الصينيين القدماء يرون العالم فى صورة كلية: إنهم يرون جانبًا كبيرًا من المجال خاصة أحداث الخلفية العامة. وإنهم مهرة فى إدراك العلاقات بين الأحداث، ويرون العالم مركبًا وقابلاً للتغير بدرجة كبيرة وأن مكوناته متداخلة متشابكة. كذلك يرون الأحداث تتحرك فى دورات بين طرفين متناقضين، ويشعرون بأن التحكم فى الأحداث يستلزم تآزرًا وتنسيقًا مع الآخرين. ولكن الغربيين المحدثين، مثلهم مثل الإغريق القدامى، يرون العالم فى صورة تحليلية ذرية، ويرون الموضوعات متمايزة ومنفصلة عن بيئاتها، ويرون الأحداث تتحرك فى مسار خطى إذا تحركت أصلاً، ويشعرون بأنهم هم شخصيًا متحكمون فى الأحداث والوقائع حتى وإن لم يكونوا كذلك. والملاحظ أن الاختلاف ليس قاصرًا فقط على النظرة إلى العالم من حيث

المفاهيم بل وأيضًا ينظرون إلى العالم حرفيًا بأسلوبين مختلفين. يرى أبناء شرق آسيا الصورة الكبرى الكلية ويرون الموضوعات فى علاقتها بالبيئة إلى الحد الذى يتعذر عليهم معه فصل الموضوعات بصريًا عن بيئاتها. ولكن الغربيين يركزون على الموضوعات بينما يهملون المجال، ويرون حرفيًا عددًا أقل مما يرى أبناء شرق آسيا من موضوعات وعلاقات فى البيئة.

وإذا كان هناك بعض من يرى العالم من خلال عدسة منفرجة الزاوية ويرون الموضوعات فى سياقاتها، بينما يركز آخرون أولاً وأساسًا على الموضوع وخواصه، إذن فمن المرجح أن يفسر كل طرف الأحداث تفسيرًا مختلفًا عن الآخر. إن أصحاب النظرة منفرجة الزاوية ربما يميلون إلى أن يروا الأحداث ناتجة عن نقل عوامل فى سياقات معقدة ومتداخلة. هذا بينما من ينظرون عبر بؤرة ضيقة نسبيًا ربما يكونون أميل إلى تفسير الأحداث أولاً وأساسًا فى ضوء خواص الموضوعات. وسوف نرى فى الباب التالى إذا ما كانت النظرتان المختلفتان إلى العالم مرتبطتين حقًا بأنواع مختلفة من التفسيرات السببية للحدث نفسه.

الباب الخامس

"البذرة الشريرة"
أم الصبية الآخرون أغروه على هذا الفعل؟

في عام ١٩٩١ خسر طالب صيني في قسم الفيزيـــاء بجامعـــة يـــووا واسمه جانج لو، جائزة في منافسة تقدم لها. طعن في القرار دون جـــدوى، وفشل نتيجة لذلك في الحصول على وظيفة أكاديمية، وفي ٣١ أكتوبر/تشرين أول دخل قسم الفيزياء وأطلق الرصاص على المشرف عليه وعلى الشخص الذي نظر طعنه وعديد من زملائه الطلاب وبعض من تصادف وجودهم ثم على نفسه.

ولحظ ميشيل موريس، طالب تخرج في ميتشيجان في الوقت نفسه، أن التفسيرات المطروحة عن سلوك جانج لو في صحف الجامعة ركزت فقـــط تقريبا على الصفات المفترضة التي كان يتصف بها لو: نقاط الضعف النفسية لدى القاتل ("طبع سيئ جدا"، "ميل شرير لشخصيته")، مواقفه (إيمان شخصي بأن البنادق وسيلة مهمة لإصلاح الظلم ومشكلات نفسية ("مضطرب سوداوي خرج بنفسه على طريق النجاح والتدمير"، "مشكلة نفسية بسبب ما واجهه من تحديات"). وسأل طالبا زميله يدعى كيبنج ينج عن أنواع التفـــسيرات التـــي تتردد في الصحف الصينية. كانت مختلفة. أكد المحررون الصينيون الأسباب المتعلقة بالسياق الذي عاش وعمل فيه لو. وتركزت التفسيرات على علاقات

لو ("لم يكن على وفاق مع المشرف عليه"، "الغيرة من الطالب القتيل"، "العزلة عن المجتمع الصينى") والضغوط داخل المجتمع الصينى (ضحية السياسة التعليمية إزاء طلاب القمة الصينيين) وجوانب السياق الأمريكى (السماح بحمل الأسلحة فى المجتمع الأمريكى).

ورغبة فى التأكد من صحة انطباعاتهما عمد موريس وينج إلى عمل تحليل محتوى منهجى للتقارير المنشورة فى نيويورك تايمز وصحيفة وورلد جورنال باللغة الصينية. وأوضح هذا الإجراء الموضوعى صواب ملاحظاتهما الأولية. هل يمكن اعتبار اختلاف مظانّ الأسباب نوعا من التعصب القومى "الشوفينية"؟ وجه المحررون الأمريكيون اللوم إلى الجانى الذى تصادف أنه صينى، بينما وجه المحررون الصينيون اللوم إلى العوامل الموقفية، ربما لحماية ابن وطنهم. وكما هى العادة فإن فحص جريمة قتل جماعى سوف يسمح لنا بأن نتبين هل التعصب القومى أم النظرة إلى العالم هى سبب الاختلاف فى أنماط التفسير.

وحدث فى العام نفسه الذى ارتكب فيه جانج لو جريمة أو جرائم القتل والانتحار، أن عامل بريد أمريكيًا فى رويال أوك من أعمال ميتشيجان ويدعى توماس ماك إلفان فقد وظيفته. طعن فى القرار لدى نقابته ولكن دون جدوى وفشل فى العثور على وظيفة بديلة طوال الوقت. وفى ١٤ نوفمبر/تشرين ثان دخل مكتب البريد الذى كان يعمل فيه فى السابق وأطلق الرصاص على رئيسه السابق الذى نظر فى طعنه، كما أطلق الرصاص على عديد من زملائه السابقين وعدد ممن كانوا هناك بالمصادفة، ثم انتحر.

قام موريس و بنج بعمل الدراسة نفسها لتحليل المحتوى فى ضوء تقارير النيويورك تايمز وصحيفة وورلد جورنال عن جريمة القتل الجماعى

التى ارتكبها ماك إلفان. ووجدا أن التقارير سارت فى الاتجاه نفسه تماما مثلما حدث بالنسبة للقاتل الصينى. إذ ركز المحررون الأمريكيون على الاستعدادات الشخصية لدى ماك إلفان: الاتجاهات والسمات الشخصية التى استنتجوها من سلوكه فى الماضى ("كثيرا ما كان يهدد باستخدام العنف"، "ضيق الصدر"، "متحمس للفنون العسكرية"، "غير مستقر ذهنيا"). وأكد المحررون الصينيون على العوامل الموقفية التى أثرت على ماك إلفان ("رجل مسلح فُصل أخيرا من عمله"، "كان رئيسه فى العمل يناصبه العداء"، "تأثر بجريمة قتل حدثت مؤخرا فى تكساس واتخذها مثلا له").

قدم موريس وبنج أوصاف الجرائم إلى عدد من طلاب الجامعة الأمريكيين والصينيين. وطلبا منهم أن يحددوا أهمية عدد كبير من الصفات الشخصية المفترضة والعوامل الموقفية المنتقاة من بين تقارير الصحف. لوحظ أن الطلاب الأمريكيين، سواء كانوا يفسرون الجريمة الجماعية الأمريكية أم الصينية، ركزوا أساسا على الاستعدادات المفترضة لدى الجانى. بينما شدد الطلاب الصينيون على العوامل الموقفية لكل من الجريمتين الجماعيتين. ولعل ما يثير أكثر أن موريس وبنج أعدا قائمة تضم عددا من العوامل الموقفية وطلبا من المشاركين الحكم إذا ما كانت الجريمة يمكن لها أن تقع لو أن الظروف والملابسات كانت مختلفة. إذ إنهما على سبيل المثال سألا الآتى: "هل كان بالإمكان تجنب الكارثتين لو أن لو تسلم وظيفة" أو "إذا كان لماك إلفان أصدقاء كثيرون أو أقارب فى رويال أوك؟". اختلفت إجابات المشاركين الأمريكيين والصينيين اختلافا كبيرا. اعتقد الصينيون أن الجريمتين ما كان لهما أن تقعا فى حالات كثيرة. ولكن

الأمريكيين لإيمانهم أن الاستعدادات الراسخة لدى القاتل هى مفتاح وعلة ثورته واهتياجه، فقد رأوا أن الأرجح أن جرائم القتل كانت ستقع دون اعتبار لاختلاف الظروف.

فى بيان الأسباب فى الشرق والغرب :

حرى ألا ندهش لأن الشعب الصينى أميل إلى أن يعزو سبب سلوك ما إلى السياق، بينما الأمريكيون أميل إلى أن يعزوا سبب السلوك نفسه إلى الفاعل. ورأينا فى الباب الأخير أن أبناء شرق آسيا يهتمون بالسياق أكثر من الأمريكيين. وأن ما يأسر انتباه المرء هو على الأرجح ما يعتبره المرء مهمّا من الزاوية السببية. ويبدو أن العكس مستساغ بالقدر نفسه: إذا ما رأى المرء شيئا ما مهما كسبب فسوف يهتم به على أرجح تقدير. وهكذا تنشأ دورة حيث الآراء عن السببية ومحور الاهتمام يعززان بعضهما.

وثمة شواهد ودلائل وفيرة على أن الاختلافات فى نسبة الأسباب تعكس كالمرآة الاختلافات فى الانتباه والاهتمام. وسبق أن أعدت عالمة نفس النمو جوان ميللر أول دراسة مقارنة ثقافية عن نسبة الأسباب لمن، حيث قارنت بين هنود شرق الهند والأمريكيين. طلبت من مشاركيها وهم من متوسطى الأعمار ومن أبناء الطبقة الوسطى أن يصفوا لها سلوك أحد المعارف الذى "يعتبرونه خطأ ما كان ينبغى أن يحدث"، وسلوكا لأحد المعارف "يعتبرونه لائقا بشخص آخر". طلبت بعد ذلك من مشاركيها أن يفسروا لها لماذا أقدم الناس على السلوك الذى فعلوه. اتجه المشاركون الأمريكيون إلى تفسير السلوك فى ضوء السمات المفترضة للشخصية وغير

ذلك من استعدادات لدى الفاعل:" سالى حذرة، غير متحفظة وودودة". وكان الأمريكيون ضعف الهنود فى هذا النهج فى تفسير الأسباب. واتجه الهنود إلى تفسير السلوك فى ضوء عوامل سياقية: "كان الظلام يسود المنطقة ولم يكن هناك أحد ليقدم العون". وكانت تفسيرات الهنود المعتمدة على السياق ضعف تفسيرات الأمريكان فى بيان الأسباب.

ولم يقدم الأمريكيون والهنود أنواعا مختلفة من الإجابات لأنهم وصفوا أنواعا مختلفة إلى حد ما من الأحداث. إذ عندما طلبت ميللر من الأمريكيين تفسير السلوكيات التى ذكرها الهنود، فسرها الأمريكيون باستخدام الأنواع نفسها من التفسيرات المبنية على الاستعدادات التى فسروا بها سلوكياتهم هم. وقدمت ميللر عرضا توضيحيا إضافيا مهما، أوضحت فيه أنها تحتاج إلى وقت لتعلم كيف تفسر السلوك المقبول ثقافيا. إن الأطفال فى الثقافتين لا يختلفون من حيث أنواع التفسيرات التى يقدمونها. ويظل الوضع كذلك حتى سن البلوغ، وهنا يبدأ الهنود والأمريكان فى التباعد فى ما يقدمونه من تفسيرات. ورغبة فى أن تبلغ بهذه الدراسة ذروتها سألت ميللر هنودا إنجليز أو بريطانيين من أصل هندى أضحت ثقافتهم غربية إلى حد ما. كانت تفسيراتهم سواء من حيث أن يعزوا السبب إلى الاستعدادات أو إلى السياقات تحتل موقعا وسطا بين الهنود من الهند والأمريكان.

سلوك آخر نلمسه فى تفسير الكسب والخسارة فى المباريات الرياضية، يبدو واضحا أن الأسباب التى يعزو إليها الناس النصر أو الهزيمة تختلف فى أمريكا عنها فى شرق آسيا. وقد عمدت عالمة النفس المختصة بعلم النفس التنظيمى وزملاؤها إلى تحليل ما كتبه محررو الرياضة عن تفسير المدربين

واللاعبين للأسباب فى الولايات المتحدة وهونج كونج. يرى الأمريكيون أن النتائج هى فى الغالب الأعم تعبير عن قدرات اللاعبين فردا فردا: "سمبسون يقود فريقه ليسجل أحد عشر هدفا ولكن نجاحه يتمثل فى قوة دفاعــه"، "لقــد كان معنا حارس مرمى ممتاز فى مباراة كذا والذى سبق له أن كان مــدافعا فى نهائيات العام الماضى ..." ولكن أبطال الرياضة والمدربين فــى هــونج كونج أميل إلى الإشارة إلى الفريق الآخر وإلى السياق: "كنا محظــوظين إذ سجلنا هدفا تفوقنا به، وكنت دائما على ثقة بأننا سنتفوق عليهم. وأحــسب أن فريق جنوب الصين كان مجهدا إلى حد ما بعد أن لعب مباراة فــى الــدورة الرباعية فى الصين".

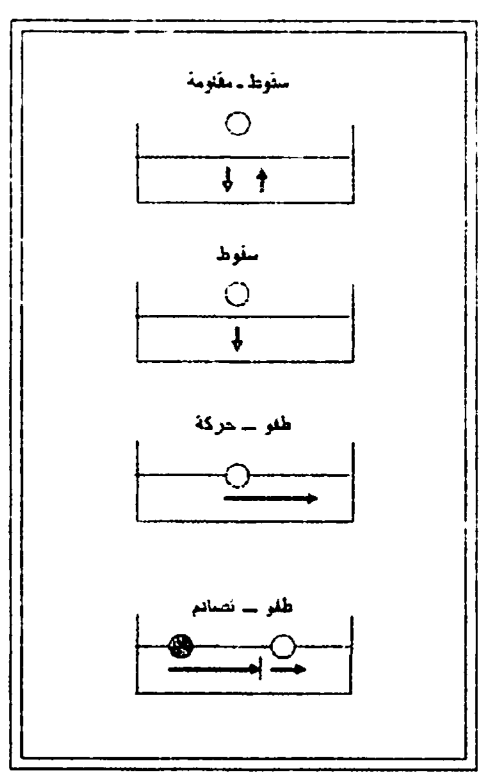
الفوارق فى نسبة الأسباب بين الشرق آسيويين والغربيين تمضى إلــى ما هو أعمق من تفسير السلوك البشرى. وأوضح موريس وبنج أن الصينيين يميلون إلى أن يعزوا سلوك السمك فى مشاهد الفيديو إلى عوامل خارجيــة بينما يعزوها الأمريكيون إلى عوامل داخلية. وأوضـــح يــنج وزمــلاؤه أن الفوارق بين أبناء شرق آسيا والغربيين أعمق من هذا أيضا؛ إذ تصل إلــى الإدراك الحسى للسببية الفيزيقية. حيــث عرضــا علــى نــساء صــينيات وأمريكيات لوحات كارتون أو رسومًا متحركة تجريدية من نــوع الرســوم المعروضة فى الصفحة التالية. وتعرض كل لوحة حركة من نــوع محــدد يمكن تفسيرها على أساس هيدروليكى أو مغناطيسى أو أيروديناميكى. وكما كان متوقعا فسر المشاركون اللقطات العليا فى الرسم على أنها شىء خفيــف الوزن (كرة) ستطفو على سطح السائل. ولكن الدائرة فى الصورة التى تحت السابقة تسقط إلى ما دون الخط العلوى وتوشك أن تستقر على الخط السفلى. وهنا أيضا، وكما كان متوقعا، رأى المشاركون هذه الحركة باعتبارها شــيئا

ثقيل الوزن يسقط ليصل إلى قاع الوعاء الذى يحتوى على السائل. وسأل الباحثان المشاركين إلى أى مدى رأوا أن حركات هذا الشيء تأثرت بعوامل داخلية (شيء ما داخل الشيء نفسه أو خاص به وكان سببا فى سقوطه). أفاد الأمريكيون أنهم تصوروا أن الحركات جاءت نتيجة لأسباب أو عوامل داخلية وكانوا فى تصورهم للأسباب الداخلية أكثر مما ذهب الصينيون.

ظلت هونج كونج تحت السيطرة البريطانية زهاء مائة عام، وكان الأطفال هناك يتعلمون الإنجليزية منذ المرحلة الابتدائية. وظل النفوذ الغربى ثقافيا ولسانيا قويا حتى بعد أن عادت الجزيرة إلى السيطرة الصينية منذ عام ١٩٩٧. وجعل هذا من المدينة معملا مهما وأثيرا لأغراض دراسة التفاعل الثقافى.

ويبدو واضحا أن مواطنى هونج كونج بوسعهم، إذا ما صادفوا تشجيعا، أن يفكروا بأسلوب شرق آسيا أو بأسلوب غربى إذا ما عرضنا عليهم صورا توحى بهذه الثقافة أو تلك. وعرضت ينج - يى هونج وزملاؤها صورا مماثلة للصور المتحركة "الكارتون" عن السمك التى سبق أن عرضها موريس وبنج على طلاب بجامعة هونج كونج. ولكنهم عرضوا فى البداية عليهم صورا توحى بأى من الثقافة الغربية أو الشرقية. وعرضوا على بعض المشاركين صورا ترتبط ارتباطا قويا بالثقافة الأمريكية: مثال ذلك مجلس النواب الأمريكى، شخص من رعاة البقر "كاوبوى" على صهوة جواد، وميكى ماوس. وعرضوا على مشاركين آخرين صورا ترتبط ارتباطا قويا بالثقافة الصينية: مثال ذلك صورة تنين، معبد، أشخاص يكتبون رسوما صينية مستخدمين فرشاة فى الكتابة. وعرضوا على فريق ثالث من المشاركين صورا حيادية تصور مناظر طبيعية. وبعد عرض مجموعة من الصور على المشاركين عرضت هونج وزملاؤها عليهم صورة كارتون

لسمكة تسبح أمام سمكة أخرى وسألوهم عما يعتقدون أنه الـــسبب الرئيـــسى الذى جعل السمكة تسبح فى مقدمة السمكة الأخـــرى وتـــسبقها. لـــوحظ أن المشاركين الذين رأوا الصور الأمريكية عرضوا أسبابا تتعلق بحوافز السمكة الوحيدة أكثر مما عرض المشاركون الذين رأوا الصور الصينية وعرضـــوا تفسيرات ذات علاقة بالسمكة الأخرى أو السياق أقل، من التفسيرات التى قال بها المشاركون الذين رأوا الصور الصينية. هذا بينما الـــذين رأوا الـــصور المحايدة قد احتلوا موقعا وسطا.



مسارات الحركة فى عروض بالكمبيوتر
توحى بوجود سائل فى الوعاء

سألنا أنا وأرا نورنزايان وأنكيول طلابا جامعيين كوريين وأمريكان عددا من الأسئلة بهدف سبر غور آرائهم عن أسباب السلوك. طلبنا منهم تعيين درجة لكل من الفقرات العديدة التى تعبر بدقة عن آرائهم بشأن الأسباب التى تجعل الناس يتصرفون على النحو الذى يتصرفون به. ونورد فيما يلى الجملتين الأوليين من كل فقرة.

> شخصية الناس هى التى تحدد فى الغالب الكيفية التى يتصرفون بها. إن شخصية المرء تهيئ الاستعداد المسبق للسلوك وتوجهه نحو السلوك على نحو محدد دون سواه بغض النظر عن الظروف والملابسات التى تحيط بالمرء.

> الموقف الذى يوجد فيه الناس هو الذى يحدد غالبا الكيفية التى يتصرفون بها. إن الموقف له سلطان قوى جدا على المرء حتى ليمكن القول إن نفوذه على السلوك أقوى من نفوذ الشخصية.

> الكيفية التى يتصرف بها الناس تحددها دائما بالاشتراك معا شخصية الناس والموقف الذى يجدون أنفسهم فيه. ولا يسعنا القول إن العامل المحدد لسلوكنا هو إما الشخصية أو الموقف فقط.

اعتبر الكوريون والأمريكيون الشخصية (١) مهمة بالقدر نفسه فى تحديد السلوك، ولكن الكوريين أولوا العوامل الموقفية (٢) والتفاعل بين المواقف والشخصيات (٣) أهمية أكبر مما رأى الأمريكيون.

وسألنا أيضا عددا من المشاركين عديدا من الأسئلة عن معتقداتهم بشأن مرونة وطواعية الشخصية. مثال ذلك: سألناهم عن رأيهم فى أن شخصية

المرء أمر لا سبيل فى تغييره كثيرا. اعتقد الكوريون أن الشخصيات تخضع للتغير أكثر مما ذهب الأمريكيون.

ولا غرابة أبدا فى أن يعتبر الأمريكيون الشخصيات ثابتة نسبيا بينما يعتبرها أبناء شرق آسيا أكثر مرونة وطواعية. إذ إن هذا يتسق مع التراث الغربى العريق فى النظر إلى العالم باعتباره وجودا استاتيكيا إلى حد كبير، بينما تراث شرق آسيا العريق يرى العالم فى تغير دائم.

وأوضح علماء النفس الاجتماعيين ميشيل موريس وكووك ليونج وشيتا سيتى (إيينجار) أن أبناء شرق آسيا والغربيين يفضل كل منهم أنواعا مختلفة من استراتيجيات التفاوض التى يمكن أن تكون مرتبطة بآراء عن قابلية الشخصية للتكيف. سألوا المشاركين من هونج كونج والأمريكيين أى نوع من القضاء يفضلونه للفصل فى خلاف ما والوصول إلى اتفاق مع شخص تصرف على نحو يمكن وصفه بأنه معاد أو غير معقول. آثر المشاركون من أبناء هونج كونج الفصل فى القضية على أساس التحقيق على يدى طرف ثالث يحقق مع طرفى الخصومة ويحاول الوصول إلى حكم مقبول من الاثنين. بينما كان الأمريكيون أميل إلى تفضيل الفصل فى القضية على أساس أنها خصومة بين طرفين أمام القضاء مع وجود محام عن كل من الطرفين.

هل لنا أن نفترض أن أبناء شرق آسيا لديهم أفكار ورؤى عن الشخصية البشرية مختلفة فى أساسها عن أفكار ورؤى الغربيين؟ هل يؤمن أبناء شرق آسيا بأن الفوارق بين أفراد البشر طفيفة جدا؟ أم أنهم يرون أن هناك فوارق ولكنها تبدو فى ضوء فهم الغرب سماتا غريبة أو غير ذات جدوى؟

الإجابة على هذه الأسئلة كلها من المحتمل أن تكون لا. وأذكر أنني حين كنت فى الصين عام ١٩٨٢ قرب نهاية الثورة الثقافية، كان المجتمع كتوما لا يزال يعيش فى حالة صدمة بعد أن قضى ثلاثين عاما فى تجربة اجتماعية واقتصادية مصحوبة بتشنجات عصبية. بدت الثقافة مختلفة، ومختلفة جذريا عن ثقافة الغرب على نحو تعذر عليَّ معه أن أصوغ صورة ومفهوما واضحين. لمست، كما يبين من هذا الكتاب، فوارق لافتة للنظر من نظرة الإنسان إلى العالم وفى عمليات الإدراك والتفكير. بيد أننى ألفيت نفسى خلال ثلاثة أسابيع قادرا على أن أثرثر مع مضيفى عن الصين. استطعنا أن نتحدث عن أدب فونج وخضوعه، وعن غطرسة شان وتحفظ لين ونفهم بعضنا جيدا. وتيسر لى لحسن الحظ دليل أفضل من القصة التى عندى. قدم الباحثون كمًّا كبيرا من الشواهد والدلائل التى تشير إلى أن النظريات عن الشخصية فى شرق آسيا مماثلة جدا للنظريات فى الغرب. وإن العوامل الرئيسية المحددة لسمات الشخصية – والتى يصفها أصحاب نظريات الشخصية بعبارة الخمسة الكبار – نجد لها نظائر كثيرة بين الناس فى الغرب. وتظهر هذه العوامل نفسها عند ترجمة اختبارات الشخصية الغربية وعند تطبيقها على الصينيين أو الكوريين أو اليابانيين وإن لم يتسنَّ أحيانا تحديد أكثر من أربعة عوامل.

ووجد عالما النفس الثقافيان كيو – شو يانج وميشيل بوند أن هناك قدرا كبيرا من التشابه عندما تكون مواد وبنود الاختبار مبنية على أساس أوصاف سلوكية شائعة فى الثقافة المحلية، وليست مترجمة من اللغات الغربية. وبذلت فانى شيونج وزملاؤها جهدا بعد ذلك لتطوير قائمة بسمات الشخصية الصينية. ووصولا إلى هذا انتقوا مفردات تصف الشخصية من

خلال أعمال صينية شعبية معاصرة من مثل الروايات والحكم الصينية وأوصافهم لأنفسهم وللآخرين على لسان العامة أو التى حددها علماء النفس المهنيين. وتأسيسا على هذه المواد صاغت شيونج وزملاؤها "اختبار تقييم الشخصية الصينية". وطبقوا هذا الاختبار على عينة كبيرة من أهالى هونج كونج والصين الأم. واكتشفوا عوامل أربعة، يتطابق ثلاثة منها بشكل عام مع الانبساط النفسى والعصابية والحساسية الضميرية extraversion, neuroticism, conscientiousness وهى أقوى العوامل الخمس الكبرى فى الغرب. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الباحثين اكتشفوا عاملا لا يظهر فى الاختبارات المطورة فى الغرب. ووصفوا هذا العامل بقولهم "عامل التراث الصينى"، وهى صياغة تجمع صفات الشخصية ذات الصلة بالتناغم الباطنى والتناغم فيما بين الناس. وبدا مثيرا للاهتمام أن نبحث عما إذا كان هذا العامل يمكن أن يكون موجودا فى صيغة من صيغ الاستبيان الصينى عند ترجمتها إلى اللغات الغربية. إن التناغم ليس هو أول سمة تصادف الباحثين الغربيين عند التفكير فى الشخصيات، ولكن ربما يكون لهذا المعنى أهمية لدى الغربيين على الرغم من ذلك.

تحاشى الخطأ الأساسى فى رد السلوك إلى استعدادات مسبقة للشخصية:

يبدو أن أبناء شرق آسيا والغربيين ليسوا على هذا القدر من الاختلاف الكبير فى أبعاد الشخصية التى يستخدمونها. لماذا إذن يركز الغربيون بقوة على سمات الشخصية فى تفسيرهم للسلوك؟ الإجابة على ما يبدو هى أن أبناء شرق آسيا أميل إلى ملاحظة عوامل موقفية مهمة وإدراكهم أن هذه

العوامل لها دورها فى توليد السلوك. ونتيجة لذلك فإن مجتمعات شرق آسيا أقل تعرضا لما يصفه عالم النفس الاجتماعى لى روس "الخطأ الأساسى فى نسبة السلوك إلى استعدادات مسبقة للشخصية. "Fundamental Attribution Error" أو اختصارا FAE.

تخيل أنك رأيت طالبا جامعيا طلب منه البعض أن يصحب عددا من المانحين المحتملين فى جولة فى الجامعة على مدى يوم كامل، وقدموا لهذا الطالب مقابل خدمته مبلغا ضئيلا من المال ــ أقل من الحد الأدنى للأجر ــ ولنتخيل أن الطالب رفض. هل نظن أنه من المرجح أن يقبل هذا الطالب التطوع للمساعدة فى حملة للصليب الأحمر للتبرع بالدم؟ من المحتمل أن لا يقبل. ولكن لنفترض أن أحد أصدقائك رأى طالبا آخر تقاضى مبلغا مقبولا من المال ــ لنقل يزيد ٥٠ بالمائة عن الحد الأدنى للأجر ــ ليصاحب وفد المانحين وقبل الطالب ذلك. هل تعتقد أن الصديق سيرى أنه من المرجح أن يقبل الطالب التطوع للمساعدة فى حملة التبرع بالدم؟ الشىء المحتمل أن القبول مرجحا أكثر مما تظن أنت وما تتوقعه من الطالب. إذا كان ذلك صحيحا فإن كليكما، أنت وصديقك، تعرضان صيغة لنسبة السلوك إلى استعدادات مسبقة لدى الشخص وليس إلى عامل موقفى مهم ــ وهو هنا المال ــ واعتبار العامل الموقفى القوة الدافعة الأولى وراء السلوك.

هذا الخطأ ــ إغفال الموقف واختراع تفسيرات للسلوك على أساس استعدادات قوية مسبقة ــ خطأ شائع جدا. إن هذا يجعل الناس يثقون خطأ فى أن شخصا ما يرونه يجرى اختبارا شخصيا لشغل وظيفة مهمة فيصفونه بأنه شخص عصبى بطبيعته، أو أن شخصا آخر يرونه منسحبا ومنزويا فى حفل

ما (بينما يكون السبب لأنه لا يعرف أحدا من الحضور) ونصفه بأنه خجول، أو أن نرى شخصا لَسِنًا يجيد ويطيل الحديث عن موضوع ما يعرفه أمام جمهور مألوف له ونقول إنه متحدث رائع وشخص واثق بنفسه كل الثقة.

وأول برهان تجريبي راسخ عن هذا الخطأ قدمه عالم النفس الاجتماعي المبرز إدوارد إي. جونس وزملاؤه. ففي دراسة منشورة عام ١٩٦٧ طلبوا من طلاب جامعيين قراءة خطاب أو مقال زعموا أن كاتبه طالب آخر. وسوف يسمون هذا الطالب الآخر باسم "هدف". وأوضحوا لهم أنه طُلب من هدف أن يكتب الخطاب أو المقال داعما لجانب محدد من قضية بعينها. مثال ذلك أنهم طلبوا من الهدف أن يكتب مقالا فى علم السياسة يعرب فيه عن تفضيله لرئيس كوبا كاسترو، أو أن يدلى بخطاب فى محفل جدلى يعارض تشريعا يسمح بالماريجوانا. وطلب الباحثون من المشاركين أن يوضحوا ما يظنونه الفكر الحقيقى للطالب الهدف الذى كتب المقال أو ألقى الخطاب. القيود والضغوط الموقفية الحادة ستجعل المشاركين يعترفون بأنهم لم يعرفوا شيئا عن الآراء الحقيقية للهدف ولكنهم فى الحقيقة تأثروا بشدة بما قاله الهدف. إذا قال الهدف إنه يؤيد أسلوب كاسترو فى إدارة شئون كوبا فإن المشاركين يفترضون أنه ميال بالفعل إلى هذا الرأى. وإذا ما قال الهدف إنه يعارض إصدار تشريع يسمح بتداول الماريجوانا فإن المشاركين يميلون إلى افتراض أنه مؤمن فعلا بهذا الرأى.

وكما ثبت فى النهاية فإن هذا الوهم قوى إلى حد أن أبناء شرق آسيا أنفسهم يتأثرون به. لقد شارك صينيون ويابانيون وكوريون فى صيغ مختلفة من هذه التجربة وتبين أنهم يستنتجون أن الأهداف (أى الكُتّاب) لديهم بالفعل

مواقف واتجاهات تتطابق مع الآراء التى قرءوها فى مقالاتهم المزعومة. ولكن ثمة فارقا بين قابلية تأثر الشرق آسيوى وقابلية تأثر الأمريكى بهذا الوهم: إن أبناء شرق آسيا لا يقعون فى الخطأ إذا ما وضعوا أنفسهم أولا موضع الهدف. وحدث أن وضعنا أنا وإنكيول شوى المشاركين أنفسهم فى المواقف التى يطالبون فيها بكتابة مقال عن موضوع بذاته، وأن يتخذوا موقفا محددا، وأن يستخدموا مجموعة محددة من الحجج الأربعة فى كتابة مقالهم. وقرأوا بعد هذا مقالا كتبه شخص يعرفون أنه كان فى الموقف ذاته الذى كانوا هم فيه أنفسهم. لم يكن لهذا أى أثر تحديدا على الأمريكان: لقد كانت استدلالاتهم المبنية على أساس الاستعدادات الشخصية للآخرين قوية إلى الحد الذى بدوا وكأنهم هم أنفسهم لم يعيشوا تماما خبرة وتجربة الموقف الذى عاشه الشخص الهدف. ولكن التجربة خلقت مناعة لدى الكوريين حالت دون وقوعهم فى الخطأ.

ويشير دليل آخر إلى أن إبراز العوامل الموقفية له أثره، وأن أثره على أبناء شرق آسيا أكبر من أثره على الغربيين. وحدث أن طلبنا أنا وأرا نورنزايان وإنكيول شوى من طلاب جامعيين أمريكيين وكوريين أن يقرءوا سيناريو واحدا من اثنين ثم يخمنوا إذا ما كان الشخص الهدف سيعطى شخصا ما أجر ركوب الأوتوبيس. ويبدأ السيناريوهان على النحو التالى:

قابلت جيم وهو جار جديد لك. وبينما أنت وجيم تسيران معا فى الحى الذى تسكنانه اقترب من جيم شخص أنيق الملبس وقال إن سيارته أصابها عطب ويريد أن يستدعى الميكانيكى بالهاتف. ثم أردف قائلا بصوت خجول طالبا من جيم ربع دولار ثمن

المكالمة التليفونية. رأيت جيم يبحث فى جيوبه وعثر على ربع دولار وأعطاه للرجل. وفى يوم تال كان جيم فى طريقه سيرا على قدميه إلى محطة الأوتوبيس ليلحق بالأوتوبيس قاصدا عمله. وبينما هو يمشى اقترب منه شاب فى العشرينيات يتأبط بعض الكتب وسأل جيم فى أدب إذا كان يمكنه أن يستعير منه دولارا أجرة الأوتوبيس موضحا موقفه بأنه نسى حافظة نقوده فى البيت ويحتاج ثمن تذكرة أوتوبيس ليصل إلى مدرسته.

فى إحدى الصيغتين للسيناريو التى قرأها فريق من المشاركين يبحث جيم فى جيوبه ويكتشف أن معه عددًا من الدولارات. وفى الصيغة الثانية التى قرأها فريق آخر من المشاركين يكتشف أن ما معه من نقود يكفى بالكاد أجرة الأوتوبيس الذى سيركبه هو. لوحظ أن المشاركين الكوريين كانوا أميل إلى الإقرار بأن على جيم أن يفكر فى إعطاء ابن العشرينيات النقود التى يريدها ما دام معه عدة دولارات، على عكس موقفهم حين يجد أن ما معه يكفيه للانتقال هو وحده.

وقدمنا للمشاركين مجموعة من ستة سيناريوهات مختلفة، كل سيناريو من صيغتين مختلفتين، ووجدنا أن الكوريين فى كل منها أكثر استجابة من الأمريكيين إلى المعلومات الموقفية، ويتنبئون بأن سلوكا معينا سيكون هو الأرجح إذا ما كانت هناك عوامل موقفية تيسره، على عكس الحال إذا كانت العوامل الموقفية مثبطة.

وهكذا نجد الشواهد والدلائل بشأن رد الأسباب تتداخل مع الشواهد والدلائل عن الإدراك. نلاحظ أن الغربيين يهتمون أساسا بالموضوع

أو الشخص المحورى الذى يحتل البؤرة بينما الشرق آسيويون يهتمون بشكل أعم بالمجال وبالعلاقات بين الموضوع والمجال. وينـزع الغربيون إلى افتراض أن الأحداث سببها الموضوع، بينما الشرق آسيويون يميلون إلى أن يعزوا أهمية أكبر إلى السياق.

بناء نماذج سببية

الفوارق بين أبناء شرق آسيا والغربيين فى التفكير الاستدلالى عن الأسباب أوسع نطاقا من مجرد تفضيل المجال أو تفضيل الموضوع. الغربيون ينغمسون أكثر فى المدى الزمنى الذى يردون فيه الأسباب. وجدير بالذكر أن المؤرخة ماساكو فاتانابى قدمت عرضا جميلا لهذه الفكرة خلال دراساتها عن الوسائل التى يتعامل بها اليابانيون والأمريكيون مع الأحداث التاريخية من جانب التلاميذ فى مدارسهم الابتدائية، وطلاب الجامعات وكذا المعلمون.

يبدأ المعلمون اليابانيون بعرض سياق مجموعة من الأحداث بشىء من التفصيل. ثم ينطلقون من هذا إلى عرض الأحداث المهمة فى ترتيب زمنى بحيث يربطون كل حدث بما يليه. ويشجع المعلمون طلابهم على تصور الحالات الذهنية والانفعالية للشخصيات التاريخية، وذلك بالتفكير على سبيل المماثلة والمناظرة بين مواقف تلك الشخصيات ومواقف الحياة اليومية للطلاب. ويشرعون بعد هذا فى تفسير الأفعال والأعمال فى ضوء هذه المشاعر. ونرى التركيز على الحدث "الأوَّلى" الذى كان بمثابة قوة الدفع للأحداث التالية. ويرى المعلمون أن الطلاب أصبحت لديهم قدرة جيدة على التفكير تاريخيا حين يكشفون عن قدرة على التقمص الوجدانى للأشخاص

التاريخية بمن فى ذلك أعداؤهم. والملاحظ أن أسئلة "كيف" هى التى تتكرر كثيرا، حوالى ضعف السؤال عنها فى الفصول الدراسية الأمريكية.

ويقضى المعلمون الأمريكيون وقتا أقل من المعلمين اليابانيين فى تحديد السياق، إذ يبدءون بالنتيجة وليس بالحدث الأولى أو الحافز. ويتحطم النظام الكرونولوجى، أى الترتيب الزمنى للأحداث، خلال العرض. ونجد بدلا من هذا أن العرض يفرضه ويحدده النقاش بشأن العوامل السببية المفترض أنها مهمة (الإمبراطورية العثمانية انهارت لأسباب ثلاثة أساسية). ويعتبر الطلاب لديهم قدرة جيدة على التفكير الاستدلالى التاريخى حين تتوفر لديهم قدرة على إيراد الأدلة التى تتلاءم مع نموذجهم السببى للنتيجة النهائية. والملاحظ أن أسئلة "لماذا" تتكرر فى الفصول الدراسية الأمريكية ضعف حدوثها داخل الفصول الدراسية اليابانية.

وتصف واتانابى التحليل التاريخى الأمريكى بالتفكير الاستدلالى الارتجاعى Backward reasoning لأنه يعرض الأحداث حسب ترتيب السبب والنتيجة. ونلحظ التشابه بين هذا النهج والاستدلال الهادف أى الموجه نحو هدف goal-oriented reasoning : يحدد الهدف المطلوب إنجازه واستحداث نموذج يهيئ لك إمكانية الوصول إليه. ونلحظ أيضا أن التوجه الهادف يمثل خاصية مميزة للغربيين أكثر منها لأبناء شرق آسيا؛ وذلك لاقترانه لدى الغربيين بإحساسهم بالفعالية الذاتية. وتساعدنا هذه الرؤية النافذة على فهم السبب فى أن الإغريق القدامى وليس الصينيين هم الذين انشغلوا فى صوغ نماذج سببية للظواهر الطبيعية. إن نمذجة، أى صياغة نماذج للأحداث بأسلوب التحليل السببى الارتجاعى، يبدو أكثر وأيسر على نحو طبيعى

بالنسبة لمن لديهم حرية تحديد أهدافهم إزاء موضوع ما وأن يصوغوا مخططاتهم لإنجاز تلك الأهداف. وتستشهد واتانابى بمقولة معلم أمريكى يدرس الإنجليزية كلغة ثانية إذ يقول: "كم هو عسير أشد العسر على المعلمين الأمريكيين أن يفهموا بحوث الطلاب اليابانيين لأننا لا نرى فيها أى إشارة سببية .... بينما العلاقة بين السبب والنتيجة تعتبر منطقا أوليا فى الولايات المتحدة".

وجدير بالذكر أن الغربيين فى اتساق مع عالمهم الأقل تعقدا يرون عوامل أقل مما يراها أبناء شرق آسيا وثيقة الصلة بفهم العالم. وأذكر أن إنكيول شوى وزملاءها وصفوا حادثة القتل التى ارتكبها طالب قسم الفيزياء الصينى على عدد من المشاركين الأمريكيين والكوريين. وقدمت شوى وزملاؤها بعد هذا مائة مادة معلومات تتعلق بالطالب والأستاذ والمدرسة وغير ذلك، وطلبوا من المشاركين حذف العوامل التى لا يمكن اعتبارها ذات صلة فى خلق الحافز إلى القتل. لوحظ أن المشاركين الكوريين رأوا أن ٣٧ بالمائة فقط من مواد المعلومات غير ذات صلة. رأى الأمريكيون أن ٥٥ بالمائة من مواد المعلومات غير ذات صلة على الأرجح. (ودرسوا أيضا وضع مشاركين أمريكيين من أصول شرق آسيوية ووجدوا أنهم يحتلون موقعا وسطا بين الأمريكيين الأوروبيين والكوريين).

ووجدت شوى وزملاؤها أيضا دليلا على أن الميل لأن يرى المرء عوامل كثيرة جدا ذات صلة بالنتيجة مرتبط بدرجة إيمان المرء بمعتقدات النظرة الكلية عن العالم. وطلبوا من مشاركيهم الإجابة على استبيان خاص "بالنظرة الكلية" holism يشير إلى مدى اعتقادهم بأن الأحداث مرتبطة ببعضها. من أمثلة ذلك:

كل شيء في الكون مرتبط على نحو ما بكل شيء آخر.

ليس بالإمكان فهم الأجزاء دون وضع الصورة الكلية في الاعتبار.

ووجدت شوى وزملاؤها أن الكوريين أكثر إيمانًا من الأمريكيين بالنظرة الكلية. علاوة على هذا فإنه كلما كان المرء أكثر نزوعا إلى النظرة الكلية، سواء أكان أمريكيّا أم كوريّا، أحجم عن افتراض أن مادة بذاتها من المعلومات يمكن أن تكون غير ذات صلة.

ولكن اتساع أفق العقل والإيمان بأن العالم معقد يمكن أن يكون لهما مثالبهما أيضا كما سنرى فيما يلي.

تجنب النظرة البعدية hindsight :

يمكن القول إن حادث انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ من الأحداث التاريخية القليلة التي ما كانت لتبدو حتمية في رأى أعداد كبيرة من المؤرخين المحترفين أو غيرهم. إن سقوط الإمبراطورية الرومانية، وصعود الرايخ الثالث إلى السلطة، ونجاح أمريكا في الوصول قبل الروس إلى القمر، ناهيك عن أحداث أخرى أقل إثارة وخطرا اعتاد المعلقون اعتبارها أحداثا حتمية وإن كنت أشك أن أحدا لم يكن بوسعه التنبؤ بوقوعها. ونحن حين نحاول "التنبؤ" بالماضي نجد أنفسنا بصدد مشكلتين: (١) الاعتقاد، على الأقل عند النظر إلى الأحداث بعد وقوعها، أنه كان بالإمكان رؤية أن الأحداث ما كان لها أن تأخذ مسارا غير الذي سارت فيه. (٢) حتى التفكير بأنه كان من

اليسير على المرء، فى واقع الأمر، أن يتنبأ مقدما بأن الأحداث سوف تنتهى إلى ما انتهت إليه.

كيف لنا أن نعرف أن الناس تميل إلى الوقوع فى مثل هذه الأخطار؟ اصطنع عالم النفس المعرفى باروخ فيسكهوف منهجا ذكيا لبيان أن الناس تبالغ فى تقديرها لمدى تنبؤها بنتيجة حدث ما، ويكونون أقل دهشة مما ينبغى إزاء ما يطرأ على الأحداث من تحولات غير عادية. أعطى فيسكهوف لمشاركيه معلومات كافية لتهيئة المسرح لوقوع أحداث تاريخية متباينة. مثال ذلك أن وصف فيسكهوف الموقف فى البنغال عام ١٨١٤ عندما حاول البريطانيون إحكام سيطرتهم على الهند. كان عليهم التصدى للغارات التى يشنها الجوركاس من نيبال. وقرر القائد البريطانى أن يتصدى للجوركاس بغزو إقليمهم الجبلى. أمكن توفير تفاصيل الموقف وقت الغزو، وسأل فيسكهوف بعد ذلك مشاركيه عن النتائج المحتملة التى فكروا فيها. وأعطى لمشاركين آخرين المعلومات نفسها ولكنه قال لهم النتيجة النهائية الفعلية (الوقوع فى ورطة). وسأل مشاركيه ما هى النتيجة التى كان يمكن أن يذهب إليها تفكيرهم لو لم يقلها لهم. ووجد فيسكهوف أن مشاركيه إذا كانوا عارفين بالنتيجة فإنهم عادة يبالغون فى احتمال القول بها مقدما.

فكرنا أنا وأنيكول شوى أنه ربما يكون أيسر على المرء تجنب مغالطة النظرة البعدية إذا ما اتجه إلى صوغ نماذج سببية محددة وواضحة عن العالم. ذلك أن النماذج المحددة الواضحة ستكشف على الأرجح العوامل التى توحى بأكثر من نتيجة نهائية واحدة، ومن ثم، وبناء على ذلك يمكن أن يكون المرء أقل ميلا إلى الثقة بأن نتيجة بذاتها هى التى ستحدث. علاوة على هذا

يمكن للمرء أن يدهش عندما يثبت له أن تنبؤاته خاطئة. والدهشة من شأنها أن تحفز على البحث عن عوامل محتملة وثيقة الصلة، وكذا على مراجعة النموذج الذى يمكنه بدوره أن يسفر عن فهم أدق للعالم. وإذا كانت صياغة النماذج، من ناحية أخرى، أقل وضوحا وتحديدا، وإذا فكر المرء بأن عددا كبيرا من العوامل من المحتمل أن تكون ذات صلة بخاتمة معينة، إذن يمكن أن يكون من اليسير حينئذ التفكير فى أسباب لماذا يمكن لحدث بعينه أن ينتهى إلى نهاية غير التى انتهى إليها. عمدنا إلى اختيار هذه الأفكار فى سلسلة من التجارب تقارن بين الكوريين والأمريكيين.

قصصنا على المشاركين فى إحدى الدراسات قصة شاب طالب بمعهد دينى كان، كما أكدنا لهم، عطوفا جدا ومتدينا للغاية. وبينما كان فى طريقه عبر الحرم الجامعى إلى حيث يلقى عظته التقى رجلا راقدا على الأرض عند أحد المداخل يسأل الناس المساعدة. وقلنا للمشاركين إن الطالب بالمعهد الدينى كان متأخرا عن موعد إلقاء العظة.

فى الحالة أ لم يكن المشاركون يعرفون ماذا فعل طالب المعهد الدينى، وطلبنا منهم أن يقولوا لنا عما تصوروا أنه من المحتمل أن يحدث من حيث أن يقدم الهدف مساعدة، وما مدى دهشتهم إذا ما تبين لهم أنه لم يساعد السائل. أفاد كل من الكوريين والأمريكان باحتمال ٨٠ بالمائة أن يقدم الهدف مساعدة ما، وأشاروا إلى أنهم سوف يكونون مذهولين إذا لم يفعل ذلك. وفى الحالة ب قلنا للمشاركين إن طالب المعهد الدينى ساعد الضحية، وفى الحالة ج قلنا للمشاركين إن الهدف لم يساعد الضحية. وسألنا المشاركين فى الحالتين ب، ج عن ماذا سيكون اعتقادهم لو حدث ما كان محتملا من أن

يقدم الطالب مساعدة ـــ إذا لم نكن قد قلنا لهم حقيقة ما حدث ـــ وأيضا عـــن مدى دهشتهم إزاء سلوكه الفعلى. مرة أخرى أشـــار كـــل مـــن الكـــوريين والأمريكيين فى الحالة ب أنهم كانوا سيعتقدون أن تقديم المـــساعدة محتمـــل بنسبة ٨٠ بالمائة، وأفاد الفريقان أنهم لم يستغربوا لأنه قدم مساعدة. ولكـــن الأمريكيين فى الحالة ج التى لم يساعد فيها الطالب على غير ما كان متوقعا، أفادوا أيضا أنهم كانوا سيعتقدون أن احتمال تقديم المساعدة بنسبة ٨٠ بالمائة وقالوا إن دهشتهم ستكون كبيرة لو لم يفعل ذلك. وعلى العكـــس مـــن ذلـــك الكوريون فى الحالة ج إذ أفادوا بأنه كان ظنهم أن الطالب ســـيقدم مـــساعدة بنسبة ٥٠ بالمائة، وأن دهشتهم قليلة لأنه لم يفعـــل ذلـــك. وهكـــذا أعـــرب الأمريكيون عن دهشة فى موضع لم يُبْدِ فيـــه الكوريـــون دهـــشة، وأبـــدى الكوريون انحيازا واضحا للنظرة البعدية للأمور، إذ إن كثيرين منهم أفـــادوا أنهم ظنوا أنهم عرفوا شيئا وهو ما لم يكـــن واقعيـــا. (يـــصف الـــسيناريو المعروض فى تجربتنا تجربة حقيقية أجريناها مع طلاب بمعهد برينـــستون الدينى. وكان مرجحا جدا أن الشباب فى هذه الدراسة على استعداد لمساعدة الشخص الجالس يتأوه بجوار المدخل، ما لم يكونوا فى عجلة مـــن أمـــرهم، وهو ما جعل غالبيتهم يمسك عن تقديم المساعدة).

أشرفنا أنا وشوى على إجراء دراسة أخرى تشير إلى أن أبناء شـــرق آسيا لم تدهشهم مثل الأمريكيين نتائج غير متوقعة مسبقا. عرضنا الدراستين على مشاركين أمريكيين وكوريين وأعطينا كل شخص فرضا واحدا عن كل دراسة أو فرضين متضادين، أحدهما تنبأ بالناتج النهائى الفعلى، والآخر الذى تنبأ بالنقيض. مثال ذلك أنه قيل لبعض المشاركين عن دراسة تدرس فرضًـــا يقضى بأن الواقعية تزيد الصحة العقلية. وقلنا للمشاركين الآخرين إن الفرض

الذى تم التفكير فيه هو وفرض بديل يرى أن نزعة التفاؤل تعــزز الــصحة العقلية. وقرأ جميع المشاركين بعد ذلك أن النتائج الفعلية للبحث تشير إلى أن الواقعية تعزز الصحة العقلية. وطلبنا من المشاركين أن يبينوا لنا مدى مـــا تحمله هذه النتيجة من أسباب للدهشة والاهتمام. أفاد الأمريكيون بأنهم أكثـــر دهشة ــ ووجدوا الدراسة مثيرة أكثر للاهتمام ــ عنــدما عرضـــنا علـــيهم فرضين بينهما تنافس حاد. هذا بينما لم يكن الكوريون عندما عرضنا عليهم فرضين متضادين أكثر دهشة ولا اهتماما عما كانوا عليه عنــدما عرضـــنا عليهم فقط فرضا واحدا وهو الذى يتنبأ بالنتيجة الفعلية.

* * *

يلاحظ أن أبناء شرق آسيا أقرب يقينا من الغربيين فى صدق إيمـــانهم بأن العالم مكان شديد التعقد، بينما الغربيون دون شك يكشفون عـــن تفكيـــر عقلى شديد البساطة فيما يصوغونه من نماذج صريحة محددة عـــن العـــالم. وإن عدم دهشة أبناء شرق آسيا كما يحدث منهم غالبا ما هو إلا ثمن زهيـــد يدفعونه مقابل توافقهم مع نطاق واسع من العوامل السببية المحتملة.

ويبدو واضحا جدا من ناحية أخرى أن النماذج البسيطة هـــى الأكثـــر فائدة ــ على الأقل فى العلم ــ لأنها هى الأيسر عند إثبات خطئها ومن ثـــم تحسينها. وجدير بالذكر أن غالبية قضايا أرسطو عن الطبيعة ثبت خطؤهـــا بالبرهان فى نهاية الأمر. ولكن أرسطو عرض قضايا عـــن العـــالم قابلـــة للاختبار وهو ما لم يفعله الصينيون، إذ إن الغربيين هم الذين أسسوا المبادئ الفيزيائية الصحيحة. ربما فهم الصينيون مبدأ التأثير عن بعد ولكن أعوزتهم الوسيلة لإثبات صوابه. والمعروف أن الغربيين هم الذين أثبتوا صوابه إذ لم يصدقوه بادئ الأمر، وهم الذين حاولوا فعلا إثبات أن الحركة فـــى جميـــع صورها من نوع حركة كرة البلياردو، حيث الأشياء تتحرك فقط لتماسها مع شىء آخر.

إن نجاح الغربيين فى العلم وميلهم إلى الوقوع فى أخطاء معينة خلال التحليل السببى، أمران نابعان من المصدر نفسه. إن الحرية لمتابعة وإنجاز الأهداف الفردية من شأنها أن تحث الناس على صوغ نموذج للموقف بغية إنجاز تلك الأهداف، وهو ما من شأنه بالتالى أن يشجع على صوغ نماذج للأحداث. وذلك بتتبع الأحداث فى مسار ارتجاعى من النتائج إلى الأسباب المحتملة لها. وطبيعى أن يصبح بالإمكان تصحيح النموذج المصطنع حين تتوفر إمكانية منهجية لاختباره على نحو ما هو حادث فى العلم. ولكن النماذج التى يصطنعها الغربيون أميل إلى أن تكون محدَّدة بدقة شديدة للشىء أو الموضوع المستهدف وقاصرة عليه وعلى خواصه مع إغفال الدور المحتمل للسياق. وطبيعى حين يكون الهدف صوغ نموذج للحياة اليومية وهى حياة تعج بالطنين والتشوش، فإن الاعتراف بالخطأ سيكون أكثر صعوبة. وكم هو عسير أيضا تصحيح نموذج خاطئ فى مثل هذه الحالة. لهذا فإن الغربيين على الرغم من تاريخهم فى التفكير العلمى والعقلية العلمية، عرضة بوجه خاص للوقوع فى الخطأ الأساسى فى نسبة الأسباب، وكذا الوقوع فى المبالغة بشأن القدرة على التنبؤ بالسلوك البشرى.

وكما سيتضح لنا فى الباب التالى، فإن البساطة الأثيرة لدى الغربيين والتعقد المفترض لدى أبناء شرق آسيا، كلاهما يشتملان على ما هو أكثر من النهجين هنا وهناك فى تناول السببية. إن تفضيلات هؤلاء وأولئك يتسع نطاقها لتشمل سبل تنظيم المعارف على نحو أكثر عمومية.

الباب السادس

هل العالم مؤلف من أسماء أم أفعال؟

يحكي لنا جورج لويس بورخيس الكاتب الأرجنتينى أنه كانت هناك دائرة معارف صينية قديما تحمل اسم "الموسوعة السماوية للمعارف الخيرية" أو "الموسوعة السماوية للعلم النافع". وتضمنت التصنيف التالى للحيوانات: (أ) الحيوانات المملوكة للإمبراطور، (ب) المحنطة (ج) المروَّضة المدربة (د) الخنازير الرضيعة (هـ) الحوريات (و) الحيوانات الخيالية، (س) الكلاب الضالة (ص) تلك الواردة فى هذا التصنيف (ع) تلك التى ترتعد كأنها مجنونة (ف) الحيوانات المرسومة بفرشاة رقيقة صقيلة جدا مصنوعة من شعر الحمل (ق) حيوانات أخرى (م) تلك التى كسرت زهرية (ى) تلك التى تشبه الطيور عن بعد.

إننا حتى وإن قلنا إن بورخيس ربما اخترع هذا التصنيف لأغراض فى نفسه، إلا أن المؤكد أن الصين القديمة لم تصنف العالم إلى فئات بالطرق نفسها التى اتبعها الإغريق القدامى. ذهب الإغريق القدماء إلى أن الأشياء تدخل ضمن مقولة أو فئة واحدة إذا كان بالإمكان وصفها بصفات واحدة. ولكن الفيلسوف دونالد مونرو يوضح لنا فى حديثه عن الصينيين أن الصفات المشتركة بين الأشياء لا تعنى تأسيس فئة عضوية مشتركة بينها. وإنما كان الأمر على العكس من ذلك إذ جرى تصنيف الأشياء فى فئة مشتركة لأنهم

ظنوا أنها تؤثر فى بعضها بعضا عن طريق الرنين. مثال ذلك المنظومة الصينية للعمليات الخمس التى تضم فئات الربيع والشرق والخشب والرياح والأخضر ذلك لأنها تؤثر فى بعضها بعضا. وإن أى تغير يطرأ على الرياح من شأنه أن يؤثر فى كل الفئات الأخرى، فى عملية أشبه بالصدى الجمعى دون تماس فيزيقى يتخلل أى منها. ويلحظ أيضا الفيلسوف دافيد موسار أن التماثل بين الفئات، وليس التماثل بين أفراد الفئة نفسها هو ما كان يهم الصينيين قديما. إنهم ببساطة لم يكونوا معنيين بالعلاقة بين الأفراد أعضاء الفئة: فئة "حصان" مثلا ثم الفئة إجمالا "أحصنة".

ويبدو فى الحقيقة أن الصينيين كان لديهم عزوف عن التصنيف الفئوى. هكذا نجد الفيلسوف الطاوى قديما شوانج تسو يقول:... المشكلة ... فيما يتعلق بعدد البنود والصفات التى يمكن تحديدها، تقود المرء إلى اتجاه خاطئ. إن تصنيف أو تحديد المعرفة يحطم المعرفة الأعظم ويفتتها". ونقرأ فى كتاب "طاو تى شنج" النظرة السوداوية التالية عن الآثار الناجمة عن الاعتماد على الفئات:

الألوان الخمسة تعمى عينى المرء

الأنغام الخمسة تصيب أذنى المرء بالصمم

المنكهات الخمس تفسد حاسة الذوق

والملاحظ أن عدم الاهتمام بفئات الموضوعات المشتركة فيما بينها فى صفات واحدة يتسق مع المخطط العام الذى التزم به الصينيون قديما فى نظرتهم إلى العالم وتعاملهم معه. إذ رأوا أن العالم مؤلف من جواهر ـ مواد متصلة. لذلك كان ما يعنيهم هو ثنائية الجزء ـ الكل. ولكن البحث عن

القسمات المشتركة بين الموضوعات وتقسيمها إلى فئات على هذا الأساس لم يكن يمثل فى نظرهم نشاطا جم الفائدة، ما لم تكن الموضوعات نفسها وحدة التحليل. وحيث إن عالم الإغريق القدامى مؤلف من موضوعات فإن العلاقة الطبيعية فى نظرهم هى علاقة الفرد ـ الفئة. ولقد كان إيمان الإغريق القدامى بأهمية هذه العلاقة يشكل محور إيمانهم بإمكانية الاستدلالات الاستقرائية الدقيقة: إذ إن معرفة أن موضوعا ما ينتمى لمقولة ـ فئة ما ذات خاصية مميزة يعنى أنه بوسع المرء أن يفترض أن موضوعات أخرى تنتمى إلى الفئة ذات الخاصية نفسها. فإذا قلنا إن إحدى الثدييات لها كبد فإن لنا أن نقول إن جميع الثدييات كذلك ونكون على صواب. وطبيعى أن التركيز على تنظيم المعرفة على أساس واحد ـ كثير، فرد ـ فئة من شأنه أن يشجع الاستقراء من قضية واحدة مفردة، ولكن التمثيل المعرفى على أساس الجزء ـ الكل لا يفيد فى ذلك.

الفئات مقابل العلاقات فى الفكر الحديث:

مرة أخرى نحن إزاء تراثين فكريين مختلفين أشد الاختلاف فى اليونان القديمة والصين القديمة. ومرة أخرى لنا أن نتساءل عما إذا كانت العادات الذهنية للفلاسفة القدماء تشبه الإدراك والتفكير عند عامة الناس اليوم. لنا أن نتوقع تأسيسا على الشواهد والدلائل التاريخية بشأن الفوارق المعرفية وعلى نظريتنا عن الأصول الاجتماعية لها بأن الغربيين المعاصرين: (أ) لديهم ميل أكثر من أبناء شرق آسيا إلى تصنيف الموضوعات إلى فئات، (ب) يجدون من الأيسر لهم تعلم فئات ـ مقولات جديدة عن طريق تطبيق قواعد عن الخواص على الحالات الفردية، (ج) الإكثار من الاعتماد على الاستقراء على أساس المقولات ـ الفئات بمعنى التعميم انطلاقا من الحالات

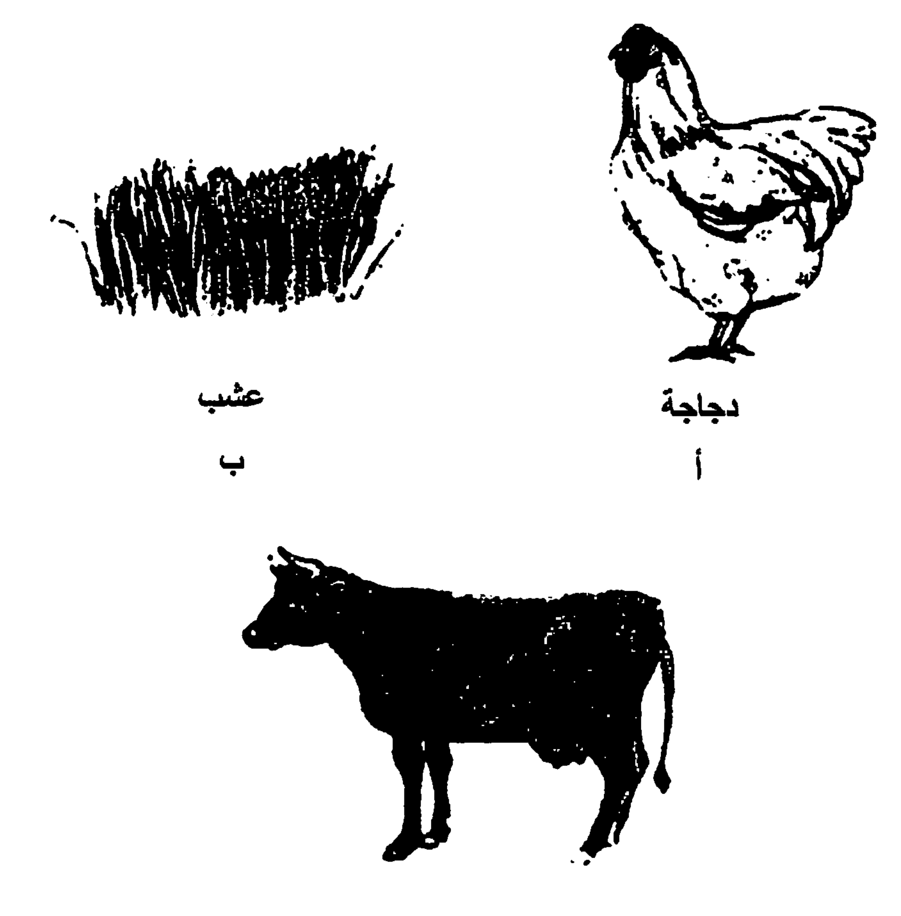
الجزئية للفئة وصولا إلى حالات أخرى أو إلى الفئة ككل. ولنا أن نتوقع أيضا أن أبناء شرق آسيا تأسيسا على إيمانهم واقتناعهم بالصلة الوثيقة الممكنة بين كل حادثة وحادثة أخرى ينظمون العالم أكثر مما يفعل الغربيون فى ضوء العلاقات المدركة وأوجه التماثل فيما بين الظواهر.

لنلق نظرة على الموضوعات المصورة فى الرسم المبين فى الصفحة التالية. إذا كان للقارئ أن يضع اثنين معا فأيهما؟ لماذا يرى أنهما ينتميان إلى بعضهما؟

إذا كنت غربيًا فالأرجح أن ترى أن الدجاجة والبقرة ينتميان إلى بعضهما. وعرض عالم نفس النمو ليانج ـ هوانج شيو صورة ثلاثية العناصر مثل هذه الموضحة فى الرسم على أطفال أمريكيين وصينيين. ووجد شيو أن الأطفال الأمريكيين فضلوا تجميع الموضوعات لأنها تنتمى أو تندرج تحت فئة "التصنيفية للحيوانات" أى أن الشرط التصنيفى يمكن أن ينطبق على أى منها، وفضل الأطفال الصينيون تجميع الموضوعات على أساس العلاقات. لذلك كان الأرجح عندهم أن يقولوا: البقرة والعشب فى الصورة ينتميان إلى بعضهما إذ إن "البقرة تأكل العشب".

وحصلنا أنا ولى ـ جون جى وجيونج جانج على نتائج مماثلة من مقارنة بين طلاب من الولايات المتحدة الأمريكية وطلاب من الصين الأم وتايوان. واستخدمنا فى هذا الكلمات بدلا من الصور. عرضنا على المشاركين مجموعات مؤلفة من ثلاث كلمات (مثل باندا وقرد وموز) وطلبنا منهم بيان أى اثنين من الثلاثة أقرب إلى بعضهما. كشف المشاركون الأمريكيون عن تفضيل واضح للتجميع على أساس الانتماء إلى فئة مشتركة: حيوان الباندا والقرد إذ يندرجان فى مقولة ـ فئة الحيوان. وكشف

المشاركون الصينيون عن تفضيل واضح للتجميع علـــى أســـاس العلاقـــات الموضوعية (مثل قرد وموز) وبرروا إجابتهم فى ضوء العلاقـــات: القـــرد يأكل الموز.



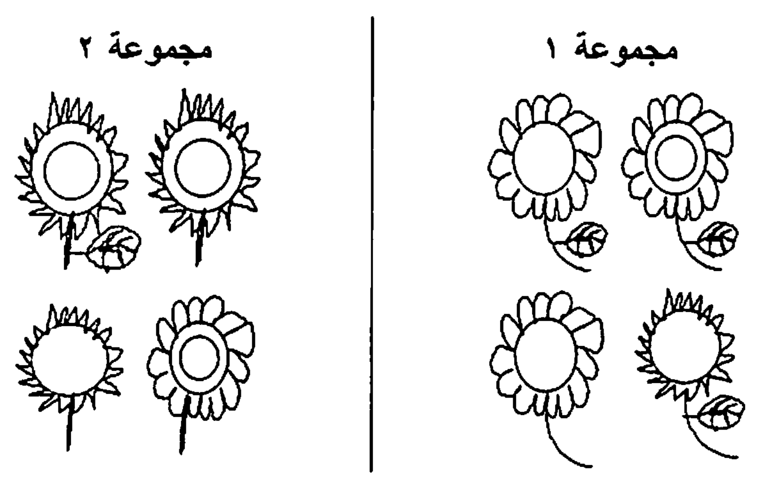
بقرة

أيهما يلائم هذه؟ أ أم ب

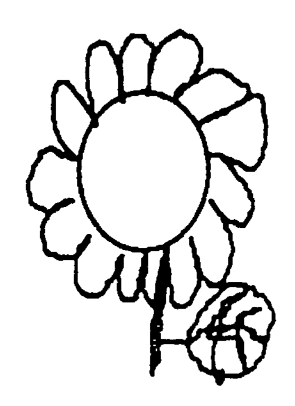
مثال لقياس أفضلية تقديرية للتجميع على أساس الفئات أم العلاقات

إذا كانت السبيل الطبيعية لتنظيم العالم عند الغربيين هى تنظيمه فى ضوء مقولات ــ فئات والقواعد المحددة لها، إذن لنا أن نتوقع أن يكون إدراك التماثلات بين الأشياء عند الغربيين متأثرا تأثرا كبيرا بالدرجة التى يمكن بها تصنيف الموضوعات إلى فئات عن طريق تطبيق مجموعة من القواعد. ولكن إذا كانت الفئات أقل بروزا ووضوحا لإدراك أبناء شرق آسيا، إذن لنا أن نتوقع أن إدراكهم للتماثل سينبنى أكثر على أساس التشابه الفصيلى بين الموضوعات.

ورغبة منا فى اختبار هذه الإمكانية عمدنا أنا وأرا نورنزايان وإدوارد إى. سميث وبيوم جون كيم إلى الآتى: أعطينا أشكالا تخطيطية عامة كما هو موضح فى الرسم التالى إلى مشاركين كوريين وأمريكيين أوروبيين وأمريكيين آسيويين. ويتألف كل عرض من موضوع فى أسفل اللوحة ومجموعتين من الموضوعات المبينة أعلى اللوحة. وحددنا مهمة المشاركين بأن يقولوا فقط أى مجموعة من الموضوعات يبدو معها الموضوع الهدف أكثر تماثلا. ولعل القارئ يريد أن يتخذ حكما بشأن الموضوعات المبينة فى اللوحة قبل القراءة عنها.



الموضوع الهدف



مثال لقياس بند ما سواء أكانت أحكام التماثل مبنية على التشابه التفصيلى أم على القواعد

ذهب غالبية الكوريين إلى الظن بأن الموضوع الهدف أكثر شبها بالمجموعة التى على اليمين (١) بينما اعتقد أغلب الأمريكيين الأوروبيين أن الموضوع أقرب شبها بالمجموعة (٢) على اليسار. والملاحظ أن الموضوع الهدف يحمل شبها فصيليا واضحا بالمجموعة التى على اليمين (١) لذا من اليسير علينا أن نتبين لماذا رأى الكوريون الموضوع أكثر شبها بتلك المجموعة. وواقع الأمر أنهم فعلوا هذا بنسبة ٦٠ بالمائة فى المرة. ولكن ثمة قاعدة بسيطة غير متغيرة مشتركة مع المجموعة (٢) على اليسار. والقاعدة هى "أن لها جذعًا مستقيمًا" (عكس المنحنى). وهذه هى تحديدا القاعدة التى اكتشفها الأمريكيون الأوروبيون ووضح أن ٦٧ بالمائة فى كل مرة وجدوا أن الموضوع الهدف أكثر شبها بالمجموعة من هذه الزاوية التى تشكل

القاعدة الأساسية للتقسيم الفئوى. واحتلت أحكام الأمريكيين الآسيويين مكانا وسطا ولكن أقرب شبها بأحكام الكوريين.

يجرى أحيانا تعلم المقولات - الفئات عن طريق تطبيق القواعد على القسمات المميزة. نحن نقول إن الأرانب حيوانات ثديية لأننا تعلمنا قاعدة هى أن الحيوانات التى ترضع صغارها حيوانات ثديية. (وهذا صحيح حسب تحديد معنى الفئات من حيث الشكل. ولكن الملاحظ عمليا أن غالبية الناس ربما يتعلمون معرفة الثدييات على أساس وصفها ظاهريا بهذه الصفة: "هذا الأرنب حيوان ثديى" و"هذا الأسد حيوان ثديى". ومن هنا فإن الفئة العامة السائدة التى يتعلمها الجمهور إنما تنبع من الخصائص المشتركة التى نشاهدها ـ جسمه مغطى بالفرو، له أربعة أقدام ... إلخ).

ويبدو أن النمذجة الصريحة المحددة أو صياغة القاعدة خاصية مميزة للتفسير السببى عند الغربيين أكثر مما هى مميزة عند أبناء شرق آسيا. وإذا كان استخدام أبناء شرق آسيا للقواعد والقوانين لفهم العالم أقل احتمالا، وإذا كان استخدامهم أيضا للمقولات ـ الفئات أقل احتمالا كذلك فإنهم ربما يجدون من الصعب عليهم استخدام الفئات، وربما يجدون عسيرا عليهم تعلم الفئات عن طريق تطبيق قواعد وقوانين صريحة ومحددة على الموضوعات. وأراد أرا نورنزايان وزملاؤه اختبار هذا الاحتمال. لذلك عرضوا أشكالاً كارتونية ملونة تشبه الأشكال المعروضة بالأسود والأبيض فى الرسم التالى على طلاب من أبناء شرق آسيا وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين فى جامعة ميتشيجان. وقلنا للمشاركين إنهم سيتعلمون كيف يصنفون الحيوانات على أساس أنها وافدة من كوكب الزهرة أو كوكب زحل.

مرحلة التدريب

معروف من الزهرة



معروف من زحل

مرحلة الاختبار: نظير موجب الزهرة



مرحلة الاختبار: نظير سلبى زحل



مثال لحيوانات كارتونية مستخدمة لدراسة مدى سهولة تعلم التصنيفات الفئوية على أساس من القواعد والقوانين

قلنا للمشاركين إننا نعتبر الحيوان وافدا من الزهرة إذا توفرت له ثلاث قسمات من بين خمس رئيسية: ذيل معقوص، وحوافر ورقبة طويلة وفم وأذنان طويلتان مثل الإيريال. ويعتبر الحيوان من كوكب زحل إذا لم تكن له هذه القسمات. والملاحظ أن الحيوان فى يمين أعلى الصورة (ويبدو فى الشكل المعروض على المشاركين ذا لون أزرق) تنطبق عليه معايير الحيوان الوافد من الزهرة. والحيوان فى يسار أعلى الصورة (ويبدو للمشاركين بلون أحمر) ليست به هذه القسمات ويوضع فى خانة أو فئة زحل. وبعد أن تعلم المشاركون كيف يصنفون الحيوانات بطريقة صحيحة اختبرنا مدى تحكمهم فى هذه الفئات، وذلك بأن عرضنا عليهم حيوانات جديدة لنرى مدى السرعة والدقة فى تصنيفهم لها. واشتملت الحيوانات الجديدة على نمطين يشبهان الأنماط السابق عرضها. بعض هذه الحيوانات كانت "نظائر موجبة"، تشبه حيوانا رآه المشاركون من قبل أثناء محاولات التدريب، وتنتمى إلى الفئة نفسها من حيث القواعد الخاصة بقسماتها. وحيوانات أخرى "نظائر سلبية"، تشبه حيوانا رأوه من قبل ولكنها، طبقا للقواعد، تنتمى إلى فئة أخرى مختلفة عن ما رأوه فى مرحلة التدريب. ويلاحظ أن الحيوان فى أسفل يمين الصورة يعتبر نظيرا موجبا للحيوان أعلى يمين الصورة؛ إذ يشبه الحيوان الذى جرى تصنيفه على أنه من كوكب الزهرة وهذا هو ما توضحه القواعد أيضا. ولكن الحيوان أسفل يمين الصورة نظير سلبى؛ إذ يشبه حيوان كوكب الزهرة ولكن القواعد تقول غير ذلك.

استغرق المشاركون من أبناء شرق آسيا وقتا أطول من الأمريكيين الأوروبيين أو الأمريكيين الآسيويين لإصدار أحكامهم بشأن ما إذا كان الحيوان

من الزهرة أم من زحل. وتساوت الفرق الثلاثة من حيث السرعة والدقة بالنسبة للنظائر الموجبة وهى النظائر التى تساعد فيها كل من الذاكرة التى تعى المثل الذى رأوه فى السابق، وكذا التطبيقات الصائبة للقواعد فى تحديد الفئة من أجل الوصول إلى إجابة صحيحة. أما النظائر السالبة فهى على العكس إذ لا يمكن تصنيفها تصنيفا صحيحا إلا إذا كان المشاركون يتذكرون جيدا القواعد ويمكنهم تطبيقها على نحو صحيح، ولهذا كانت أخطاء المشاركين من أبناء شرق آسيا فى التصنيف ضعف أخطاء كل من الأمريكيين الأوروبيين أو الأمريكيين الآسيويين. ويبدو أن التصنيف الفئوى على أساس القواعد ليس يسيرا على أبناء شرق آسيا بقدر ما هو يسير على الغربيين.

أى من النتيجتين المذكورتين فيما بعد، وكلتاهما تنتهى بعبارة "دم الأرانب يحتوى على أنزيم كيو" تبدو أكثر إقناعا لك؟ ولماذا؟

(١)	(٢)
دم الأسود يحتوى على أنزيم كيو	دم الأسود يحتوى على أنزيم كيو
دم النمور يحتوى على أنزيم كيو	دم الزراف يحتوى على أنزيم كيو
دم الأرانب يحتوى على أنزيم كيو	دم الأرانب يحتوى على أنزيم كيو

غالبية الغربيين الذين سألناهم هذا النوع من الأسئلة يقولون: إن النتيجة ٢ أفضل. ويعطون سببا لذلك يتمثل فى صورة نتيجة قائمة على "التنوع" أو "الشمول". ذلك أن الأسود والنمور نوعان متشابهان من نواح كثيرة، وبذا فإنهما لا يشملان كل أعضاء فئة الثدييات التى ينتمى إليها الأرنب. ومن ثم

فإن الأسود والزراف يمثلان طابعا أفضل شمولا لفئة الثدييات لأنهما مختلفان عن بعضهما. والآن لنفكر فى النتيجتين التاليتين وكلتاهما تنتهيـــان بعبـــارة "يحتوى دم الثدييات على إنزيم كيو". أيهما تبدو أكثر إقناعا لك؟

(١)	(٢)
يحتوى دم الأسود على أنزيم كيو	يحتوى دم الأسود على أنزيم كيو
يحتوى دم النمور على أنزيم كيو	يحتوى دم الزراف على أنزيم كيو
يحتوى دم الثدييات على أنزيم كيو	يحتوى دم الثدييات على أنزيم كيو

مرة أخرى يقول الغربيون: النتيجة الثانية أكثر إقناعا ويدللون على هذا بأن النتيجة الثانية تعبر عن شمول لفئة الثدييات أفضل من النتيجة الأولى.

عرضنا أنا وانكيول شوى وإدوارد إى. سميث مشكلات كهـــذه علـــى طلاب جامعيين كوريين وأمريكان. لوحظ أن الكوريين، دون الأمـــريكيين، أميل إلى تفضيل النتيجة الثانية عند ذكر الفئة ضمن النتيجة. ذلك أن الفئـــة الثديية لا تبدو فى نظر الكوريين بارزة ما لم يَجْرِ التأكيد عليها بالإشارة إليها تحديدا وبشكل عملى. ونتيجة لهذا يعتبر مبدأ التنوع أهم لاستدلالاتهم عندما نذكِّرهم صراحة وتحديدا أن الموضوعات التى يستهدفها السؤال هى ثدييات. وثمة نتيجة مرجحة بالنسبة للفئات الأقل بروزا فى نظر أبناء شـــرق آســـيا وهى أنها لا تُذْكى عند أبناء شرق آسيا فعالية الاستدلالات الاستقرائية بنفس القدر الذى تحدثه لدى الغربيين.

أن ينشأ المرء فى عالم من الموضوعات أم العلاقات :

كيف يتسنى لأبناء شرق آسيا اليوم أن يكون لديهم اهتمام قليل بالفئات، ويجدون صعوبة فى تعلم فئات جديدة عن طريق تطبيق القواعد بشأن الخصائص، ويستخدمونها تلقائيا استخداما محدودا جدا، لأغراض الاستقراء؟ لماذا يميلون أكثر كثيرا من الغربيين إلى الاهتمام بالعلاقات فى تنظيمهم للموضوعات؟ يقينا ليس السبب فقط هو أن الفلاسفة الصينيين قديما استخدموا المقولات ـ الفئات بشكل محدود جدا، وكانوا مهتمين أكثر بالعلاقات بين الجزء ـ الكل وبالتشابهات الموضوعية أكثر من الاهتمام بالتصنيفات على أساس العضو ـ المقولة أو الفئة. ونحن نشك فى القول بأن اهتمامات الفلاسفة أثرت على الأحكام الخاصة بموضوعات الحياة اليومية حتى وإن كانوا فلاسفة معاصرين. ومن ثم إذا كانت العلاقات دون المقولات ـ الفئات هى التى لها الأهمية نسبيا عند أبناء شرق آسيا اليوم، فلابد وأن هناك عوامل لا تزال تعمل وتؤثر فى التنشئة الاجتماعية للأطفال من شأنها أن تدعم مثل هذه الأساليب المختلفة فى الإدراك وفى التفكير العقلى. ولنحاول معا، قبل البحث عن هذه العوامل، أن نتأمل بعض الفوارق المهمة بين المقولات ـ الفئات وبين العلاقات.

الفئات ـ المقولات يشار إليها عادة بالأسماء. ويبدو واضحا أن الأسماء سيكون تعلمها أيسر من الأفعال بالنسبة للأطفال. إن كل ما عليك أن تفعله لتعرف أن الحيوان الذى تراه الآن هو "دب" أن تلحظ قسماته المميزة - حجم ضخم، أنياب ومخالب كبيرة، فرو كث، مظهر مثير مفزع ـ وهنا يمكنك أن تختزن هذا الموضوع فى ذاكرتك تحت هذا المسمى والوصف.

ويغدو هذا الوصف ميسورا لتطبيقه على أى موضوع آخر له هذه الخاصيات.

ولكن العلاقات، من ناحية أخرى، تشتمل صراحة أو ضمنا على فعل. إن تعلم معنى فعل متعد يتضمن عادة ملاحظة موضوعين ونوعا من النشاط يربط بين الفعلين على نحو ما. "أن ترمى" يعنى أن تستخدم ذراعك وقبضة يدك لنقل شيء ما عبر الهواء إلى موقع آخر جديد. وإن مجرد الإشارة إلى الفعل لا يضمن لامرئ ما أن يعرف ما الذى تشير إليه.

ونظرا لغموض الأفعال نسبيا يبدو من العسير تذكرها. كذلك الأفعال عرضة لتقلب معناها أكثر من الأسماء حين يتواصل شخص مع آخر، أو عندما يفسر ما قاله آخر. وتحديد معنى الأفعال أصعب من الأسماء عند ترجمتها من لغة إلى أخرى. أكثر من هذا أن معنى الأفعال، وغيرها من المصطلحات التى تصف العلاقات، يختلف أكثر مما تختلف الأسماء فى اللغات المختلفة. ويقول عالم النفس المعرفى ديدر جنتنر: "الأفعال تتصف بقدر عال من التفاعلية بينما الأسماء أميل إلى الركود وفقدان الحركة".

إذا ما سلمنا بهذه الفوارق بين الأسماء والأفعال لن ندهش كثيرا حين نعرف أن جنتنر اكتشف أن الأطفال يتعلمون الأسماء أسرع كثيرا من تعلمهم للأفعال. والحقيقة أن الأطفال الذين يحبُون يمكنهم تعلم الأسماء بمعدل اسمين فى اليوم الواحد. وهذا معدل أسرع كثيرا من معدل تعلم الأفعال.

وذهب جنتنر إلى الظن على أساس معقول تماما، أن الميزة الكبرى للأسماء ميزة عالمية كلية شاملة. ولكنها تنتهى إلى غير ذلك. إذ اكتشفت

عالمة نفس النمو تويلا تارديف وآخرون أن أطفال شـرق آسـيا يتعلمـون الأفعال بنفس معدل تعلم الأسماء، وبسرعة أكبر كثيرا من سـرعة تعلمهـم الأسماء مع بيان بعض التعريفات بشأن ما يعتبر اسما. وثمة عوامل عديـدة يمكن أن تشكل أساسا لهذا الاختلاف الواضح:

أولا: الأفعال أكثر وضوحا وبروزا فى لغات شرق آسيا منها فى اللغة الإنجليزية ولغات أوروبية أخرى كثيرة. وتنزع الأفعال فى اللغات الـصينية واليابانية والكورية إلى أن تأتى إما فى أول الجمل أو فى آخرها، وكلاهمـا موقعان واضحان نسبيا. ونلحظ فى اللغة الإنجليزية أن الفعل عـادة يكـون مختفيا وسط الجملة.

ثانيا: لعل القارئ يتذكر ما ذكرته فى الباب الثالث عـن الأب الـذى سمعته يختبر طفله بشأن صفات البنطلون. إن الآباء فى الغرب أسرى هاجس الأسماء، يشيرون بأصابعهم لتحديد الأشياء إلى أطفالهم، ويـسمونها لهـم، ويحكون لهم صفاتها. وكم يبدو غريبا فى نظر الغربيين أن أبناء شرق آسيا لا يعبئون كثيرا بتسمية الموضوع باعتبار الاسم جزءا من مهمة أحد الأبوين عند وصف شيء ما. وأذكر أن عالمتيْ علم نفس النمو آن فيرنالد وهيرومى موريكاوا دخلتا بيوتا يابانية وأمريكية بها أطفال رضع تتـراوح أعمـارهم بين ستة شهور واثنى عشر شهرا أو تسعة عشر شهرا. وطلبتا من الأمهات إبعاد لعب الأطفال عن مكان اللعب وقدمتا بدلا منها عديدا من اللعب التـى أحضرتاها معهما ــ كلب محشو وخنزير محشو وسيارة وشاحنة – وطلبتـا من الأمهات أن يلعبن باللعب مع أطفالهن كما يحدث بينهم عادة. واكتـشفتا فوارق كثيرة فى سلوك الأمهات حتى فى سلوكهن مع صغارهن. استخدمت

الأمهات الأمريكيات صفات ومسميات الأشياء ضعف استخدام الأمهات اليابانيات لها. وانهمكت الأمهات اليابانيات فى تعليم معايير الأدب ضعف اهتمام الأمهات الأمريكيات بذلك (التقمص الوجدانى، والتحيات على سبيل المثال). ولوحظ أن ثرثرة الأم الأمريكية مع طفلها تجرى على النحو التالى: "هذه سيارة. هل ترى السيارة؟ هل تحبها؟ السيارة لها عجلات جميلة." ولكن الأم اليابانية يمكن أن تقول: "هاى، هذه دوك دوك. أعطيها لك. أعطها الآن لى. نعم. شكرا". يتعلم الأطفال الأمريكيون أن العالم مكان به موضوعات وأشياء، ويتعلم الأطفال اليابانيون أن العالم فى الغالب الأعم هو علاقات.

ثالثا: نعرف أن تسمية الموضوعات التى تشترك معا فى مجموعة من الخاصيات تسفر عن تعلم فئة تتشكل من موضوعات تشترك فيما بينها من قسمات، كذلك فإن تسمية الموضوعات التى بينها قسمات مشتركة يحفز إلى الانتباه للقسمات التى تسمح لهم بتشكيل فئات جديدة مبنية على أساس مجموعات متماثلة من الخاصيات. وحدث أن عالمة نفس النمو ليندا سميث وزملاءها عهدوا وبشكل عشوائى إلى أطفال فى الشهر السابع عشر من العمر بإحدى مهمتين إما حالة ضابطة control condition أو حالة تستمر لمدة تسعة أسابيع يلعبون ويسمعون خلالها مرات ومرات أسماء لفئات موضوعات غير مألوفة ومحددة بالشكل: مثال ذلك "كأس". أدى هذا إلى أن تعلم الأطفال الذين يَحْبُون على الأرض الاهتمام بالشكل وصوغ فئات من موضوعات - حتى تلك التى رأوها خارج الوضع التجريبى - يمكن تجميعها معا على أساس بعض القسمات المحددة لها. وتمثلت النتيجة فى أن كشف الأطفال بعد تدريبهم عن زيادة درامية فى تحصيل أسماء موضوعات جديدة على مدى مرحلة الدراسة.

رابعا: يلاحظ أن الأسماء العامـــة (أى أســماء الفئــات) فـــى اللغـــة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية تتميز غالبا ببناء نحوى خـــاص. إذ عندما يتحول النقاش إلى طائر مائى يمكنك القول "بطة" أو "البطة" أو "البط" أو "بط". وتمثل الكلمة الأخيرة كلمة عامة، وهذا ما يقوله التركيب النحـــوى للجملة. وإنه لأمر لازم عادة الإبانة عما إذا كنت تتكلم عن موضوع أم عن فئة من الموضوعات، هذا على الرغم من أن السياق قد يؤدى هذه المهمـــة أحيانا. ولكن الملاحظ فى اللغة الصينية وفى غيرها من اللغات ذات الأصول الصينية أن المعايير السياقية والبرجماتية قد تكون هى الأنواع الوحيدة مـــن المعايير التى يتعين على السامع متابعتها والبناء عليهـــا. إن وجـــود بطـــة تخوض ماء بحيرة لتصل إلى الطعام، على سبيل المثال، قـــد يفيـــد معنــــى "البطة" التى يتحدث عنها المرء وليست "بطة" أو "البط" أو "بـــط". ودرســـت عالمتا نفس النمو سوزان جيلمان وتويلا تارديف أمهات يتكلمن الإنجليزيـــة وأمهات يتكلمن لغة صينية، ولحظتا أن الكلمات العامة التى ينطق بهـــا فـــى عدد من السياقات أكثر شيوعا لدى الأمهات اللاتى يتكلمن الإنجليزية.

أخيرا هناك شواهد وأدلة مباشرة على أن أطفال شرق آسيا يتعلمـــون كيف يصنفون الموضوعات فئويا فى مرحلة متأخرة عن أطفـــال الغـــرب، ودرس عالما نفس النمو واللسانيات أليسون جوبنيك وسونجا تشوى أطفـــالا يتحدثون الكورية والفرنسية والإنجليزية ابتداء من عمر سنة أو سنة ونصف. واكتشفا أن مهارات تسمية الأشياء وتصنيفها إلى فئات تتطور لدى المتحدثين بالكورية فى فترة متأخرة عن المتحـــدثين بالإنجليزيـــة والفرنـــسية. ودرس الباحثان أحكام الوسائل – الغايات (من مثل اكتشف كيف تأخذ هذه الأشـــياء

من داخل الحاوية) والتصنيف الفئوى الذى درسوه عن طريق عرض أربعة موضوعات من نوع واحد على الأطفال، وعرض أربعة من نوع آخر عليهم من مثل أربعة مربعات صفراء مستوية السطح وأربعة أشكال بشرية صغيرة. وطلبا من الأطفال ترتيبها فى شكل محدد بحيث تبدو ذات معنى ودلالة. لوحظ أن صغار الأطفال المتحدثين بالإنجليزية أو الفرنسية تحكموا فى أداء مهام الغاية ــ الوسيلة ومهام التصنيف الفئوى فى المرحلة العمرية نفسها. ولكن الأطفال الكوريين تعلموا التصنيف متأخرين ثلاثة أشهر عن تعلمهم قدرات الغاية ــ الوسيلة.

الاستعدادات والثبات والفئات:

كان الإغريق القدامى مغرمين بالمقولات - الفئات واستخدموها أساسا لاكتشاف القواعد والقوانين وتطبيقها. وكانوا كذلك يؤمنون بالثبات وفهموا كلا من العالمين الطبيعى والاجتماعى فى ضوء صفات أو استعدادات ثابتة. ولم يكن من قبيل المصادفة والتوافق العرضى، ولا هى حقائق غير ذات صلة أن الصينيين القدامى كانوا غير معنيين بالفئات، ومن ثم آمنوا بالتغير أو التحول وفهموا سلوك كل من الموضوعات الفيزيائية والاجتماعية باعتبار أنها نتيجة لتفاعل الموضوع مع مجال القوى المحيطة به.

وإذا قلنا إن العالم مكان ثابت مستقر، إذن فمن المهم أن نحاول استحداث قواعد وقوانين لفهمه ولصقل المقولات ــ الفئات التى تنطبق عليها القواعد والقوانين، ويلاحظ أن الكثير من المقولات ــ الفئات المستخدمة لفهم العالم تشير إلى صفات مفترضة للموضوع: الصلابة، البياض، الرحمة،

الخنوع. وطبيعى أن أبناء شرق آسيا يستخدمون مثل هذه الصفات أيضا ولكنهم أقل ميلا إلى تجريدها من موضوعات بذاتها. هناك بياض الحصان أو بياض الثلج فى فلسفة الصين قديما، ولكن ليس البياض كمفهوم مجرد يمكن التحدث عنه مستقلا عن شيء ويمكن تطبيقه على أى شيء آخر تقريبا. والموضوعات فى التراث الغربى لها جوهر مؤلف من مزيج متناظر من الصفات أو الكيفيات المجردة. وتهيئ هذه الجواهر إمكانية التنبؤ عن ثقة بالسلوك المستقل عن السياق. والملاحظ فى تراث شرق آسيا أن الموضوعات لها خاصيات عيانية محسوسة تتفاعل مع الظروف والملابسات البيئية لإنتاج السلوك، ولم يكن هناك أى اهتمام على الإطلاق بمناقشة الخاصيات المجردة كأن لها حقيقة واقعة غير كونها خاصية أو سمة لموضوع بذاته.

وأهم من ذلك أن استعدادات الموضوعات ليست بالضرورة شيئا ثابتا فى نظر أبناء شرق آسيا. والملاحظ فى الغرب أن الطفل ضعيف الأداء فى الرياضيات يمكن اعتبار أن قدرته فى الرياضيات ضعيفة أو ربما "معوق تعليميا". ولكن مثل هذا الطفل فى شرق آسيا يعتبرونه بحاجة إلى العمل بجدية أكثر أو ربما أن معلمه يتعين عليه أن يبذل معه جهدا أكبر، أو ربما يلزم تغيير أسلوب التعليم.

إن هاجس الاهتمام بالمقولات ـــ الفئات من نوع إما ـــ أو يستحوذ على تاريخ الفكر الغربى كله. وتطفو على السطح تقسيمات ثنائية كل قرن، وتمثل أساسا جدلاً عقيمًا لا طائل منه، مثال ذلك ثنائية "العقل ـــ الجسد" والسجالات الفكرية الدائرة حولها، ونلاحظ فى هذه السجالات أن أنصار

الثنائية يأخذون جانبا يدور حول موضوع هل من الأفضل لنا لفهم سلوك بعينه أن نفهمه باعتباره ناتجا عن العقل فى استقلال عن أى تجسيد بيولوجى. أو أن ننظر إليه باعتباره رد فعل فيزيقيًا محضًا لا تتوسطه عمليات ذهنية. كذلك السجال الدائر بشأن موضوع "الطبيعة أم التنشئة" فهو صورة أخرى لهذا الضرب من الجدل الذى كثيرا ما ولد حرارة دون ضوء ينير. وسبق أن أوضح عالم البيولوجيا التطورية ريتشارد ألكسندر أن كل مظاهر السلوك تقريبا المميزة لمرتبة الثدييات العليا إنما تحددها كل من الطبيعة والتنشئة. والحقيقة أن التقسيم الثنائى "العاطفة ـ العقل" أخفى أكثر مما كشف الحقيقة. وقال دافيد هيوم فى هذا الصدد: "العقل عبد للعاطفة وينبغى أن يظل كذلك" ويفيد أن التمايز بين الاثنين لأغراض التحليل فقط. وإن إصرار الغربيين الدائم، كما رأى البعض، على التمييز بين "بشرى" و"حيوانى" جعل من الصعوبة بمكان قبول مفهوم التطور. وهكذا نجد فى غالبية منظومات الفكر فى شرق آسيا الروح يمكن أن تأخذ شكل أى حيوان أو حتى الرب. ولم يصادف التطور ملاحاة وجدالا على الإطلاق فى شرق آسيا؛ ذلك لأنه لم يعرف افتراضا يقضى بأن البشر يعتلون قمة سلسلة الكون وأنهم بشكل أو بآخر فقدوا الطبيعة الحيوانية.

وساد اعتقاد على مدى التاريخ الفكرى الغربى يفيد أنه بالإمكان أن تحدد الشروط الضرورية والكافية لأى مقولة ـ فئة. إن المربع موضوع ذو بعدين له أربعة أضلع متساوية الطول وأربع زوايا قائمة. ومن ثم لا شىء تعوزه هذه الخاصيات يمكن أن يكون مربعا، وأى شىء له هذه الخاصيات هو تحديدا وحسب التعريف مربع. وجدير بالذكر أن لودفيج فتجنشتين فى

كتابه "بحوث فلسفية" حطم كل مشروع الضرورة والكفاية على الأرض في الغرب. كشف فتجنشتين عن اقتناعه (وربما فزعه، وهو ربما أهم الفلاسفة التحليليين في الغرب) أن إثبات الشروط الضرورية والكافية لأى مقولة معقدة أو مهمة، من مثل "لعبة" أو "حكومة" أو "مرض" لن يكون ممكنا أبدا. إن شيئا ما يمكن أن يكون لعبة حتى وإن لم يكن لهوا، حتى وإن لعبها المرء وحده، وحتى إذا كان الهدف الرئيسى منها هو كسب المال. إن شيئا ما ليس بالضرورة لعبة حتى وإن كان لهوا ودعابة أو نشاطا غير منتج شاملا عددا من الناس فى تفاعل ممتع. ولكن العظة التى يقول بها فتجنشتين لم يكن ليحتاج إليها شرق آسيا. إنهم لن ينظروا هناك فى دهشة إلى القول بأن المقولات ـــ الفئات المعقدة لا يمكن دائما وأبدا تحديدها على أساس من شروط ضرورية وكافية.

هل اللغة هى المسئولة عن هذا الدور؟

إذا سلمنا بالفوارق الموضوعية فى استعمال اللغة بين أبناء شرق آسيا والغربيين فهل يصبح بالإمكان القول إن اللغة وحدها هى الدافعة لاختلافات الميول فى تنظيم العالم فى ضوء إما الأفعال أو الأسماء؟ وهل الاكتشافات بشأن تنظيم المعرفة مردها فقط إلى حقيقة أن اللغات الغربية تشجع استخدام الأسماء الذى يفضى إلى تصنيف الموضوعات إلى فئات، وأن لغات شرق آسيا تشجع استخدام الأفعال مما يؤدى إلى التأكيد على العلاقات؟ أو لنسأل سؤالا أكثر عمومية: كم من الاختلافات المعرفية الموثقة فى هذا الكتاب هى نتيجة للغة؟

هناك فى الحقيقة عدد من التوازيات بين أنواع الفوارق المعرفية التى ناقشناها فى هذا الكتاب والفوارق بين اللغات الهند ـ أوروبية واللغات الشرق آسيوية. وهذه التوازيات مثيرة بشكل خاص للاهتمام نظرا لأن لغات شرق آسيا وبخاصة اللغتان اليابانية والصينية هى ذاتها مختلفة عن بعضها اختلافا كبيرا من نواح كثيرة. بيد أنها، مع هذا، مشتركة مع بعضها فى صفات كثيرة تمايزها عن اللغات الهند ـ أوروبية.

علاوة على الممارسات التى أسلفنا مناقشتها ـ من مثل التحديد بالإشارة والتسمية، وموضع الأفعال فى الجمل، ووصف أسماء بأنها عامة وما إلى ذلك ـ هناك وسائل عديدة تتحدد بها استعمالات اللغة على أساس الفوارق فى استعمال الفئة ـ المقولة.

إن اهتمام الغرب بالمقولات ـ الفئات يتجلى واضحا فى اللغة. إن العبارات الاسمية التى تشتمل على "اسم عام" أكثر شيوعا لدى المتكلمين بالإنجليزية منها لدى المتحدثين باللغة الصينية. ولعل سبب ذلك أن اللغات الغربية تبرز بطريقة أكثر صراحة وتحديدا ما إذا كان التفسير العام لمنطوق ما هو التفسير الصحيح. وواقع الأمر أننا لا نجد فى اللغة الصينية وسيلة تكشف لنا عن الفارق بين جملة "تأكل السناجب البندق" وجملة "هذا السنجاب يأكل حبات بندق". ولكن السياق وحده هو الذى يفيد هذه المعلومة. ويعرف الناطقون بالإنجليزية من المحددات اللسانية إذا ما كنا نتحدث عن فئة أم عن فرد.

وتشجع اللغة اليونانية وغيرها من اللغات الهند ـ أوروبية تحويل خاصيات الموضوعات إلى موضوعات واقعية بحكم ذاتها، وذلك لمجرد إضافة اللاحقة ness أو ما يعادلها. ولحظ الفيلسوف دافيد موسر أن هذه

الممارسة يمكن أن تعزز التفكير فى الخاصيات باعتبارها كيانــات مجــردة يمكن أن تؤدى دور التفسيرات النظرية. ورأى أفلاطون أن هذه المجــردات لها واقعية أكبر من خاصيات الموضوعات فى العالم الفيزيقى. ولم تعــرف الفلسفة الصينية أبدا هذه الدرجة من التفكير النظرى بشأن المجردات.

وتتسم لغات شرق آسيا بأنها "سياقية" بدرجة كبيرة. إذ إن الكلمات أو "الفونيمات"، أى الوحدات الصوتية اللغوية، لها معان عديدة، ومن ثم يستلزم فهمها وضع سياق الجمل فى الاعتبار. ولكن الكلمات الإنجليزيــة متمــايزة نسبيا، هذا علاوة على أن المتحدثين بالإنجليزية معنيــون بالتأكــد مــن أن الكلمات والعبارات المنطوقة بحاجة إلى أقل قدر من السياق. وأوضح عــالم الأنثروبولوجيا اللسانية شيرلى برايس أن الآباء والأمهات الأمــريكيين مــن الطبقة الوسطى يحاولون عن عمد إخراج اللغة من سياقها قدر المستطاع عند الحديث إلى أطفالهم. إنهم يحاولون جعل الكلمات مفهومة فى استقلال عــن سياق الأفعال، وجعل العبارات المنطوقة مفهومة فى استقلال عــن الــسياق الموقفى لها. مثال ذلك حين يقرأ أب لطفله عن كلب نجد الأب ربما يــسأل طفله عن ماهية هذا الحيوان (بوبى ... هذا صحيح) ومن عنده كلب (نعــم جون عنده كلب). وهكذا يجرى فصل الكلمة عن سياقها الطبيعى الذى تحدث فيه وربطها بسياقات أخرى حيث يكون للكلمة المعنى ذاته.

وتلزم اللغات الغربية المتكلمين بها الاهتمام بالموضوعات المحوريــة التى تحتل البؤرة مقابل السياق. إن اللغة الإنجليزية لغة "تبرز الفاعل" إذ لابد وأن يكون هناك فاعل حتى ولو فى جملــة مثــل "إنهــا تمطــر". ولكــن اللغات الصينية واليابانية والكورية على العكــس مــن هــذا، هــى لغــات

"تبرز الموضوع". ذلك أن الجمل لها وضعها، هو تحديدا الوضع الأول الذى يتعين ملؤه بالموضوع الراهن: "هـذا المكـان، التزحلـق جيـد". وجـدير بالملاحظة أن هذه الحقيقة تطرح تفسيرا بديلا على أساس اكتشافنا، بعـد أن رأينا المشاهَد تحت سطح الماء، أن الأمريكيين يبدءون بوصف موضوع ما (هناك سمكة ضخمة، ربما تكون من نوع التروت تتحرك بعيدا تجاه اليسار). هذا بينما يبدأ اليابانيون بتحديد السياق ("يشبه غديرا"). وإذا كان مـن غيـر الملزم حسب قواعد النحو إلا أن الجملة اليابانية الاصطلاحية تبدأ بالـسياق بدلا من القفز مباشرة إلى الفاعل كما هو الحال مرارا فى الإنجليزية.

يرى الغربيون أن الذات هى صانعة الفعل، ويرى أبناء شـرق آسـيا الفعل شيئا يجرى النهوض به فى تضافر وتنسيق مع الآخرين، أو لنقل إنـه نتيجة الذات النشطة وسط مجال من القوى. وتكـشف اللغـات عـن هـذا الاختلاف فى نوع الفعالية. وحرى أن نتذكر أن هناك كلمات كثيرة للدلالـة على "أنا" فى اليابانية وكذا (فى الماضى على أية حال) فى اللغة الـصينية، وتعكس هذه الكلمات العلاقة بين الذات والآخر. وهكذا نجد "أنا" فى علاقـة مع زميلى، و"أنا" فى علاقة مع زوجتى أو زوجى ... وهلم جرا. وعـسير على اليابانى أن يفكر فى خصائص تصدق على "نفسى"، ولكن ما أيـسر أن يفكروا فى خصائص تصدق على أنفسهم فى أوضاع معينة وفى علاقتهم مع ناس محددين. ويعكس النحو اللغوى حسا مختلفا عن كيفية صدور الفعل. إن غالبية اللغات الغربية هى لغات "ذاتية الفاعلية agentic" بمعنى أن اللغة تنقل ما يفيد أن الذات عملت وأثرت فى العالم: "أسقطها" (باسـتثناء الأسـبانية). ولكن اللغات الشرق آسيوية بوجـه عـام ونـسبيا "غيـر ذاتيـة الفاعليـة non agentic": "سقطت منه" أو فقط "سقطت".

وثمة فارق فى ممارسة اللغة يصيب كلا من متحدثى الصينية والإنجليزية بالذهول حين يسمعون كيف يتناوله ويعبر عنه الفريق الآخر منهما. ويتمثل هذا فى الطريقة الصحيحة لسؤال شخص ما عما إذا كان يريد أن يشرب مزيدا من الشاى. إذ يكون السؤال فى الصينية: "تشرب مزيدا؟" ولكن فى الإنجليزية: "مزيد من الشاى؟". الأمر غاية فى الوضوح بالنسبة للمتحدثين الصينيين إذ إن الحديث منصبّ على الشاى وإمكانية المزيد منه. لذلك فإن ذكر كلمة الشاى ضرب من التزيد وعدم الاقتصاد فى اللغة. ولكن بالنسبة للمتحدثين بالإنجليزية واضح تماما أن المرء يتحدث عن شرب الشاى مقابل أى نشاط آخر يمكن أن يؤديه المرء، لذلك من الغريب أن يتضمن السؤال إشارة إلى الشرب.

وذهب عالما الأنثروبولوجيا اللسانية ادوارد سابير وبنيامين وورف إلى أن عمليات التفكير المعتادة لدى الناس تعكس فوارق البنية اللسانية بين اللغات. وصادف هذا الفرض قبولا ورفضا وجدلا بين علماء اللسانيات وعلماء النفس على مدى عقود. ولكنه الآن يعيش أزهى فتراته التى يحظى فيها بقبول عام. وجدير بالإشارة هنا أن بعض شواهدنا وبراهيننا بشأن اللغة والتفكير مردها مباشرة إلى فرض سابير – وورف.

وحَرِىٌّ أن نتذكر أن لى – جون جى وجيونج جانج وأنا درسنا موضوع ما إذا كانت اللغة من حيث هى تؤثر فى أسلوب الناس فى تصنيف الموضوعات إلى فئات. ووصولا إلى هذا قدمنا ثلاثيات مكتوبة تشمل ثلاث كلمات (مثل الباندا والقرد والموز) إلى طلاب جامعيين صينيين وأمريكيين وطلبنا منهم بيان أى اثنتين من هذه الثلاث أقرب إلى بعضهما. وكان الطلاب

الصينيون إما مقيمين فى الولايات المتحدة أو فى الصين. وجرى تطبيق الاختبار عليهم إما باللغة الإنجليزية أو الصينية.

إذا كان فرض سابير ـ وورف صحيحا إذن لابد أن يظهر فارق من حيث اللغة التى نختبر بها الصينى ثنائى اللغة، أى الذى يتحدث لغتين فى أمريكا. وتوقعنا فى هذه الحالة أنه من المرجح أن يفضل الصينيون العلاقات (القرد والموز) باعتبارها أساس للتجميع عند اختبارهم باللغة الصينية. وتوقعنا كذلك أن الأرجح أن يفضلوا التصنيف على أساس الفئة (الباندا والقرد) عند اختبارهم باللغة الإنجليزية، ولكن هناك طرق مختلفة يكون بها المرء ثنائى اللغة. إن علماء نفس اللسانيات يمايزون بين ما يسمونه "ثنائيو اللغة النظيرية coordinate bilinguals وثنائيو اللغة الدمجية compound bilinguals". وثنائيو اللغة النظيرية هم من يتعلمون لغة ثانية فى مرحلة متأخرة نسبيا من حياتهم ويكون استعمالهم لها قاصرا على عدد محدود من السياقات. ومن المفترض أن التصورات الذهنية عن العالم عند هؤلاء يمكن أن تختلف من لغة عن اللغة الأخرى. ولكن ثنائيى اللغة الدمجية هم من تعلموا لغة ثانية فى مرحلة مبكرة من حياتهم ويستخدمونها فى سياقات كثيرة. وتكون التصورات الذهنية عن العالم لدى هؤلاء متلاحمة ما دامت اللغتان لا تستعملان لأداء وظائف مختلفة أو يجرى استعمالهما حصرا فى مواقف مختلفة. ولنا أن نتوقع أن يكون أبناء الصين وتايوان ثنائيى اللغة النظيرية لأنهم يتعلمون الإنجليزية فى فترة متأخرة نسبيا، علاوة على أن استعمالها قاصر تقريبا على السياقات المدرسية الشكلية. ولكن أبناء هونج كونج وسنغافورة سيكونون على الأرجح ثنائيى اللغة الدمجية لأنهم يتعلمون

الإنجليزية فى فترة مبكرة نسبيا ويستخدمونها فى سياقات أكثر. هذا علاوة على أن هذين المجتمعين، خاصة هونج كونج، اكتسبا صفات وثقافات غربية إلى حد كبير.

وإذا كانت اللغة هى سبب الاختلاف فى فهم العالم نظرا لأن اللغات المختلفة هى أساس التصورات الذهنية المختلفة، إذن لنا أن نتوقع دعما يعزز فرض سابير — وورف. إذ هنا سنجد ثنائيى اللغة النظيرية سيعمدون، على الأقل، إلى تجميع الكلمات على نحو مختلف عند اختبارهم باللغة الصينية عن تجميعهم للكلمات عند اختبارهم باللغة الإنجليزية. وإذا كانت اللغة هى سبب الاختلاف نظرا لأن القسمات البنائية للغة تفرض عمليات تفكير مختلفة، إذن لنا أن نتوقع حتى من ثنائيى اللغة الدمجية تجميع الكلمات بطريقتين مختلفتين عند اختبارهم باللغة الصينية ثم بالإنجليزية. وطبيعى أنه إذا لم تكن اللغة ذات شأن ودور أساسيين لأداء المهام المعرفية من مثل عملية التجميع التى ذكرناها، إذن لنا أن لا نتوقع أى أثر للغة فى أى من عمليتى التجميع السابقتين.

لن نجد نتائج أوضح من ذلك. أولا: توجد فوارق واضحة بين الأمريكيين الأوروبيين الذين اختبرناهم باللغة الإنجليزية وبين النظائريين المتحدثين بالصينية الذين اختبرناهم باللغة الصينية سواء فى الصين أم فى الولايات المتحدة. كان ميل الأمريكيين إلى التجميع على أساس التصنيف الفئوى ضعف ميلهم إلى التجميع على أساس العلاقات. كذلك بالنسبة للصينيين فى الصين الأم أو فى تايوان الذين اختبرناهم بلغتهم الوطنية إذ كان ميلهم إلى التجميع على أساس العلاقات ضعف ميلهم إلى التجميع على

أساس التصنيف الفئوى. وصدق هذا سواء اختبرناهم فى بلادهم أو فى الولايات المتحدة. ثانيا: أحدثت لغة الاختبار فارقا كبيرا بالنسبة للصينيين من أبناء تايوان أو الصين الأم. إذ عندما اختبرناهم بالإنجليزية كانوا أقل ميلا إلى التجميع على أساس العلاقات. وهكذا يظهر جليا أن الإنجليزية تدعم أسلوبا فى تصور العالم مختلفا عن الصينية بالنسبة لهؤلاء المشاركين.

ولكن الأمر اختلف تماما بالنسبة لثنائيى اللغة الدمجية من أبناء هونج كونج وسنغافورة. أولا تحولت عمليات التجميع عندهم تحولا موضوعيا فى الاتجاه الغربى: كانوا لا يزالون معتمدين على العلاقات أكثر من اعتمادهم على التصنيف الفئوى. ولكن تفضيلهم لهذا أضعف كثيرا من تفضيل ثنائيى اللغة النظيرية المتحدثين بالصينية من أبناء الصين الأم وتايوان. وأهم من ذلك لم يظهر أى فارق تحديدا بالنسبة لثنائيى اللغة الدمجية سواء أدوا الاختبار بالصينية أو بالإنجليزية.

النتائج هنا واضحة الدلالة. الثقافة لها تأثيرها على الفكر فى استقلال عن اللغة. ونحن نعرف هذا لأن كلا من المتحدثين بالصينية من ثنائيى اللغة النظيرية وثنائيى اللغة الدمجية جمعوا الكلمات على نحو مختلف عن الأمريكيين بغض النظر عن لغة الاختبار. كذلك فإن الفوارق بين المتحدثين النظائريين والدمجيين يشير إلى اختلاف ثقافى مستقل عن اللغة. إن المتحدثين الدمجيين من أبناء الأقاليم المتغربة، أى التى اكتسبت ثقافة غربية، تحولوا إلى اتجاه غربى، وبالدرجة نفسها بغض النظر عن لغة الاختبار. وهناك أيضا تأثير واضح للغة مستقل عن الثقافة، ولكن فقط بالنسبة للمتحدثين النظائريين من الصين وتايوان. إذ إنهم يجيبون إجابتين مختلفتين تماما على أساس لغة الاختبار هل هى الصينية أم الإنجليزية.

وثمة إجابة مبدئية على سؤال سابير – وورف من حيث علاقته بموضوعنا فى هذا الكتاب. وحرى أن تظل مبدئية للغاية لأننا فقط كنا نناقش دراستين تتناولان نوعا واحدا للعملية الذهنية. والإجابة هى أن اللغة تؤثر بالفعل فى الفكر ما دامت اللغات المختلفة تقترن على نحو معقول وظاهر بمنظومات تصورية مختلفة.

إننا إزاء دليل واضح على أن أبناء شرق آسيا يرون العالم فى ضوء العلاقات أكثر مما يراه الغربيون، الذين ينزعون أكثر من أبناء شرق آسيا إلى أن يروا العالم فى ضوء موضوعات استاتيكية يمكن تجميعها فى صورة فئات. ولا ريب فى أن ممارسات تربية وتنشئة الأطفال لها دورها فى توليد هذه الرؤى المختلفة أشد الاختلاف. إن أطفال شرق آسيا يتوجه انتباههم، بفضل التربية، إلى العلاقات، بينما يتوجه انتباه أطفال الغرب إلى الموضوعات والفئات التى تنتمى إليها هذه الموضوعات. وثمة احتمال بأن اللغة لها دورها، الذى يتمثل على الأقل فى المساعدة على تركيز الانتباه، وربما تسهم أيضا فى تثبيت التوجهين المختلفين على مدى حياة المرء. ويبدو فى ظاهر الأمر أنه لا دور لبناء اللغة، هذا على الرغم من أنه عمليا يفترض أن يكون العرض فى ضوء إحدى اثنتين إما الفئات وإما العلاقات.

وجدير بالذكر، كما سوف نرى فى ما يلى، أن النهجين المختلفين تماما فى فهم العالم لا ينتهيان مع مهمة تنظيم المعرفة. إن نهج الغربيين فى التأكيد على الموضوع وتجريده من السياق، ونهج أبناء شرق آسيا فى التكامل والدمج والتركيز على العلاقات، يفضيان بكل فريق إلى أسلوب مختلف أشد الاختلاف فى الاستدلال العقلى.

الباب السابع

"هذا ليس منطقا"
أم "أنت حققت فوزا فى هذه النقطة"؟

الفارق المذهل أكثر من سواه بين تراثين يحتلان طرفى العالم المتحضر هو قدر المنطق ومصيره. إذ ظل المنطق عند الغرب محوريا ولم ينقطع أبدا الخيط الممتد لرسالته.

الفيلسوف آنجوس جراهام

أن يكون العقل الصينى مغرقا فى بنيته العقلية هو تحديدا السبب فى رفضه لأن يصبح عقلانى النهج .... وفصل الشكل عن المحتوى.

الفيلسوف شو ـ هسيين ليو

ظل هدف التعليم الكلاسيكى الصينى دائما تنشئة إنسان معقول فى تفكيره كنموذج للثقافة. إذ حرىٌّ بالإنسان المتعلم أن يكون أولا وقبل كل شىء كائنا مفكرا معقولا يتميز دائما بحسه المشترك وحبه للاعتدال وضبط النفس، وكراهيته للنظريات المجردة ومظانّ التطرف المنطقى.

الناقد الأدبى لين يوتانج

المحاجاة التزاما بالاتساق المنطقى .... يمكن أن لا تكون مثيرة للاستياء فحسب بل والنظر إليها باعتبارها أمرا فجّا.

عالم الأنثروبولوجيا ثوبوهيرو ناجاشيما

كم هو عسير على الغربى أن يفهم أن شرق آسيا شهدت حركتين فقط قصيرتى العمر وضعيفتى التأثير، اشتركتا فى روح البحث المنطقــى التــى ظلت دائما شائعة ومشتركة فى الغرب. هاتان الحركتان هما ال مــنج جيــا وتعنى المناطقة والموهيين أو أتباع مو ــ تسو. وتنتميان معا إلــى الفتــرة الكلاسيكية القديمة. حقق المناطقة فى الواقع تقدما ضئيلا فى اتجاه المنطــق الشكلى إذ كانوا مهتمين بالمعرفة من أجل المعرفة، على عكس جميع التقاليد الأخرى فى تراث الفلسفة الصينية. وتضمن تراث مو ــ تــسو اهتمامــات منطقية عديدة من أبرزها أفكار عن الشروط الضرورية والكافية ومبدأ عدم التناقض وقانون الوسط المرفوع. ولكن على الرغم من هذا قصرت جهــود الموهيين عن انتاج مذهب محكم صارم للاستدلال المنطقى. أكثر من هذا أنه على الرغم مما أحرزه أتباع مو ــ تسو من تقدم فى مجال الهندسة إلا أنهــم لم يصوغوها فى الصورة الغربية، ولم يستحدثوا مجموعــة مــن المبــادئ التأسيسية التى تهيئ إمكانية لاستنباط حلول على أساس منطقى.

وأفضل تفسير لاهتمام الإغريق بالمنطق هو أنهم أدركوا فائدتــه فــى المحاجاة. لذلك يبدو أنه ليس من المصادفة فى شىء أن مو ــ تسو كان معنيــا بالمنطق، كما آمن فى الوقت نفسه بأن المحاجاة ذات قيمة كبيــرة لتوضــيح القضايا وللمساعدة فى التمييز بين الصواب والخطأ. وأراد مو ــ تسو تطوير سبل لتعظيم الخير العام إلى أقصى حد. وطور بالفعل صيغة عامة مبدئيــة

لتحليل التكلفة والعائد cost-benefit analysis، ووضعته هذه الحقائق أقرب ما يكون إلى روح الفلسفة الغربية الحديثة عنه إلى الفلسفة الإغريقية القديمة. بيد أنه وعلى الرغم من هذه المظاهر التى يتصف بها جهده ظل محتفظا بتوجه شرق آسيوى. ذلك أنه شأن الفلاسفة الصينيين الآخرين لم يمايز بين صدق القضية ومفادها الأخلاقى. وهذا وضع قاتل للمنطق مهما كانت آثاره على علم الأخلاق.

ومع حلول الألفية الأولى من التقويم الميلادى لم تكن قد ظهرت بعد أى آثار لنهج منطقى فى فهم العالم. وإنما نجد بدلا عن هذا ثقة فى الانطباعات الحسية وفى الحس المشترك. ولم تظهر على الإطلاق، حتى بين المناطقة وأتباع مو ـــ تسو رغبة فى قبول الحجج التى [illegible] ى الخبرة، هذا على عكس الإغريق الذين اعتادوا أن يبتهجوا أحيانا لأفكار شواهد وبرهان الحواس. وظل الصينيون، كما سوف نرى، أكثر التزاما بالمعقولية دون العقل.

المنطق أم الخبرة؟

ارتبط نقص الاهتمام بالمنطق فى شرق آسيا ارتباطا عضويا بالشك فى تجريد الموضوع من السياق، أى الشك فى التفكير فى بنية حجة ما بمعزل عن محتواها، كما ارتبط بالنفور من الاستدلال على أساس القضايا المجردة وحدها. وثمة دراستان أجريتهما أنا وتورنزايان وادوارد إى. سميث وبيوم جون كيم. وتوضح هاتان الدراستان كيف أن هذا لا يزال صحيحا بالنسبة للإنسان العام فى شرق آسيا فى القرن الواحد والعشرين.

ليحاول القارئ أن يفكر فى الحجتين القياسيتين التاليتين. هل إحـــداهما أكثر إقناعا من الأخرى؟

كل الطيور لها شرايين زندية.

لذلك كل النسور لها شرايين زندية.

كل الطيور لها شرايين زندية.

لذلك كل طيور البنجوين لها شرايين زندية.

(لا حاجة إلى أن يعرف القارئ ما هو الشريان الزندى. إنه فى الواقع خاصية "فارغة" ومستخدمة بحيث لا تتطفل المعرفة بالعالم الـــواقعى علـــى عملية تقييم لحجة قياسية).

إحدى سبل قياس مدى اعتماد الناس تلقائيا على المنطق الـــشكلى دون المعرفة الخبرية فى التفكير هى دراسة كيف تعطى هذه فكرة صحيحة عـــن الخصائص ــ بشأن "الشرايين الزندية" فى المثال الـــسابق ــ ابتـــداء مـــن المقولات الكبرى أو الأولية (الطيور) وصولا إلى المقـــولات الـــصغرى أو الثانوية (النسور والبنجوين). وحرى أن يلحظ القـــارئ أن الحجتـــين لهمـــا مقدمتان متطابقتان غير أن النتيجتين تتباينان من حيث تحديد نوعية الطـــائر الهدف. إن النسور طيور أكثر نموذجية من البنجوين. وإذا ما كنا بصدد نمط منطقى صرف عند تقييمنا لقضايا مثل تلك التى أسلفناها، فإننا سوف نضيف لكل حجة المقدمة الوسطى الضمنية الخاصة بها (كل النسور طيـــور، وكـــل البنجوين طيور). وواضح أن من يفعلون هذا من الناس سيجدون الحجتـــين متكافئتين من حيث الإقناع. ولكن الناس غالبا ما يجدون الحجج الدالة علـــى

حالات نموذجية أكثر إقناعا من الحجج الدالة على حالات شاذة وغير قياسية. إن الخبرة السابقة تجعلهم أكثر قبولا لننظر إلى النسور باعتبارها طيورًا عن اعتبار أنواع البنجوين طيورا.

وطلبنا من مشاركين كوريين وأمريكيين آسيويين وأمريكيين أوروبيين أن يقيِّموا ما يستشعرونه من قناعة فى عشرين حجة من هذا النوع، عشرة منها تشتمل نتيجتها على أهداف قياسية من مثل النسور وعشرة أخرى تشتمل على أهداف لا قياسية من مثل البنجوين. ووجدنا أن الكوريين أكثر اقتناعا بالحجج القياسية عن الحجج غير القياسية. ولكن الأمريكيين الأوروبيين على العكس إذ كانوا شبه مقتنعين بالحجج القياسية وغير القياسية على السواء. هذا بينما احتلت إجابات الأمريكيين الآسيويين مكانا وسطا بين إجابات الأمريكيين الأوروبيين والكوريين.

ولنفكر معا فى الحجج التالية. أيها تبدو لك صحيحة منطقيا؟

مقدمة أولى: لا يوجد كلب بوليسى عجوز.

مقدمة ثانية: بعض الكلاب المدربة تدريبا عاليا عجوزة.

النتيجة: بعض الكلاب عالية التدريب ليست كلابا بوليسية.

مقدمة أولى: كل ما هو مصنوع من نباتات مفيد للصحة.

مقدمة ثانية: السجائر مصنوعة من نباتات.

النتيجة: السجائر مفيدة للصحة.

مقدمة أولى: لا أ هى ب.

مقدمة ثانية: بعض ج هو ب.

النتيجة: بعض ج ليس أ.

الحجة الأولى تفيد معنى وذات نتيجة مقبولة. والحجة الثانية ذات معنى ولكن نتيجتها غير مستساغة. والحجة الثالثة مغرقة فى التجريد بحيث لا معنى لها على الإطلاق. بيد أن جميع الحجج الثلاثة صواب منطقيا.

ويكون الناس على الأرجح فى جانب الصواب فى أحكامهم بشأن الصواب المنطقى للحجج حين تكون الحجة ذات معنى ونتيجتها مقبولة. ويكونون بعيدين عن الصواب المؤكد حين تكون الحجة ذات معنى ونتيجتها غير مقبولة عقلا. وحدث أن عرضنا على طلاب جامعيين كوريين وأمريكيين حججا هى إما صواب أو غير صواب ولها نتائج إما مقبولة أو غير مقبولة. وطلبنا منهم تقييم ما إذا كانت نتيجة كل منها لازمة منطقيا عن مقدمات كل حجة أم لا. ودرسنا أربعة نماذج للقياس تتراوح بين أبسطها [إذا كانت أ هى ب، وب هى ج، إذن أ هى ج، وحتى البنية الصعبة من طراز المثال الثالث الذى أسلفناه.

لوحظ أن كلا من الكوريين والأمريكيين كانوا أميل إلى وضع القياسات ذات النتائج المقبولة فى خانة الصواب. ولكن، كما توقعنا كان الكوريون أكثر تأثرا من الأمريكيين بمدى المقبولية والاستساغة العقلية. ولا مشاحَّةَ فى أن هذا الفارق يرجع إلى أن المشاركين الكوريين أقل قدرة من المشاركين الأمريكيين على أداء العمليات المنطقية. وتساوت أخطاء المشاركين

الأمريكيين والكوريين فيما يتعلق بالقياس المجرد المحض. ويبدو أن الفارق بين المجموعتين هو أن الأمريكيين أكثر ألفة من الكوريين مع تطبيق القواعد المنطقية، ولهذا فهم أقدر على إغفال عنصر الاستساغة فى النتائج.

إذن أبناء شرق آسيا أميل إلى أن يطرحوا المنطق جانبا لصالح الالتزام بمدى تطابق النتائج مع النموذج ومدى استساغتها. وهم أيضا أميل إلى طرح المنطق جانبا لصالح مدى استصواب النتيجة رغبة فيها.

وأوضح وليام ماك جوير أن الناس إذا ما طُلب منهم الحكم على احتمالية أحداث ما ذات علاقة منطقية ببعضها بعضا، نلحظ أن أحكامهم القائمة على الاحتمال تتحرك فى تساوق مع بعضها بحيث تؤدى إلى زيادة التلاحم المنطقى للمعتقدات ككل. مثال ذلك: سأل ماك جوير المشاركين إلى أى مدى يرون أنه من المرجح: (أ) سيحدث جفاف هذا العام. (ب) الجفاف يعنى تلوث الشواطئ بسبب عدم توفر مياه المطر التى تخفف منه. (ج) إذا تلوثت الشواطئ سوف تغلقها السلطات (د) الشواطئ ستغلق. ووجد ماك جور أنه بمرور الوقت زاد الاتساق المنطقى بين معتقدات الناس بشأن القضايا ذات الصلة. وترجع الزيادة إلى مطالبتهم بالتفكير فى مدى رجحان صدق ما قالوا. ولوحظ أنه بعد مرور أسبوعين على إصدار تقييماتهم لعدد من البنود المماثلة لما ذكرناه آنفا أصبحت الاحتمالات التى ذكرها المشاركون بالنسبة للقضايا المختلفة أكثر توافقا مع الشروط المنطقية مما كانت أولا، أى قبل أن يتوفر لهم الوقت للتفكير فيها. وهكذا فعلى الرغم من أن الناس لا تريد إغلاق الشواطئ إلا أنهم بعد التفكير فى ذلك لفترة من الوقت وعلاقة هذا بالقضايا الأخرى المرجحة أكثر من سواها، والتى تفيد

بشكل مباشر أو غير مباشر بأن الشواطئ سيجرى غلقها، هنا أصبح النـــاس أكثر تشاؤما فيما يتعلق بخططهم الصيفية على شاطئ البحر.

وظن أرا نورنزايان وبيوم جون كيم أن أبناء شرق آسيا سيكونون أقل ميلا إلى أن تأخذ معتقداتهم وجهة غير سارة عن طريق التفكير مليّــا فـــى معلومات تنطوى على احتمالات حدوث نتائج غير مرغوب فيها؛ بـسبب أن أبناء شرق آسيا لا يألفون كثيرا تطبيق المنطق على أحداث الحياة اليوميـــة. وإنهم لهذا السبب ربما يكون بوسعهم التشبث بمعتقــدات تنـــاهض القــضايا الأخرى التى طلب الباحثون منهم التفكير فيها. لهذا أعطوا طلابـــا كـــوريين وأمريكيين قضايا ذات علاقة منطقية ببعضها بعضا. ولكنهم خلطوهـــا مـــع قضايا أخرى كثيرة بحيث لم يكن من المرجح أن يدرك المشاركون أنه تـــم اختبار مدى الاتساق فى أحكامهم عن الاحتمال. وتناثرت داخل الاســـتبيان، على سبيل المثال، قضايا مثل ما يلى:

أسعار الغداء فى الخارج ستزداد.

إذا أدى فرض قوانين صحية أكثر صرامة على

المطاعم إلى زيادة كلفة تشغيل عمال جدد،

فإن ثمن الغداء فى الخارج سيرتفع.

إن فرض قوانين صحية أكثر صرامة على المطاعم

سيؤدى إلى زيادة كلفة تشغيل عمال جدد.

كانت بعض القضايا موجبة: من مثل "سيكون بوسع عدد أكبر من الفقراء الحصول على طعام كاف لبقائهم فى حالة صحية جيدة". وثمة قضايا أخرى مثل تلك التى ذكرناها عن زيادة كلفة الغداء خارج البيت كانت لا تستهوى قارئها. وسأل كيم ونورنزايان المشاركين فى وقتين مختلفين عن الاحتمالات التى وضعوها لمختلف القضايا: أى فور قراءتهم لكل قضية ثم بعد مرور بضع دقائق عقب انتهائهم من قراءة جميع القضايا.

وكشفت معتقدات المشاركين الكوريين والأمريكان عن اتساق متعادل عند اختبارهم فى المرة الأولى. كذلك كان الاتساق بين الفريقين متعادلا ـ وبمعدل أكبر بالنسبة للفريقين ـ خلال المرة الثانية بالنسبة للقضايا الموجبة. بيد أن الأمريكيين قطعوا شوطا أبعد فى اتجاه الاتساق بالنسبة، للقضايا السالبة، وهو ما لم يحدث بالنسبة للكوريين. وبات واضحا أن الدفعة المنطقية حين بلغت غاية منشودة، كانت الدلالات المنطقية لبعض المعتقدات بالنسبة لغيرها أقل قابلية للتأثير فى أحكام الاحتمالات للكوريين عنها للأمريكيين.

إما ـ أو مقابل كلا من ـ و :

أى مجموعة من مجموعتى الحكم والأمثال التاليتين تستهويك أكثر من الأخرى: الثلاثة الأولى أم الثلاثة التالية؟

نصف رغيف أفضل من لا شىء.

واحد ضد الجميع مآله السقوط يقينا.

"على سبيل المثال" ليست برهانا.

التواضع الشديد نصف كبرياء.

الحذر من الأصدقاء أما الأعداء فلا.

الإنسان أقوى من الحديد وأضعف من ذبابة.

تعبر المجموعة الثانية من الحكم عن تناقض واضح: التواضع ليس كبرياء، والأصدقاء ما هم إلا نوع الشخص الذى لا يلزم الحذر منه. ولكن المجموعة الأولى يمكن أو لا يمكن أن تبدو غاية فى البلاغة ولكن ليس من بينها ما ينطوى على تناقض. ووجدت أنا وكايبنج بنج أن الطراز الثانى من الحكم والأمثال هو الأكثر شيوعا فى المعجم الصينى للحكم والأمثال عنه فى مجموعة أمريكية. وعندما طلبنا من مجموعة من الطلاب بجامعة ميتشيجان وجامعة بكين أن يحددوا درجات لمدى إعجابهم بالحكم والأمثال وجدنا أن الطلاب الصينيين يفضلون الحكم والأمثال التى تنطوى على تناقضات، بينما فضل الأمريكيون الحكم والأمثال التى لا تشتمل على تناقض. ورغبة منا فى التأكد من أن الفوارق ليست ناجمة عن الألفة مع الحكم والأمثال أجرينا دراسة أخرى استخدمنا فيها حكما وأمثالا باللغة البيدية[١] التى هى فرع من الألمانية. وحصلنا على نتائج مماثلة: الأمريكيون والصينيون مغرمون بقدر متساو بالحكم والأمثال التى لا تحمل تناقضا، ولكن الصينيين استهوتهم الحكم والأمثال التى تحمل تناقضا أكثر مما هو الحال بالنسبة للأمريكيين. (ها هنا وللمرة الثانية نجد تماثلا بين تراث الشرق الأقصى وتراث الشرق الأدنى: حيث إن الحكم والأمثال باللهجة البيدية مثلها مثل الصينية زاخرة بالتناقضات).

---

(١) لغة مشتقة من لهجات ألمانية قديمة مع مفردات مأخوذة من العبرية والسلافية، وسادت بين طوائف يهود شرق أوروبا (المترجم).

وجدير بالذكر أن أسباب هذه الاختلافات فى تفضيل التناقض أسباب عميقة. إذ يوجد فى فكر شرق آسيا أسلوب للتفكير العقلى يرجع تاريخه إلى الصين قديما وكان يسمى التفكير الجدلى. ويعنى هذا أنه يركز على المتناقضين وكيفية حسمهما أو التعالى عليهما أو كشف الصدق فى كل منهما. ونستطيع أن نعرض فيما يلى ثلاثة مبادئ مهمة للجدل والتى حدد معالمها كايبنج بنج، وإن كنا نخاطر بأن نقول شططا بشأن روح الجدل الذى لا يلجأ إلى قواعد تفكير عقلانى إنها جامدة أو راسخة ثابتة.

مبدأ التغير: يؤكد تراث الفكر الشرق آسيوى التحول الدائم المطرد لطبيعة الواقع. العالم ليس فى حالة ثبات "استاتيكى" بل دينامى ومتحول أبدا. وإذا بدا لنا فى حالة بذاتها فليس ذلك سوى علامة على أن هذا الوضع بسبيله إلى التحول. ونظرا لأن الواقع فى حالة فيض دائم فإن المفاهيم التى تعكس الواقع تتسم بالسيولة والذاتية أكثر من كونها ثابتة وموضوعية.

مبدأ التناقض: نظرا لأن العالم فى تحول مطرد فإن هذا يخلق باستمرار أضدادا ومفارقات ومظاهر شذوذ. القديم والجديد، الخير والشر، القوى والضعيف، جميعها موجودة فى كل شيء. والحقيقة أن الأضداد يُتمم بعضها بعضا وتتراكب وتتكامل. ويرى الطاويون جانبى أى تناقض ظاهرى قائما فى حالة تناغم نشط، نعم تتعارض ولكنها تترابط، وتحكم بعضها بعضا. الطاو نتصوره معا الموجود وغير الموجود. وأوضح هذا لاو تسو مؤسس المدرسة الطاوية: "حين يعرف كل الناس فى العالم الجمال من حيث هو جمال، هنا يظهر الاعتراف بالقبح. وحين يعرفون جميعا الخير من حيث هو خير، يظهر أنذاك الاعتراف بالشر. وهكذا الوجود واللاوجود يُنتج

أحدهما الآخر ....". أو ما قاله ماو تسى تونج الذى حكم الصين زمنا طويلا ورأى فى نفسه فيلسوفا وشاعرا وسياسيا ومحاربا فى آن واحد؛ إذ قال: ".... نجد من ناحية أن الأضداد تناقض بعضها بعضا وهى من ناحية أخرى مترابطة فيما بينها، نافذة إلى داخل بعضها بعضا، متغلغلة فيما بينها ومعتمدة على بعضها بعضا، وهذه هى الخاصية التى نصفها بالهوية".

مبدأ العلاقة أو الكلية: نتيجة للتغير والتضاد لا يوجد شىء منعزلا مستقلا عن سواه بل مترابط بكم هائل من الأشياء المختلفة. إننا لكى نعرف شيئا ما على حقيقته يتعين علينا أن نعرف كل علاقاته، إنه مثل النغم الموسيقى المفرد ثاو فى اللحن العام.

ويلاحظ أن المبادئ الثلاثة للتفكير الجدلى مترابطة. التغير ينتج التناقض، والتناقض علة التغير. والتغير والتناقض الدائبان يفيدان بأن لا معنى لأن نناقش الجزء المفرد دون أن نفكر فى علاقاته بالأجزاء الأخرى وبالحالات السابقة. وتفيد المبادئ أيضا معتقدا آخر مهمّا ينبنى عليه الفكر الشرق آسيوى، وهو الإصرار على ضرورة إيجاد الطريق الوسطى بين الأضداد المتطرفة. ويسود افتراض أولى وهو أن التناقضات ما هى إلا مظهر، وأن نؤمن بأن أ على صواب وأن ب ليس خطأ. وهذا هو عين الموقف الذى استوعبه القول البوذى المأثور: "ما هو ضد الحقيقة الكبرى صادق أيضا".

ويمكن أن تبدو هذه الأفكار بالنسبة لكثيرين من الغربيين أفكارا معقولة بل ومألوفة. علاوة على هذا عرف الفكر الغربى مثل هذا النوع من التراث الجدلى منذ أيام كانط ونيتشه وهيجل. (هذا على الرغم من أن الجدل

الهيجيلى أو الماركسى بتأكيده على الأطروحة ونقيضها والمركب منهما هو جدل أكثر حسما وقطعية من الجدل فى شرق آسيا؛ ذلك لأن الجهد المبذول فيه يهدف دائما إلى محو التناقض وليس قبوله أو التعالى عليه أو استخدامه لفهم وضع ما على نحو أفضل).

ولكن الغربيين ينزعون إلى إغفال قوة التزامهم ببعض المبادئ المنطقية التى تتعارض مباشرة مع روح النزعة الجدلية فى فكر شرق آسيا. ونذكر من بين هذه المبادئ "قانون الهوية" Law of identity الذى يقرر أن الشيء هو هو وليس آخر، وقانون عدم التناقض الذى يقرر أن القضية لا تكون صادقة وكاذبة فى آن واحد. وإن إصرار الغرب على هذين المبدأين المنطقيين وكذا روح النزعة الجدلية فى فكر شرق آسيا يبدوان فى ظاهرهما على الأقل متضادين تضادا مباشرا.

يؤكد قانون الهوية الاتساق بين المواقف. أ هى أ بغض النظر عن السياق. ويحدد قانون عدم التناقض أن قضية ما ونفيها لا يكونان صادقين معا: أ وليس أ مستحيلان معا. وعلى النقيض من هذا مبدأ الكلية، النظرة الكلية، إذ يفيد بأن شيئا ما يكون مختلفا فى سياق ما عنه فى سياق آخر. ويفيد مبدأ التغير أن الحياة فى حالة تحول مطرد من حالة وجودية إلى حالة أخرى. وهكذا الوجود هو لاوجود أو عدم واللاوجود هو وجود. إن إنسانا ما هو حرفيا إنسان مختلف داخل أسرته عنه حين يؤدى دوره كرجل أعمال؛ والثروة تعنى أن الفقر يتربص بك وراء الجدار.

وجدير بالذكر أن أبناء شرق آسيا المحدثين واعون تماما بطبيعة الحال بالمبادئ المنطقية ذاتها التى يعتز بها الغربيون، ويفيدون بالمنطق فى بعض

سياقات الفكر كما سبق أن أشرنا. ولكن قانون عدم التناقض من وجهة نظر الشرق آسيويين يصدق فقط على مجال المفاهيم والمجـردات. وإن رفـض النتائج لأنها تبدو متناقضة صوريا يمكن أن يكون خاطئا لأن المفاهيم ما هى إلا انعكاسات للأشياء، ويمكن أحيانا أن يكون أكثر معقولية وقبولا لنا التسليم بوجود تناقض ظاهرى، أفضل من الإصرار على أن وضعا ما إما أن يكون هو الصادق أو نقيضه.

وحرىٌّ الإشارة إلى أن الاختلاف فى الموقفين إزاء التناقض له نتـائج مهمة من حيث التفكير العقلى فى مجالات كثيرة.

طلبنا، أنا وبنج، من عدد من الطلاب الأمـريكيين خريجـى جامعـة ميتشيجان قراءة قصص عن النزاعات بين الناس، وعن نزاعات بين دوافـع متعارضة لشخص واحد. أفادت إحدى القصص عن صراع قيمة بين أمهات وبناتهن، وعرضت قصة أخرى صراعا بين رغبة فى اللعب والمزاح ورغبة فى العمل الجاد فى المدرسة. وطلبنا من المشاركين تحليل هذه الـصراعات ووضعنا علامات شفرية لكلٍّ لبيان ما إذا كانت القرارات تمثل طريقا وسطى أم قرارات جدلية أم غير جدلية. وتضمنت الإجابة الجدلية عادة جملا تـرد سبب المشكلة إلى كل من الجانبين وتحاول التوفيق بين الآراء المتعارضـة عن طريق حل وسط أو التعالى عليها. مثال ذلك أن إجابة تقول: "كل مـن الأمهات والبنات فشلن فى فهم بعضهن بعضا" اعتبرناها إجابة جدلية، شأنها شأن إجابة توضح أنه من المرجح فى المستقبل غير البعيد جـدا أن تلتقـى الاثنتان وجها لوجه كلٌّ تنظر إلى الأخرى بعينيها. ولكـن الإجابـات غيـر الجدلية عادة تجد الخطأ واقعا حصرا عند هذا الطرف دون الآخر.

ولوحظ بالنسبة لنزاع الأمهات – بناتهن أن ٧٢ بالمائة من إجابات الصينيين أُدرجت ضمن الإجابات الجدلية وأن ٢٦ بالمائة فقط من إجابات الأمريكيين هى التى أخذت هذه الصفة. كذلك فيما يتعلق بالصراع بين المدرسة أم اللعب نجد أن نصف إجابات الصينيين جدلية ولكن ١٢ بالمائة فقط من إجابات الأمريكيين هى التى كانت كذلك. الخلاصة أن غالبية إجابات الصينيين حاولت التماس طريق وسطى. هذا بينما غالبية إجابات الأمريكيين طالبت بإحداث تغيير فى اتجاه واحد فقط.

وعمدت أنا وبنج أيضا فى دراسة أخرى إلى بحث تفضيل أبناء شرق آسيا والغربيين للحجج المنطقية مقابل الجدلية. طلبنا من المشاركين أيًّا يحددوا أى من الحجتين يفضلونها ضد فرض أرسطو القائل إن الجسم الأثقل وزنا يسقط إلى الأرض أولا. وكان جميع المشاركين من خريجى الجامعة فى العلوم الطبيعية بجامعة ميتشيجان ولكن لم يكن أى منهم فيزيائيا. وبدأت كل من الحجتين بما يلى: "اعتقد أرسطو أن الجسم الأثقل وزنا هو الأسرع فى السقوط إلى الأرض. إلى أى مدى يمكن أن يكون هذا الفرض خاطئا؟".

الحجة المنطقية الأولى وهى أساسا الحجة الكلاسيكية التى قال بها جاليليو، تمضى على النحو التالى: 'لنفترض أن معنا جسمين، جسم ثقيل هو ث وآخر خفيف هو خ. حسب فرضية أرسطو فإن ث سيسقط إلى الأرض أسرع من خ. والآن لنفترض أن ث وخ التصقا ببعضهما .... ما الذى سيحدث؟ ث + خ أثقل من ث، إذن حسب الافتراض الأول سيسقط أسرع من ث وحده. ولكن فى الجسم الملتصق .... خ [أخف من و] ستعمل عمل الكابحة فى تأثيرها على ث، وخ + ث سيسقطان أبطأ من ث وحده. يلزم

عن هذا تأسيسا على الفرض الأول أن خ + ث سيسقطان معا بأسرع وأبطأ من ث وحده. وحيث إن هذا خطأ، إذن لابد أن الفرض الأول خطأ أيضا".

وتمضى الحجة الثانية الكلية أو الجدلية على النحو التالى: "... ينبنى هذا الفرض على اعتقاد بأن الموضوع الفيزيقى متحرر من أى تأثيرات تؤثر بها عوامل سياقية أخرى ... وهو أمر مستحيل فى الواقع. لنفترض أن معنا جسمين، جسم ثقيل الوزن هو ث وجسم خفيف هو خ. إذا وضعنا الاثنين فى ظرفين مختلفين كأن نضع ث على سبيل المثال فى طقس عاصف (ع) ووضعنا خ فى طقس هادئ (هـ) ... فإن ع أو هـ ستحدث فارقا. وحيث إن هذه الأنواع من المؤثرات السياقية موجودة دائما فإن لنا أن نستنتج أن الفرض الأوّلى بالضرورة خطأ".

وسألنا المشاركين أيًا من الحجتين يفضلونها لإثبات وجود مفارق، الحجة المنطقية أم الكلية. إن الحجة "المنطقية" نسخة من الحجة الكوزمولوجية القديمة، التى تبدأ: كل موجود له سبب ... والتحرك من النتيجة إلى السبب أو العلة دائما. وهنا يكون المرء إزاء خيارين: أن يمضى إلى ما لا نهاية فى تعقب الآثار ... دون أن يصل إلى علة نهائية على الإطلاق، أو أن يلوذ بسبب ما مفترض، أى سبب موجود بالضرورة ... ولكن إذا كانت كل سلسلة التتابع، إذا ما أخذناها جملة لم يحددها أو يسببها شىء، وهذا باطل ... إذن لا مناص من المسار العكسى ... وجود يحمل سبب وجوده، وليس من سبيل لفرض عدم وجوده وإلا وقعنا فى تناقض.

لوحظ أن غالبية الأمريكيين فضلوا حجة جاليليو المنطقية دون فرض أرسطو عن الجاذبية. هذا بينما فضل غالبية الصينيين الحجة الجدلية الكلية.

وفضل غالبية الأمريكيين الحجة "المنطقية" التى تناقش الوجود المفارق دون الحجة الكلية، بينما فضل غالبية الصينيين الحجة الكلية. ورأى زملائى الغربيون العلميون أن تفضيل الصينيين للحجة الكلية دون آراء أرسطو أمر مثير للدهشة؛ نظرا لأنهم يرون حجة جاليليو بمثابة الضربة القاضية. ولهذا أرى أن أوضح أن ٦٠ بالمائة فقط من الأمريكيين فضلوا حجة جاليليو.

ترى ماذا يحدث لو واجه أبناء شرق آسيا والغربيون قضايا واضحة التناقض؟ يبدو أن النهج المنطقى يستلزم رفض قضية لصالح الأخرى تجنبا للتناقض المحتمل. ولكن النهج الجدلى يؤثر التماس بعض الصدق فى كل منهما، سعيا للوصول إلى طريق وسطى. ورغبة منا فى بحث هذه المسألة طلبنا، أنا وبنج، من بعض طلاب جامعتى ميتشيجان وبكين أن يقرءوا ما وصفناه بأنه ملخصات نتائج عديد من الدراسات فى العلوم الاجتماعية. وتضمنت خمسة موضوعات مختلفة. وطلبنا من المشاركين إما أن يقرءوا عن دراسة تقرر اكتشافا بذاته، أو دراسة تؤكد ضمنا شيئا مختلفا تماما، أو كليهما. وجدير بالذكر أن الدراستين المتضادتين لا تناقض إحداهما الأخرى بالضرورة حسب المعنى المنطقى، ولكنها على الأرجح تتسم بطابع معين وهو إذا ما كانت إحداهما صادقة، فإن الأخرى غير مرجحة الصدق. ونعرض فيما يلى قضيتين هما نموذج لقضيتين متناقضتين بوضوح أكثر.

القضية أ: كشفت دراسة استقصائية أن النزلاء المسنين هم على الأرجح من قضوا فترة أحكام طويلة بسبب ارتكابهم جرائم عنف شديدة. وخلص كاتبو التقرير إلى ضرورة امتداد سجنهم حتى فى حالة أزمة اكتظاظ السجن بنزلائه.

القضية ب: يرى تقرير عن مسألة اكتظاظ السجن بنزلائه أن النــزلاء المسنين ليس من المرجح كثيرا أن يقدموا على ارتكاب جرائم جديدة. لــذلك إذا كان السجن يعانى أزمة اكتظاظ لكثرة نزلائه فــإن بالإمكــان الإفــراج عنهم أولا.

القضيتان نموذج للقضايا غير المتناقضة بالمعنى المنطقى.

القضية أ: درس عالم نفس اجتماعى حالة الــشباب وقــرر أن مــن يشعرون منهم أنهم ألصق بأسرهم يتمتعون بعلاقات اجتماعية مشبعة.

القضية ب: درس عالم مختص بعلم نفس النمــو حالــة عــدد مــن المراهقين، وأكد أن من هم أقل اعتمادا على أبويهم، وروابطهــم الأســرية أضعف، هم أكثر نضجا بوجه عام.

إذا كان الأمر كذلك حقا وهو أن الشباب الذين يشعرون بأنهم لصيقون بأسرهم يتمتعون بعلاقات اجتماعية مشبعة، إذن ليس من المرجح أن ترى أن الأمر صحيح أيضا أن المراهقين ذوى الروابط الأسرية الأضعف هم الأكثر نضجا، هذا على الرغم من أنه من المسلم به أن هذا لا يفضى إلى تنــاقض منطقى.

وضع المشاركون تقديرهم لمدى صدقية القضايا. وتألف كل زوج من القضايا من قضية أكثر معقولية (لدى كل من الصينيين والأمــريكيين) مــن الأخرى، والتى نعرفها بمجرد النظر إلى تقديرات المشاركين الذين قــرءوا فقط إحدى القضيتين دون الأخرى.

ترى ما هى الاستدلالات التى عسى أن يتوصل إليها المشاركون؟ يبدو الأمر واضحا للغاية. إذ حرى بالمشاركين الذين واجهوا قضيتين بينهما تناقض ظاهرى أن يكون تصديقهم لأى منهما أقل من تصديق أولئك الذين عرفوا عن واحدة فقط. ويصدق هذا تحديدا بالنسبة للقضايا الأقل استساغة التى ناهضتها قضايا أكثر قبولا واستساغة. ولكن لا الأمريكيون ولا الصينيون استنوا هذا النهج. إذ إن الصينيين الذين طالعوا القضيتين معا كشفوا عن إيمان متعادل بكليهما. وعملوا على تقييم القضية الأقل استساغة على أساس أنها أقل قابلية للتصديق إذا ما رأوا ما يناقضها عما لو لم يروا النقيض. وإن هذا الاستدلال غير الملائم نتيجة الإحساس بضرورة التماس الصدق فى كل من القضيتين المتناقضتين. ولكن الأمريكيين بدلا من النزوع إلى التقارب فى الإيمان بالقضيتين تباعدوا فعليا مؤمنين بالقضية الأكثر استساغة إذ يرون نقيضها أكثر مما لو لم يروا النقيض. ويبدو أن هذا على الأرجح نتيجة للشعور بضرورة حسم أى من القضيتين المتصارعتين هى الصواب. بيد أن هذه ممارسة للاستدلال مثيرة للريب أن تزداد مصداقية قضية حين يزداد تناقضها وليس العكس. أحسب أن الأمريكيين استنوا النهج الذى استنوه نظرا لبراعتهم فى توليد حجج مناهضة، وهذه مهارة وليدة ممارسة على مدى الحياة. إذ الملاحظ أنهم عند مواجهتهم لحجة ضعيفة ضد قضية ما يكونون أميل إلى التصديق وليست ثمة مشكلة تحول دون إسقاطها. وتتمثل المشكلة فى أن سهولة توليدهم للحجج المناهضة يمكن أن يفيد فى دعم تصديقهم لقضية ما كان يبدو أنها بالإمكان أن تزعزع إيمانهم إذا ما كان هناك نقيضها عما لو كانت بدون نقيض لها. ونجد من الدلائل فى الحقيقة ما يؤكد أن الأمريكيين ينزعون بالفعل إلى توليد حجج مناقضة أكثر مما هو

الحال بالنسبة للصينيين. والنتيجة أن الأمريكيين ربما لا يدركون قوتهم الذاتية، ويفشلون في فهم كم هو يسير عليهم التصدي لحجة يرونها غير مستساغة.

ويبدو أن الميل الأمريكي لتحاشي التناقض مرتبط بالنزوع الغربي العريق إلى البحث عن مبادئ تبرر المعتقدات. إنني إذا ما استطعت أن أبين أن مبدأ ما يوجه معتقداتي، إذن يمكنني أن أبرهن على أن معتقداتي متسقة مع بعضها مهما ظهر ما يناقض ذلك. إن الغربيين بحاجة إلى إثبات أن معتقداتهم توجهها مبادئ تنطبق أيضا، في ظاهرها، على الخيارات العملية. وقد درس علماء علم النفس التنظيمي برايلي وموريس وسيمونسون الاختيارات الاستهلاكية لأمريكيين أوروبيين ولأشخاص من هونج كونج. وانحصرت جميع الاختيارات في ثلاثة موضوعات ـ أجهزة الكومبيوتر كمثال ـ جرى تقديمها في ضوء بعدين اثنين. ظهر جهاز آي. بي. إم. هو الأكثر تفوقا على كل من "سوني" و"آبل" في بعد معين، بينما كان "آبل" هو الأكثر تفوقا على كل من "آي. بي. إم." و"سوني" في ضوء البعد الثاني. وظل سوني دائما في الوسط بين آي. بي. إم. و"آبل" بالنسبة للبعدين. ولوحظ أن الأمريكيين والشرق آسيويين في حالة ضابطة كادوا أن يتعادلوا في اختيارهم لسوني الذي يحتل موقعا وسطا. وأجرى برايلي وزملاؤه تجربة أخرى يتعين فيها على المشاركين إبداء الأسباب في اختيارهم. وكان في تقديرهم مسبقا أن هذا سيحفز الأمريكيين على البحث عن قاعدة تبرر اختيارهم. (كأن يقولوا إن ذاكرة الوصول في الكومبيوتر RAM أهم من حيز الدفع الصلب hard drive space، ولكنه يحفز أبناء ثقافة شرق آسيا إلى التماس حل توفيقي (كل من ذاكرة الوصول RAM وحيز الدفع الصلب hard drive space متكافئان من حيث الأهمية). وحين طلبوا من الأمريكيين تبرير اختياراتهم، انتقل الأمريكيون إلى تفضيل واحد من الموضوعات

المتطرفة الذى يمكن تبرير اختيارهم له بالرجوع إلى قاعدة بسيطة، بينما انتقل المشاركون من أبناء شرق آسيا إلى زيادة فى تفضيل حل توفيقى للموضوع. وقدم المشاركون تبريرات تتسق مع اختياراتهم: الأمريكيون أميل إلى تبريرات تستند إلى قاعدة، والصينيون أميل إلى تبريرات تستند إلى حل وسط توفيقى.

وهكذا توجد دلائل كثيرة تشير إلى أن الشرق آسيويين غير معنيين بالتناقض على النحو ذاته الذى يستنه الغرب. إنهم يفضلون أكثر الحلول التوفيقية والحجج الكلية الشمولية وأميل إلى تعزيز كل من الحجتين المتناقضتين فى ظاهرهما. وإذا ما طلبنا منهم تبرير اختياراتهم فإنهم يتجهون إلى التوفيق واتخاذ موقف يعبر عن الطريق الوسطى بدلا من الرجوع إلى مبدأ له السيادة والهيمنة. ويبدو أن النزوع الواضح لدى الأمريكيين إلى مناصرة مبدأ عدم التناقض لا يعطى ضمانا ضد أى استدلالات مشكوك فيها. وإنما على العكس إذ إن حالة الرهبة من التناقض التى تصيب الأمريكيين يمكن أن تكون سببا دافعا بهم أحيانا إلى مزيد من التطرف فى أحكامهم فى ظل ظروف كانت تقتضى منهم أن يكونوا أقل تطرفا. ويعكس هذا الميل صورة الشكاوى من عادات العقل الغربى المغرقة فى المنطق إلى حد التطرف، وهى الشكاوى التى عبر عنها فلاسفة ونقاد اجتماعيون من الشرق والغرب على السواء.

الدجل والعاطفة والرياضيات:

تمثل ظاهرة بارنوم Barnum effect واحدة من أكثر ظواهر علم النفس الاجتماعى مصداقية، وهى الظاهرة التى سميت على اسم صاحب السيرك الذى أطلق التعبير التالى: هناك رضيع يولد كل دقيقة. وإذا شئت أن تجعل

أى شخص يظن أنك صاحب بصيرة مذهلة تسبر غور شخصيته ما عليك إلا أن تحكى له شيئا من مثل ما يلى: "على الرغم من أنك بوجه عام تملك شخصية متفائلة، إلا أنك أحيانا تعلوك كآبة دون أن تكون لديك فكرة واضحة لماذا. وبينما يراك غالبية الناس منبسطا على نحو مقبول إلا أنك فى حقيقة أمرك خجول حتى النخاع.

يظن كل إنسان فى الغالب الأعم أنه متفائل على نحو معتدل ولكن ينوشه الحزن أحيانا، ويبدو أنه اجتماعى ولكنه خجول فى حقيقته، وإن ما لا يدركه الناس هو مدى شيوع هذه المدركات عن النفس، ولهذا يظنون أن عالم النفس، أو العراف، أيا من كان، قد سبر غور روحه واكتشف الحقيقة. ودفع انكيول شوى بأن هذا يكون أيسر حين يعجز الناس عن التعرف على التناقضات القريبة التى صيغت بحذر وعناية وسط هذه الأوصاف الزائفة عن الشخصية وأضفت عليها معقولية مهما كان رأى المرء عن شخصيته. وإذا كان الأمر كذلك فإن لنا أن نتوقع أن أبناء شرق آسيا أكثر قابلية لظاهرة بارنوم فيقبلون عن أنفسهم أوصافا ظاهرة التعارض لشخصياتهم. وأراد تشوى أن يختبر هذا الفرض. ووصولا إلى هذا طلب من عدد من الكوريين والأمريكيين أن يصنفوا شخصياتهم وفق عدد من الجداول. وتم تصميم الجداول المختلفة بحيث تستكشف السمات المتضادة التى يقولها الناس. وطلب تشوى من المشاركين أن يقيِّموا كم كانوا غلاظا، وأن يذكروا فى جزء آخر من الاستبيان كم كانوا مهذبين. ولوحظ أن الكوريين الذين قالوا إنهم كانوا أكثر تهذيبا من آخرين كانوا ميَّالين إلى القول بأنهم أوشكوا أن يكونوا غلاظا شأن الآخرين. كذلك فإن الأمريكيين الذين قالوا إنهم كانوا أكثر تهذيبا قالوا

إنهم كانوا أقل غلظة، أو إذا ما قالوا إنهم كانوا أقل تهذيبا فإنهم كانوا يميلون إلى القول بأنهم كانوا أكثر غلظة. وارتفعت عاليةً رايةٌ حمراء للأمريكيين تشير إلى تناقض محتمل ولكن كان الأمر أقل احتمالا بالنسبة للكوريين.

وقدم تشوى برهانا مذهلا أكثر عن التناقض الذاتى. أعطى مشاركين كوريين وأمريكيين عددا كبيرا من القضايا هى حرفيا، أو شبه حرفيا، قضايا بينها تضاد.

- شخصية المرء مصيره، أو

  شخصية المرء ليست مصيره.

- كلما ازدادت معارف المرء ازداد إيمانه

  كلما ازدادت معارف المرء قل إيمانه.

أعطى تشوى لبعض المشاركين قضية من الاثنتين المتضادتين، وأعطى الأخرى للبعض الآخر. ولوحظ أن الأمريكيين الذين أخذوا القضية الأولى إذا نزعوا إلى قبولها فإن الأمريكيين الذين أخذوا القضية الأخرى نزعوا إلى رفضها. ولكن هذا لم يكن صحيحا بالضرورة بالنسبة للكوريين الذين كانوا أميل إلى قبول أى من القضيتين المعروضتين عليهم.

وثمة قصيدة للشاعر وليام بتلر بيتس عنوانها "اللازورد". يصف فيها جوهرة عليها حفر يمثل عجوزين صينيين تحت سقف باجودا (معبد) مقام على سفح الجبل. يقول فيها:

هناك فوق قمة الجبل وفى عنان السماء

إلى كل المشهد المأساوى يحملقون.

أحدهما استغرقه لحن حزين،

والأصابع الماهرة شرعت فى العزف

عيونهما وسط تغضنات كثيرة، عيونهما

الجليلة العنيفة المتلألئتان تفيضان بهجة.

ربما كان ييتس على صواب فى رؤيته للشخصين الصينيين نظرا لوجود دليل على أن الخبرة الآتية بالعواطف المتصارعة أكثر شيوعا بين أبناء شرق آسيا منها بين الغربيين. وحدث أن طلب كايبنج بنج وزملاؤه من المشاركين اليابانيين والأمريكيين أن ينظروا إلى عيون بعضهم بعضا ويسجلوا نوع العواطف التى تعبر عنها نظراتهم. رأى الأمريكيون الوجوه سعيدة أو حزينة، غاضبة أو خائفة. ولوحظ أنهم كلما زاد ما أفادوا به عن رؤيتهم لعواطف إيجابية قل ما سجلوه عن رؤيتهم لعواطف سلبية. وجدير بالذكر أن الحس المشترك [الغربى] وقدرا كبيرا من البيانات التى جمعها على مدى سنين علماء النفس، كل هذا يشير إلى أن الأمور نادرا ما تكون على غير هذا النحو. ولكنها كانت على غير هذا النحو بالنسبة للمشاركين اليابانيين. كانوا أميل كثيرا للإفادة بأنهم يرون عواطف إيجابية وسلبية فى الوجه الواحد.

ويبدو أيضا أن أبناء شرق آسيا لا يجدون مشكلة فى قبول تناقضات ظاهرية فى عواطفهم الذاتية. ونذكر فى هذا الصدد أن عددا من علماء علم النفس التنظيمى، ريتشارد باجوزى، ونانسى وونج، ويوجاى يى، طلبوا من

مشاركين صينيين وكوريين وأمريكيين أن يقيّموا حالاتهم الانفعالية في اللحظة نفسها وحالاتهم الانفعالية بعامة. لوحظ أن المشاركين الأمريكيين نزعوا إلى الإفادة بأنهم يشعرون بعواطف إيجابية متماثلة أو عواطف سلبية غير متماثلة. ولكن إجابات الصينيين والكوريين كشفت عن علاقة ضعيفة بين شدة العواطف الإيجابية التى أفادوا بها، سواء الآن أو بوجه عام، وبين شدة العواطف السلبية التى أشاروا إليها. ولوحظ أن الإفادة بعواطف إيجابية قوية تتواءم مع التعبير عن عواطف سلبية قوية. ويبدو أن كونفوشيوس كان يتحدث عن قطاع كبير جدا من سكان العالم حين قال: "حين يشعر المرء أنه الأسعد فإنه حتما سيشعر بالحزن فى الوقت نفسه".

أنا متهم أحيانا بالتناقض. لماذا الشرق آسيويون اللامنطقيون يبزون الأمريكيين فى الرياضيات والعلم؟ كيف يحدث هذا إذا كان الشرق آسيويون لا يتواءمون مع المنطق؟ ثمة إجابات عديدة على هذه الأسئلة.

أولا: حرى بنا أن ندرك أننا لا نجد عمليا وفعليا الشرق آسيويين فى مشكلة مع المنطق الشكلى. نحن فقط نجدهم أقل ميلا لاستخدامه فى مواقفهم الحياتية اليومية حيث تتصارع معه الخبرة أو الرغبة. ثانيا: افتقار الشرق آسيويين للاهتمام بالتناقض وتأكيدهم على الطريق الوسطى يؤدى دون ريب إلى أخطاء منطقية. ولكن حالة الرهبة الغريبة من التناقض يمكن أن تتسبب أيضا فى أخطاء منطقية.

إن شهرة أبناء شرق آسيا بالمهارات الرياضية حديثة العهد، وجدير بالذكر أن الثقافة التقليدية الصينية واليابانية أكدت على الأدب والفنون والموسيقى باعتبارها الهدف الصحيح الذى ينذر له المتعلم جهده سعيا إليه. ولوحظ أننا وآخرين فى بحوثنا مع صينيين وأمريكيين شبابا وشيوخا نجد أن

شباب الصينيين فقط هم الذين يبزون فى أدائهم نظراءهم الأمريكيين. ولكن مقارنة أداء كبار السن من الصينيين والأمريكيين المتعلمين كشفت عن أنه أداء متماثل فى الرياضيات.

إن تعليم الرياضيات فى شرق آسيا أفضل، كما أن طلاب شرق آسيا أكثر جدية ودأبا فى العمل. كذلك فإن تدريب المعلم فى شرق آسيا عملية مطردة طوال حياة المعلم العملية، ويتعين على المعلمين أن يقضوا فى التعليم وقتا أقل كثيرا من نظرائهم الأمريكيين، كما أن التقنيات شائعة الاستخدام أو فى مستوى من نظيرتها فى أمريكا. (تفوق تعلم الرياضيات فى شرق آسيا عن نظيره فى أوروبا فى هذه المجالات أقل وضوحا). ونلحظ فى كل من أمريكا وشرق آسيا أن الأطفال ذوى الخلفية الشرق آسيوية يعملون بدأب وجدية أكثر فى مجال الرياضيات والعلم عن الأمريكيين الأوروبيين. وأن الفارق فى مدى جدية ودأب الأطفال فى دراستهم للرياضيات ربما يرجع جزئيا على الأقل إلى ميل الغربيين أكثر إلى الإيمان بأن السلوك نتيجة لسمات ثابتة. وينزع الأمريكان إلى الإيمان بأن المهارات صفات يملكها أو لا يملكها المرء، لذلك لا تفكير فى محاولة اصطناع المستحيل. وينزع الشرق آسيويون إلى الإيمان بأن كل إنسان قادر على تعلم الرياضيات إذا ما توفرت له الظروف الصحيحة مع العمل الجاد الدءوب.

الخلاصة أن تفوق الشرق آسيويين فى الرياضيات والعلوم ضرب من المفارقة ظاهرة التناقض ولكنها أبعد ما تكون عن التناقض.

لقد عمدت إلى عرض قدر واف من الأدلة التى تكشف عن اختلاف الغربيين والشرق آسيويين فى فروض أساسية عن طبيعة العالم، وفى بؤرة

الانتباه لكل، وفى المهارات اللازمة لإدراك العلاقات والتمييز بين الموضوعات وسط بيئة معقدة، وفى طبيعة المرجعية السببية وفى الميل إلى تنظيم العالم على أساس تصنيف فئوى أم على أساس العلاقات، وفى الميل إلى استخدام القواعد بما فى ذلك قواعد وقوانين المنطق الشكلى. ويبرز هنا سؤالان رئيسيان فى ضوء هذه الدفوع: هل هذا شأن مهم له خطره؟ هل سيستمر؟ يتناول الباب الثامن السؤال الأول، وتتناول الخاتمة السؤال الثانى.

الباب الثامن

وماذا لو كانت طبيعة الفكر ليست واحدة فى كل العالم؟

تبين لنا عمليا فى كل دراسة نهضنا بها أن الفوارق بين الشرق آسيويين والغربيين كانت ولا تزال عادة كبيرة. ووجدنا فى الحقيقة، فى أغلب الأوقات، أن الشرق آسيويين والغربيين يتصرفون على نحو متمايز كيفيا. إذ لوحظ أن الأمريكيين فى المتوسط يجدون صعوبة أكثر فى اكتشاف التغيرات الحادثة فى خلفية المشاهد، بينما يجد اليابانيون صعوبة أكثر فى اكتشاف الموضوعات فى الصدارة. وفشل الأمريكيون بعامة فى تمييز دور القيود والضغوط الموقفية على سلوك المتكلم، بينما استطاع الكوريون ذلك. واستطاع غالبية الكوريين أن يصدروا رأيا بأن موضوعا ما يكون أقرب شبها بمجموعة يشترك معها فى تشابه فصيلى وثيق، بينما أصدرت غالبية، ربما أكبر من هذه، بين الأمريكيين رأيا يقرر أن موضوعا ما يكون أقرب شبها بمجموعة يمكن نسبته إليها بناء على قاعدة الحتمية. وحين نكون بصدد قضيتين ظاهرتى التناقض فإن الأمريكيين يميلون إلى استقطاب معتقداتهم حول قضية دون الأخرى، بينما يتجه الصينيون إلى القبول المتكافئ للقضيتين معا. وإذا رأى اليابانيون شيئا فإنهم يكونون ضعف الأمريكيين من حيث ميلهم إلى النظر إلى الشيء باعتباره جوهرا ــ كتلة متصلة من المادة، بينما

يكون الأمريكيون ضعف اليابانيين من حيث ميلهم إلى النظر إليه باعتباره موضوعا، أى شيئا مستقلا منفصلا غير متصل وليس جوهرا. وهكذا دواليك.

وإن الدرس الذى يستخلصه علماء النفس من هذه الفوارق الكيفية يتمثل فى الآتى: لو أن التجارب موضوع البحث أجريت على غربيين فقط لانتهوا إلى نتائج عن العمليات الإدراكية والمعرفية التى ليست عامة بحال من الأحوال، والحقيقة أن مثل هذه النتائج الخاطئة عن الكلية الشاملة هى بالفعل ما سبق التوصل إليه بالنسبة لعمليات كثيرة سجلها هذا الكتاب. ويبدو واضحا الآن أننا بحاجة إلى إعادة تفكير الآن لنتبين أى العمليات الإدراكية والفكرية هى الأساسية، وأيها يطرأ عليها تغير جوهرى من مجموعة بشرية إلى مجموعة أخرى. وجدير بالذكر أن خطوط النزاع مآلها إلى أن تكون أعمق كثيرا وفى مواقع مختلفة على عكس ما ذهب إليه الظن حتى الآن.

هل هذا مهم؟

ولكن النتائج الواردة فى متن الكتاب مبنية فى أغلبها على اختبارات معملية: لماذا نفترض أن النتائج ما هى إلا نباتات مستزرعة داخل دفيئة "صوبة" وليس لها نظير فى عالم الواقع فكرا أو سلوكا؟

السؤال جدير بأن نسأله وسيكون مفيدا أن نحاول الإجابة عليه. توجد فى الحقيقة مجالات كثيرة فى الحياة التى يفكر ويتصرف فيها الشرق آسيويون والغربيون على نحو مختلف تماما. وهذه الفوارق بدت مفهومة بوضوح فى ضوء دعاوانا عن النظرة الكلية مقابل الفكر التحليلى.

<u>الطب:</u> يلتزم الطب فى الغرب نهجا تحليليا وموجها نحو الموضوع وتدخليا، وهذه أساليب تناول شاعت على مدى آلاف السنين: الكشف عن

الجزء المسبب للمرض أو المزاج الضار ويعمل على إزالته أو تغييره. ولكن الطب فى شرق آسيا مغرق فى النظرة الكلية ولم يتجه أبدا حتـــى العـــصر الحديث إلى الجراحة أو غير ذلك من تدخلات جريئة. فالصحة هـــى نتـــاج توازن بين قوى حميدة داخل الجسم، والمرض سببه تفاعل معقد بين القـــوى والذى يتعين التصدى له بأدوية وتدخلات متساوية معه من حيث تعقده، وهى عادة أدوية وتدخلات طبيعية وغالبيتها من الأعشاب، ونعـــرف أن تـــشريح الأبدان إلى الأجزاء المكونة لها عمل مارسه الإغريق القدامى، ثـــم حـــدثت قطيعة خلال العصور الوسطى، ليعود ثانية ويمارسه الغـــرب علـــى مـــدى القرون الخمسة الأخيرة. ولم ينتقل التشريح عن طريق الغرب إلى الطب فى شرق آسيا حتى القرن التاسع عشر.

القانون لنتأمل المعادلة التالية: أولا: نحن نحدد إيثار المجتمع للمحامين على المهندسين كنسبة:

$$\frac{\text{عدد المحامين في المجتمع}}{\text{عدد المهندسين في المجتمع}}$$

ثانيا: نحدد نسبة لهذه النسب فى ضوء التفـــضيلات النـــسبية لبلـــدين للمحامين على المهندسين:

$$\frac{\text{عدد المحامين/المهندسين في المجتمع أ}}{\text{عدد المحامين/المهندسين في المجتمع ب}}$$

العدد حاصل قسمة نسبة تفضيل المحامين فى الولايات المتحدة عـــن نسبة تفضيل المحامين فى اليابان هو واحد ــ أربعون.

المحامون فى الولايات المتحدة يفيد منهم المجتمع. ذلك أن النزاع بين الأفراد فى بلدان الغرب تجرى معالجة القسط الأكبر منه عن طريق المواجهات القانونية، بينما الأمر المرجح جدا فى شرق آسيا هو الوساطة. ويلاحظ أن الهدف فى الغرب هو تطبيق مبدأ العدالة، وافتراض التوجه إلى ساحة القضاء لحسم النزاع هو مثال جيد لمعنى أن ثمة حقًا وخطأ، وسيكون هناك خاسر وفائز. ولكن الهدف من حسم النزاع فى شرق آسيا هو على الأرجح خفض مستوى العداوة كما أن التوفيق هو النتيجة المرجحة. ويلتزم الغربيون بمبادئ كلية عن العدالة لمواصلة السعى نحو أهدافهم، ويشعر القضاة والمحلفون أنهم ملزمون باتخاذ قرارات يؤمنون بأنها ستنطبق على كل إنسان فى ظروف متماثلة تقريبا. ولكن على العكس فى شرق آسيا، إذ نجد المرونة والانتباه واسع النطاق إزاء الظروف والملابسات الخاصة بالقضية، إذ يمثل هذا السمات المميزة للحكمة فى حسم النزاع. وهذا ما عبر عنه مواطن صينى فى فترة ما قبل الثورة الصينية حين قال: "... القاضى الصينى لا يسعه التفكير فى القانون ككيان مجرد، بل باعتباره كمًا مرنا عند تطبيقه شخصيا على العميد هوانج أو الرائد لى. ومن ثم فإن أى قانون غير شخصى بما فيه الكفاية بحيث يستجيب لشخصية العميد هوانج أو الرائد لى هو قانون غير إنسانى ومن ثم ليس قانونا على الإطلاق. إن العدالة الصينية فن وليست علما".

<u>الجدل</u>: عمليات اتخاذ القرارات فى قاعات مجالس الإدارات والمجالس التنفيذية فى اليابان هدفها تجنب النزاع والتنافر والانشقاق. ويلاحظ أن الاجتماعات غالبا ما تكون أكثر قليلا من مجرد التصديق على توافق للآراء حققه مقدما الرئيس. ويجنح المديرون اليابانيون إلى التعامل مع نزاع بينهم

وبين مديرين آخرين عن طريق تجنب الموقف ببساطة، بينما نجد الأمريكيين أميل كثيرا من اليابانيين إلى محاولة الإقناع. وإن ما يعتبره الشرق آسيويون تدخلا ونهجا خطرا يراه الغرب وسيلة للوصول إلى الحق. ويضفى الغربيون ما يرقى إلى مستوى الإيمان الدينى على ساحة الحوار الحر للأفكار. إن الأفكار السيئة ليست خطرا على المدى البعيد على أقل تقدير. إذ سيتضح آنذاك هدفها حين تتيسر مناقشتها صراحة بين الناس. ولم يعرف شرق آسيا مثل هذا الافتراض وغير معروف به حتى الآن.

العلم: فى عقد التسعينيات من القرن العشرين حصل العلماء المقيمون فى الولايات المتحدة على أربع وأربعين جائزة نوبل وحصل اليابانيون على جائزة واحدة فقط، هذا على الرغم من حقيقة واقعة تتمثل فى أن ما ترصده اليابان من أموال للبحث العلمى يبلغ نصف ما ترصده الولايات المتحدة. كذلك بالنسبة لألمانيا الغربية التى تنفق نصف ما تنفقه اليابان على العلم حصل علماؤها على خمس جوائز. ونذكر أيضا فرنسا التى تنفق على العلم أقل مما تنفقه ألمانيا ومع هذا حصلت على ثلاث جوائز. ويمكن جزئيا رد أسباب الإنجازات الضئيلة نسبيا لليابان فى مجال العلم إلى ما تفرضه الكونفوشية من احترام لكبار السن، وهو ما يؤدى إلى توجيه الدعم والمساندة إلى العلماء كبار السن ذوى المستوى المتواضع دون شباب العلماء الموهوبين. ولكن بعض العلماء اليابانيين يعزون القصور جزئيا إلى غياب الحوار والمواجهات الفكرية. إذ يلاحظ أن المراجعة والنقد بين الأكفاء شأن نادر فى اليابان حيث يعتبر ضربا من التجرؤ والغلظة، وحيث لا يسود قبول واسع النطاق لدورهما فى توضيح وتقدم الفكر فى ما يتعلق بالشئون العلمية.

وعبر عن هذا عالم يابانى بقوله: "عملت فى معهد كارنيجى فى واشنطن وعرفت عالمين بارزين كانا نعم الصديقان. ولكننى لاحظت إذا تعلق الأمر بعملهما فربما يدور بينهما نقاش حاد قاس حتى ولو كان علنيا على صفحات الصحف. هذا النوع من السلوك يقع داخل الولايات المتحدة ولكنه لا يحدث أبدا فى اليابان".

الخطابة: مقاومة النقاش والجدل ليست مجرد مسألة اجتماعية أو أيديولوجية، ولا هى قاصرة على نتائج كمية خالصة من مثل عدد أوراق الأبحاث العلمية المنتجة. وإنما الإحجام عن النقاش يتسع نطاقه ليشمل طبيعة الاتصال والخطابة ذاتيهما. وجدير بالذكر أن الخطابة الغربية التى تشكل البنية الأساسية لكل شىء ابتداء من التقارير العلمية وحتى أوراق البحث المتعلقة بالسياسة، تأخذ عادة أشكالا متباينة على النحو التالى:

- الخلفية
- المشكلة
- الفرض أو القضية المقترحة
- وسائل الاختبار
- الدليل
- حجج تبين وتدعم الدليل وما يفضى إليه
- تفنيد أى حجج مضادة محتملة
- النتيجة والتوصيات

وجدير بالذكر أن غالبية الغربيين الذين تحدثت إليهم بشأن هذا القالب للبحث يأخذونه مأخذ التسليم كقالب كلى شامل: أنى لنا عن غير هذا، أن ننقل معلوماتنا عن اكتشافاتنا وأن نقدم توصياتنا بصورة مقنعة أو حتى أن نفكر بوضوح فيما يفعله المرء؟ بيد أن الحقيقة أن هذه الصيغة الخطابية الخطية على امتداد مسار أحادى ليست أبدا شائعة فى شرق آسيا. لقد تبين لى أن الصيغة الخطية الخطابية بالنسبة لطلابى من شرق آسيا هى آخر شىء حاسم يتعلمونه فى طريقهم ليصبحوا علماء اجتماعيين أكفاء فى أداء دورهم.

<u>العقود</u>: يرى العقل الغربى أن أى صفقة يجرى الاتفاق عليها لا سبيل إلى تعديلها؛ الصفقة صفقة والكلام بشأنها نهائى. ولكن أبناء شرق آسيا غالبا ما يعتبرون الاتفاقات اتفاقات مبدئية مع وضع أحداث المستقبل فى الاعتبار. وطبيعى أن هذه الآراء المتعارضة غالبا ما تسببت فى نزاعات بين أبناء شرق آسيا والغربيين. ولعلنا نتذكر المرارة بين رجال الأعمال اليابانيين والاستراليين بسبب رفض استراليا إعادة التفاوض بشأن عقد توريد سكر وذلك حين انخفض سعر السكر انخفاضا حادا فى السوق العالمية. لم يكن اليابانيون فى موقفهم هذا مرائين ولا يسعون إلى خدمة أنفسهم على نحو أنانى خالص. ذلك أن الموردين اليابانيين يضعون مثل هذه الأمور موضع الاعتبار فى تعاملهم مع عملائهم. والمعروف أنه إذا تساقط الثلج وغطى طوكيو فإن موزعى الأفلام يعملون على الأرجح من أجل تعويض أصحاب دور السينما بسبب نقص عدد الجمهور. وأشار إلى هذا أستاذا الأعمال هامبدن - تورنر وترومبينارس إذ قالا: "المتابعة التحليلية بندا بندا ليست فعالة من حيث التكاليف. ولكن المتابعة بهدف تعزيز العلاقة بين العميل

والمورد أمر مفهوم تماما". والخلاصة أن اليابانيين ينظرون إلى علاقات العمل نظرة فى إطار كلى تشمل السياق مع مضى الزمن.

العلاقات الدولية: حدث نزاع دولى بين الصين والولايات المتحدة نجم عن اختلاف المفاهيم بشأن الأسباب، وذلك حين اصطدمت طائرة مقاتلة صينية بطائرة استطلاع أمريكية، واضطرت طائرة الاستطلاع إلى الهبوط فوق جزيرة صينية دون الحصول على إذن من المنطقة. أسر الصينيون ملاحى طائرة الاستطلاع وطلبوا من الولايات المتحدة الاعتذار عن الحادث. ورفض الأمريكيون مؤكدين أن سبب الحادث تهور طيار الطائرة المقاتلة. ولحظ العالم السياسى بيتر جرابيس وعالم النفس الاجتماعى كايينج بنج أنه بالنسبة للصينيين، الإصرار على أن ثمة شيئا اسمه السبب الذى أدى للحادثة ومحصورًا فى إطارها فقط أمر شبه مستحيل. إذ إن الحادثة وثيقة الصلة بعدد كبير من الاعتبارات بما فى ذلك حقيقة أن الولايات المتحدة بعد كل شىء تتجسس على الصين، وأن هناك تاريخا للتفاعل بين طائرة الاستطلاع والطائرة المقاتلة وهكذا دواليك. وتأسيسا على تعقد وغموض السببية ــ مع تسليم الصينيين بأن الأمر هنا مثله مثل أحداث أخرى ــ فإن أقل ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة هو التعبير عن أسفها لوقوع الحادث. وطبيعى أن الغموض المفترض مسبقا بشأن السببية يمكن أن يكون أحد أسس إصرار الشرق آسيويين على الاعتذار عن أى عمل يضر بآخر، سواء حدث عن غير قصد أو على نحو غير مباشر. (واستعداد المديرين اليابانيين للاستقالة حين يفقدون السيطرة على مسار الأمور وتأخذ منحى خاطئا). وأخيرا كانت "صيغة" الاعتذار هى ما اتفقت عليه الولايات المتحدة والصين لإنهاء

الورطة. ولكن يبدو على الأرجح أن كثيرين من الجانبين لم يفهموا دور اختلاف مفاهيم السببية فى النزاع، وهو ما وضحه وحدده جرايبس وينج.

حقوق الإنسان: ينزع الغربيون فيما يبدو إلى الاعتقاد بأن ثمة نوعا واحدا فقط للعلاقة بين الفرد والدولة وأنه وحده الصحيح الملائم. الأفراد وحدات منفصلة ويدخلون معا فى عقد اجتماعى بينهم وبين الدولة وبينهم وبين بعضهم بعضا مما يترتب عليه حقوق معينة وحريات والتزامات. ولكن غالبية الشعوب بما فى ذلك شعوب شرق آسيا لا ترى المجتمعات حاصل جمع أفراد بل جمعا من جسيمات أو كائنات. ونتيجة لذلك فإن مفهوم حقوق الإنسان كشىء أصيل للفرد نادر أو غير موجود. ويرى الصينيون أن أى مفهوم عن الحقوق ينبنى على أساس الجزء - الكل مقابل مفهوم المجتمع واحد - كثير. وبقدر ما يكون للمرء حقوق بقدر ما تتألف حصته من الحقوق جملة. والملاحظ أن الغربيين حين يرون الشرق آسيويين يعاملون الناس وكأن لا حقوق لهم إنما يرون ذلك فى ضوء الأخلاق فقط. وأيًا كانت الملاءمة الأخلاقية لسلوك الرسميين فى شرق آسيا إلا أن من المهم أن نفهم أن سلوك المرء على نحو مغاير لا يستلزم فقط قانونا أخلاقيا مغايرا، بل وأيضا مفهوما مغايرا عن طبيعة الفرد. (أقول هذا وإن كنت أشارك غالبية الغربيين فى الرأى بأن ثمة ما نسميه الحقوق الإنسانية للفرد وأن هذه الحقوق تصادف أحيانا انتهاكا فى شرق آسيا). وطبيعى أن أى مفهوم مغاير عن الفرد سوف ينبنى فى النهاية على نزوع للتفكير فى العالم فى ضوء وحدات فردية وليس على أساس جواهر متصلة، تمثل على أحسن الفروض المستوى الميتافيزيقى الأساسى.

ومن المهم كذلك أن ندرك أن شعوب شرق آسيا وغيرها من الشعوب المؤمنة بالتكامل لهم اعتراضاتهم الأخلاقية على السلوك الغربى. والملاحظ أن طلاب شرق آسيا حين يصبحون على سجيتهم قادرين على التحدث دون حرج داخل قاعات الدرس، فإنهم غالبا ما يعبرون عن حيـرتهم إزاء الكـم الكبير من الفوضى والجريمة والعنف والصور الفاضحة جنسيا فى وسـائل الإعلام الغربية التى تذيعها وتروجها باسم الحرية والتسامح. إنهم يدركون أن هذه المسائل وليدة حقوق الإنسان؛ ذلك لأنهم يرون الحقوق أصيلة فى الروح الجمعية دون الفردية.

الدين: إن بعض الاختلافات الدينية، وهى كثيرة، يمكن فهمها فى ضـوء ذهنية الغرب "الصواب/ الخطأ" مقابل التوجه الشرق آسـيوى "كـلا مـن/ و". تتسم ديانات شرق آسيا بالتسامح وتداخل الأفكار الدينية. إذ يمكن للمـرء أن يكون كونفوشيا وبوذيا ومسيحيا فى كوريا واليابان (وفى الصين قبل الثورة). وجدير بالذكر أن الحروب الدينية فى شرق آسيا نادرة نسبيا، بينما كانت داء متوطنا فى الغرب على مدى قرون؛ ذلك أن العقيدة الـسائدة تـصر علـى ضرورة دخول الآخرين إليها والالتزام برؤيتها عن الرب. ونجد من يـدفع بأن الإغريق لا يلامون على هذا وربما يكون صحيحا (إذ لم يكونوا موحدين بل آمنوا بأرباب كثيرة ولا يعنيهم أى الأرباب أثير عند المرء دون الأرباب الأخرى). ولكن الديانة التوراتية الإبراهيمية وما تولد عنها من ديانات هـى التى سادها نزوع نحو شن حروب دينية. ولكن هناك من زعم مـن ناحيـة أخرى أن المسيحية هى العقيدة الدينية الوحيدة التى رأت مـن الـضرورى تأسيس فقه لاهوتى يحدد الصفات الجوهرية للرب. ويستطرد أصحاب هـذا

الزعم قائلين إن هذا الإصرار على تحديد مقولات الرب وعلى التجريد نهج يمكن تتبع جذوره تاريخيا عند الإغريق.

الدورات والعود المطرد يمثلان جزءا واحدا من كثير من ديانات شرق آسيا ولكنهما أقل شيوعا فى الغرب. والميلاد المتجدد جزء من بعض ديانات شرق آسيا ونادرا ما نراه فى الغرب. وترى ديانات شرق آسيا أن الخطيئة حالة مزمنة ويمكن التكفير عنها (مثلما هو الحال فى الكاثوليكية إلى حد ما). ولكن الخطيئة فى التراث البروتستانتى عسير التكفير عنها أو أن لا سبيل إلى الخلاص منها بالمعنى الحرفى.

أخيرا حرى أن لا ننسى أن أكثر الأدلة التى ناقشناها فى هذا الكتاب مستمدة من حل مشكلات الحياة اليومية. إن المديرين اليابانيين يبدءون حياتهم العملية من قاع شركاتهم ويطوفون بين أقسامها مرات ومرات حتى تتوفر لديهم رؤية شاملة لأنشطة شركاتهم. والمعروف أن المبانى فى الصين بما فى ذلك ناطحات السحاب فى هونج كونج لم يبدأ بناؤها إلا بعد مسح كامل وشامل على أيدى خبراء فنج شوى الذين يدرسون كل قسمة ممكنة، إيكولوجية وطوبوغرافية ومناخية وهندسية، للمنطقة والمبانى المقترح بناؤها فى الوقت نفسه وفى علاقتها ببعضها بعضا. ولكن الغربيين، وبخاصة الأمريكيون، هم رواد النهج المعيارى الذرى التبادلى المتماثل فى الصناعة والتجارة. وهكذا إلى آخره. وليست دعواى أن الفوارق المعرفية التى كشفنا عنها فى المعمل هى سبب اختلاف المواقف والاتجاهات والقيم والسلوك، بل إن الفوارق المعرفية غير منفصلة عن الفوارق الاجتماعية وعوامل الحفز. إن الناس يؤمنون بالعقيدة التى يؤمنون بها بسبب أسلوبهم فى التفكير، وهم يفكرون بالأسلوب الذى يفكرون به بسبب طبيعة المجتمعات التى يعيشون فيها.

كيف يجب أن يفكر الناس؟

في مطلع القرن العشرين اقتسم الفلاسفة وعلماء النفس العمل فيما بينهم. أخذ علماء النفس المهمة الوصفية لاكتشاف كيف يفكر ويتصرف الناس. وتولى الفلاسفة مهمة إرشادية ليقولوا للناس كيف ينبغي عليهم أن يفكروا ويسلكوا. وحدث أحيانا، وإن لم يكن كثيرا كما هو مستصوب، أن يتأمل الفلاسفة عمل علماء النفس ليعرفوا ما الذي يفعله الناس في الواقع العملي. ولكن حتى لو حرص الفلاسفة على الاهتمام عن كثب بجهود علماء النفس لما وجدوا غير النزر اليسير الذي يحررهم من وهم قناعاتهم بشأن النزعة الكلية الشاملة. وأعتقد أن الجهد الذي يعرضه هذا الكتاب سيكون له أثره على علماء النفس وبالتالي على الفلاسفة أيضا.

وإذا شئنا أن نعرف كيف يمكن أن تتأثر الفلسفة بما عرضناه من براهين تؤكد الرؤية غير الكلية، أي تنفي الشمولية الكلية المطلقة، ندعو القارئ إلى أن يتأمل معنا لغز الاستقراء كما عرضه دافيد هيوم في القرن الثامن عشر. تساءل هيوم: ما الذي يبرر لنا أن الطعام الذي نتغذى به اليوم سوف يكون لنا غدا؟ لا سبيل إلى حل استنتاجي للمشكلة. إن عبارة: "هذا الطعام كان إذا لي اليوم، ولذلك سيكون غذاء لي غدا" هي عبارة احتمالية خالصة تفتقر إلى اليقين اللازم للقياس.

وذهب الفيلسوف نيلسون جودمان إلى أن حل لغز الاستقراء يتمثل في التماس توازن انعكاسي Reflective equilibrium بين قواعد الاستدلال الاستقرائي والاستدلالات المحددة التي نجريها فعليا. وهذا هو ما نفعله بالنسبة لقواعد الاستدلال: حري أن نسقط أي قاعدة استدلالية تستلزم منا

إجازة استدلالات رأينا أنها غير مقبولة وأن نرفض أى نتيجة تحظرها قاعدة نريد التخلى عنها. ولكن لنفترض وجود ثقافات لا تفكر كما "تفكـر نحـن"، علاوة على أنهم لا يدعمون مبادئ التفكير نفسها التـى نلتـزم بهـا! ورأى الفيلسوف ستيفن ستيك أن هذا من شأنه أن يقطع أوصـال مبـدأ التـوازن الانعكاسى. إننا إذا كنا لا نتفق بشأن ما إذا كان استدلال ما مبررا أم لا فإننا لن نستطيع أن نفيد بالمبدأ كعامل توجيه يصحح تفكيرنا، إنه لن يزيـد عـن كونه تعبيرا عن تفضيل شخصى. أحد الحلول المقترحة هو أن نكتفى بالقول نحن لدينا ما يبرر لنا استدلالاتنا وهم لديهم ما يبرر لهم استدلالاتهم، حتـى وإن اختلفت استدلالاتهم تماما عن استدلالاتنا. وطبيعى كم هو يسير اتخـاذ هذا الوضع النسبى المفرط ولكن لا أحد يؤمن به واقعيا. إنك إذا قلت لى إنك تؤمن بأن كلتا القضيتين المتناقضتين فعليا صحيحتان فإننى ربما أقول تأدبـا أنا على يقين من أن هذا صحيح بالنسبة لك ولكننى على صواب بالنسبة لى. هل أحدنا مقتنع بهذا؟ الاحتمال أن لا.

بيد أننى لا أريد أن أستقر فى هذا الفراش الخاص بالنسبية والـذى أسهمت فى صنعه. إننى أرى على العكس أن أنماط التفكير عند الآسـيويين تلقى ضوءا ذا قيمة عالية على بعض أخطاء التفكيـر لـدى الغـرب كمـا أن الصورة المقابلة نفسها قد يكون من المفيد عكـسها للنظـر إلـى الفكـر فى شرق آسيا.

وسوف أركز على عدد قليل فقط من عادات الفكر عند الغربيين التـى تتجلى واضحة عند مقابلتها بأنماط الفكر عند الشرق آسيويين.

الشكلانية formalism: يشتمل النهج المنطقى الشكلى للفكر الغربى على قوة مهولة. وواضح أن العلم والرياضيات يرتكزان عليه وإن اختلفت الآراء حول مدى هذا الاعتماد. وسبق أن قال فرنسيس بيكون: "المنطق لا جدوى منه، العلم هو الإبداع". وأعرب برتراند رسل عن رأيه بأن القياسات المنطقية لدى رهبان القرن الثانى عشر عمل عقيم. وعلى الرغم من أننى أجنح إلى الموافقة، إلا أن هذه قضية ملغزة تأتى على لسان، من آمن بأن كل مشكلات البشرية يمكن حسمها بالمنطق، ولكن بأن نطبق فقط المنطق الشكلى على قضايا العالم الواقعى. وعندى أن هذا أحال تحليله للقضايا السياسية والاجتماعية إلى شيء ساذج. إن القضية الرئيسية فى مشكلته هى إصراره على الفصل بين الشكل والمحتوى، وهكذا يمكن المضى قدما بالتفكير على أساس المبادئ المنطقية الخاصة بالشكل فقط. هذا هو المرض المزمن الذى يعانى منه الغرب. ويقول فى هذا الصدد الفيلسوف إس. إتش. ليو: "الصينيون أعقل من أن يفصلوا الشكل عن المحتوى".

مشكلة ثانية بالنسبة لبرتراند رسل هى أنه، شأن غالبية الغربيين، كان يعوزه إلى حد كبير ما يمكن أن نسميه "مخططات التفكير" للنزعة الجدلية. وجدير بالذكر أن كثيرا من هذه المخططات حددها (دون استخدام مصطلح "النزعة الجدلية") عالما علم نفس النمو كلاوس ريجيل وميشيل باسيكس.اختلف هذان العالمان مع رأى جان بياجيه الذى يفيد بأن القسط الأكبر من التفكير يتم عن طريق ما يسمى العمليات الشكلية أو المبادئ المنطقية التى تتوفر بحلول سن البلوغ. ويرى هذان العالمان أن القسط الأكبر من التفكير عالى المستوى يجرى عن طريق العمليات بعد الشكلية postformal operations مخططات تفكير أكثر تعقدا وأشد ارتباطا بمحتوى

فكرى محدد عنها بالقواعد المنطقية. وسمياها "بعد شكلى" لأنه من المفترض أنها تتطور أولا بعد اكتمال العمليات الشكلية. ويعتقد كل من ريجيل وبيسيكس أن تقدم نمو العمليات بعد الشكلية يظل مستمرا مدى الحياة. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة التى وردت ضمن أعمال بيسيكس:

مفهوم الحركة الانتقالية من الأطروحة إلى نقيضها ثم إلى المركب منهما.

القدرة على فهم الأحداث أو المواقف باعتبارها لحظات فى طور عملية ما.

إدراك إمكانية حدوث تغير كيفى نتيجة تغير كمى.

القدرة على اتخاذ موقف فكرى من النسبية السياقية.

إدراك قيمة أطر فكرية عديدة عن مشكلة ما.

إدراك عثرات النزعة الشكلية المبنية على الاعتماد المتبادل بين الشكل والمحتوى.

القدرة على تمييز المفهوم العقلى للعلاقات المتقابلة فى اتجاهين.

القدرة على تمييز مفهوم المنظومات ذاتية التحول.

القدرة على تصور المنظومات فى ضوء توازنها.

والغريب أن كلا من ريجيل وباسيكس فيما يبدو لم يكتشف كتابة الرابطة بين أفكارهم عن العمليات بعد الشكلية والجوانب الجدلية فى فكر شرق آسيا على الرغم من أنهما على أرجح تقدير، كما يبدو، كانا غير

مدركين لأوجه التماثل. وثمة احتمال فى الواقع بأنهما اعتمدا على أفكار شرق آسيوية لاستحداث مخططاتهما.

نقيصتان غربيتان تتمثلان فى فصل الشكل عن المحتوى وفى الإصرار على المناهج المنطقية، أديا معا فى غالب الأحيان إلى إنتاج قدر كبير من الهراء الأكاديمى. ويشتمل مجال تخصصى فى علم النفس على قدر وفير من الأمثلة التى توضح ما ذهبت إليه. وأذكر تحديدا أن قدرا كبيرا من صياغة نماذج للظواهر المنطقية النفسية على أساس المنطق الشكلى – وأنا واع بأغلبها – يفشل فى توضيح الظواهر المستهدفة. إن البهجة تكمن فى صياغة النماذج لذاتها وليس لفهم السلوك. وحدث أن أخبرنى أصدقاء اقتصاديون أن الشىء البطولى فى علم الاقتصاد هو أن ننتقى المبدأ غير المقبول عقلا ثم نستخرج منه أكبر عدد ممكن من الظواهر.

المنطق ثنائى القيمة:

كثير من مفكرى الغرب ناحوا باللائمة على النهج الثنائى، إما/ أو فى تقييم القضايا الذى يعتبر خاصية مميزة للغرب. ولكن أيسر على المرء أن يرى المشكلات من منظور (كلا من/ و) وهو النهج المتبع فى شرق آسيا. مثال ذلك إصرار الغرب على أن سلوكا ما له سبب واحد بدلا من أسباب عدة، يفضى بالناس إلى النظر إلى السلوك على أساس إما أن سببه داخلى أو سببه خارجي وليس الاثنين معا. وهكذا يمكن للمرء أن يتصرف بدافع من الكرم أو لإشباع دافع يخدم الذات، وليس للطرازين معا من الأسباب. والتزم آدم سميث هذا المنظور فى دفاعه الشهير عن الرأسمالية إذ قال: "إن الخباز

أو الجزار لا يزودك أيها العميل بطعامك من باب الرعاية والحرص عليـك بل بسبب حرصه على نفسه". ولكننا عند التفكير نسأل: ولماذا لا يكون الدافعان معا؟ يقينا إن تجارا كثيرين يديرون مشروعاتهم لإطعام أسرهم هم ولكن أيضا وبالمثل يسهمون فى المساعدة فى إطعام آخرين. لقد أدرك سميث نفسه هذه الحقيقة ولكن أغفلها أو لم يقدرها حق قدرها كثيرون من تلامذته وتابعيه.

وهناك مفارقة ساخرة بشأن دوافع السياسيين التى تمثل سمة مميزة للأمريكيين؛ إذ مهما كان احتمال هذه الدوافع أن تكون مفيدة للحفاظ على الحريات الشخصية إلا أن المرجح أن تتولد عنها بعض التقييمات غير الصحيحة. إن أيا من ليندون جونسون أو ريتشارد نيكسون ليس من بين السياسيين المفضلين عندى، ولكن سادت نظرة على نطاق واسع ترى أنهما أقدما على أعمال بهدف تحقيق كسب سياسى فى الوقت الذى أقدما فيه على أمور اعتقدا هما نفساهما أنها ستؤدى إلى خسائر سياسية جسيمة. تصور كثيرون أن جونسون كان يحاول تعزيز رأسماله السياسى بالنضال دفاعا عن مشروعات قوانين الحقوق المدنية التى دعا إليها كينيدى، ولكنه فى واقع الأمر كان يعرف ــ أفضل مما كان يعرف كينيدى ــ أنه بذلك يتخلى عن الجنوب للحزب الجمهورى على مدى جيل كامل، وظن كثيرون أن نيكسون كان يلتمس كسبا سياسيا شخصيا بفتح الطريق إلى الصين، هذا فى الوقت الذى كان فيه هو وكثيرون من مساعديه يخافون من أن تكون هذه المحاولة نقلة غير شعبية إلى أقصى حد.

وهناك قدر ضئيل من البراهين التى تؤكد أن الغربيين يمكن أن يكونوا أكثر تعرضا من سواهم "لخطأ الدافع الوحيد". وأذكر أن عالمى علم نفس النمو جوان ميللر ودافيد بيرسون قصا على أطفال أمريكيين ومن شرق الهند حالات ساعد فيها شخص شخصا آخر، ولوحظ فى بعض الحالات أن المساعد توقع مردودا مقابلا لمساعدته فى بعض الأحيان ولم يتوقع ذلك فى حالات أخرى. افترض الأطفال الهنود أن المساعد كان شغوفا فى باطنه عن أصالة لكى يقدم العون بغض النظر عن التوقعات بمردود مقابل. واعتقد الأطفال الأمريكيون أن هناك دافعًا باطنيًا أصيلاً للمساعدة فى حالة واحدة فقط، وهو ألا يكون هناك توقعا بمردود مقابل.

الخطأ الأساسى فى نسبة الأسباب:

ويعنى الميل إلى افتراض أن سلوك شخص آخر إنما نتج عن سمات أو قدرات شخصية مع إغفال عوامل موقفية مهمة أحيانا أو التهوين منها. ويمثل الخطأ الأساسى فى نسبة الأسباب واحدا من أهم الظواهر فى علم النفس الاجتماعى التى أثبتتها براهين على أفضل وجه. وذهب النقاد أحيانا إلى أن هذا الميل لا يمثل خطأ على الإطلاق. ولكن أبناء شرق آسيا أقل عرضة من الأمريكيين للوقوع فى هذا الخطأ فى بعض الحالات، فضلا عن أنه سرعان ما يجرى تصحيح الخطأ عندما يتضح لهم الموقف بشكل أو بآخر. وليس بوسع الناقد الأخذ بالأمرين معا. إما أن يكون الغربيون على خطأ فى تلك الحالات التى يغفلون فيها تأثيرات الموقف، أو أن يكون الشرق آسيويون على خطأ عندما يضعون تأثيرات الموقف فى الاعتبار. ولعل

الموقف المقبول أكثر من سواه، خاصة فى ضوء المعطيات التى تبين أن الأمريكيين أميل إلى الانتباه فقط للموضوعات البارزة وإغفال السياق، هو القول إن الأمريكيين هم المخطئون والشرق آسيويين هم المصيبون فى هذه الحالات.

وجدير بالملاحظة أن البحوث بشأن الخطأ الأساسى فى نسبة الأسباب لها دلالاتها المؤثرة فيما وراء ما يختص بالابستومولوجيا. إن العمل مهم أيضا لعلم الأخلاق، وهذه نقطة أكدها فلاسفة عديدون نذكر من بينهم جون دوريس وجيلبرت هارمان وبيتر فراناس، علاوة على كثيرين من علماء النفس. إذ يلحظ هؤلاء أن الأخلاق عند أرسطو التى كان لها دور هائل فى تاريخ الفلسفة الغربية تماثل الفيزيقا عنده. الناس مثل الموضوعات، يتصرفون على النحو الذى يتصرفون به بسبب خاصياتهم؛ الفضائل أو الرذائل فى حالة الأخلاق ذات الصلة بسلوك الناس. وواضح أن "أخلاق الفضيلة" عند أرسطو أكثر اتساقا مع الفكر الغربى العامى عنه مع معتقدات شرق آسيا بشأن السلوك الأخلاقى. ويشجع مذهب أرسطو المرء على أن يفترض أن لا سبيل إلى تقويم وإصلاح الناس أو أن يتخذ موقفا يقضى بضرورة تبديل السلوك عن طريق تغيير الخاصيات التى يتصف بها الناس، وهذه مهمة عسيرة على أحسن الفروض وغير مجدية على أسوأ الفروض. إنك إذا شئت أن تجعل الناس تتصرف على نحو ما تعتقد أنت أنه السلوك الذى ينبغى أن يكون فإن أيسر سبيل هى تشجيعهم على التماس مواقف تولد عنهم أفضل سلوك، وأن ينأوا بأنفسهم بعيدا عن أى مواقف تحثهم على السلوك الردىء. ويلاحظ أن مثل هذا النهج للحث على السلوك الأخلاقى نراه أكثر وضوحا من زاوية النظر الشرق آسيوية عنه من زاوية النظر الغربية.

التحول عدل وإنصاف، كما أنه بالإمكان أيضا أن نستخدم المبادئ الغربية كنقطة ارتكاز لنقد الفكر الشرق آسيوى. ونعرض فيما يلى تخطيطا عاما لما يمكن أن يكون عليه مثل هذا المشروع.

<u>التناقض:</u> إن أسلوب طرح المشكلات لاكتشاف حلول لها فى صورة "هناك صدق على الجانبين" يمكن أن يكون مناسبا جدا كنهج نستخدمه أولا لفهم أى تناقض ظاهرى. ويمكن أن يكون أيضا أسلوبا جيدا للإنجاز فى غالب الأوقات. بيد أنه ليس إجراء حسابيا ميكانيكيا من الأفضل الالتزام به دون تردد. إذ يحدث أحيانا أن قضية ما يكون كل الصدق أو أغلبه إلى جانبها، وقدر قليل إلى جانب الأخرى. ولقد رأينا كيف أن أبناء شرق آسيا أميل من الأمريكيين إلى أن يولوا ثقتهم وتصديقهم لكل من القضيتين اللتين بينهما علاقة تناقض، وأنه يمكن أن ينتهى بهم هذا إلى الوقوع فى خطأ خطير يتمثل فى تصديق قضية بذاتها أكثر من الأخرى حين يرونها تناقض قضية أكثر قبولا عما لو رأوها وحدها. ويكاد يكون من المستحيل الدفاع عن هذا على أسس منطقية ولكن يمكن تبينه كنتيجة للإصرار على التماس طريق وسطى. ويؤكد لنا انكيول تشوى أن عدم الحساسية النسبية لدى أبناء شرق آسيا إزاء التناقض يحد على الأرجح من فضولهم المعرفى اللازم لكى يكونوا علماء. وسواء أكان هذا خيرا أم شرا فإنه رهن بالأفضلية. بيد أنه من الأمور وثيقة الصلة يقينا أن المسئولين عن إدارة شئون مجتمعات شرق آسيا الآن يسعون إلى تحقيق القدرة على إنتاج علماء.

الحوار والخطابة: أشارك الغربيين إيمانهم بفعالية الحوار وصولا إلى الصدق أو الحقيقة أو الإبقاء على فروض مطروحة للنقاش على مائدة الحوار لما قد تحمله من فائدة. ولا ريب فى أن الأسلوب الغربى للحوار وما يشجعه من عادات ذهنية مهم للحفاظ على المجتمعات منفتحة بعقول واسعة الأفق. ويتلازم الحوار أيضا بفن خطابة معيارى على أساس الفرض ـ البينة ـ النتيجة، وهو المنهج الذى يعتمد عليه بقوة العلم والرياضيات. وسبق لى أن استشهدت باقتباس من عالم الفيزياء ألان كرومر الذى يؤكد أن "البرهان الهندسى هو الشكل الخطابى فى أقصى صوره". وجدير بالذكر أن عالم النفس والإحصائى روبرت أبيلسون ألف كتابا جميلا يصف الإحصاء بأنها فى جوهرها خطابية. وأعتقد أن العبارات المجازية هنا عميقة الدلالة وصحيحة المعنى.

التعقد: قال مفكر غربى: "إذا كان الكون يشبه فى شكله البسكويتة المعقدة إذن لابد أن تكون فروضنا أيضا معقدة على شاكلته". وهذا صحيح تماما. ولكننا إذا ما بدأنا بفروض معقدة الشكل فلابد أن يأخذ الكون شكلا معقدا، وإلا فلن تسنح لنا فرصة لنعرف على أى شكل هو. ونحن سنكون فى وضع أفضل مع أى شكل آخر غير شكل العقدة، إذ نبدأ بخط مستقيم ونعدله حين يتضح لنا أن الفرض الخطى شديد البساطة. ولا ريب فى أن أبناء شرق آسيا على صواب فى اعتقادهم بأن العالم مكان معقد، وربما يكون من الصواب التعامل مع الحياة اليومية على أساس هذا الموقف. ومع هذا نحن فى العلم نكون أقرب إلى الحقيقة سريعا حين نتحمل قسوة التعقد عن أن نرحب فى بساطة بكل عامل نتصور أنه ذو صلة.

وطبيعى أن أى ملاحظات إرشادية مثل تلك المعروضة فى هذا الباب لن يكون لها معنى أو قيمة إلا إذا عرفنا أن بالإمكان تغيير عادات العقل عند الناس. هل يمكن هذا؟

التعليم والاختبار:

هل ينبغى على المعلمين أن يلتمسوا السبيل لتقديم مهارات الثقافات الأخرى إلى أبنائهم أم ينبغى أن يركزوا على ما يحدده المجتمع على أنه مهم فى ثقافة مجتمعهم؟

اعتاد الأمريكيون سماع أخبار عن النجاحات التعليمية التى يحققها أبناء شرق آسيا أو الأمريكيون من أصول شرق آسيوية سواء فى شرق آسيا أو فى الولايات المتحدة، حتى ليبدو الأمر أشبه بالصدمة أن تسمع أن أبناء رجال الأعمال اليابانيين المقيمين فى الولايات المتحدة يوصفون فى المدارس الأمريكية بـ"المعاقين تعليميا" ويعودون إلى بلادهم. إن عجزهم عن أداء التحليل السببى ـ فى دراسة التاريخ كمثال ـ وفقا لأكثر السبل البدائية المتوقعة من الأطفال الأمريكيين يفضى إلى الاعتقاد بأنهم ضعاف معرفيا.

وجدير بالذكر أن المهارات التحليلية السببية ليست المجال الوحيد الذى يعتقد أحيانا رجال التعليم الأمريكيون أن أبناء شرق آسيا ضعاف فيه. إن الحوار أداة تعليمية مهمة لتعليم مهارات التفكير التحليلى وفرض وعى ذاتى بصواب أفكار المرء. وهذه نظرة يتزايد أعداد من يؤمنون بها من غير الغربيين الآن. لقد أصبح التعلم عن طريق الحوار صناعة تصديرية أمريكية ثانوية، علاوة على الشباب الوافدين من جميع أنحاء العالم وبخاصة أبناء شرق آسيا للإقامة فى معسكرات الحوار فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وحدث منذ بضع سنوات مضت أن طالبة كورية خريجة إحدى الجامعات اسمها هيجونج كيم كانت تدرس علم النفس فى معهد ستانفورد. وأعربت الطالبة عن سخطها بسبب إلحاح معلميها الأمريكيين بمطالباتهم منها أن تعبر عن رأيها داخل قاعة الدرس. وقيل لها مرارا إن عدم التعبير صراحة عن رأيها يمكن اعتباره مؤشرا على الفشل فى فهم مادة الدرس فهما كاملا. وقيل لها كذلك إن التعبير عن الرأى وسماع ردود أفعال المعلم والزملاء والزميلات من شأنه أن يساعدها على فهم الدرس على نحو أفضل. ولكن الأمر على العكس، إذ كانت تشعر هى وزملاؤها الطلاب من شرق آسيا أو الأمريكيون من أصول شرق آسيوية أنهم لن يفيدوا من الكلام لأن سبيلهم الأساسى لفهم موضوع الدرس ليس سبيلا كلامية. إن شرق آسيا تسوده يقينا تقاليد عريقة تساوى الصمت دون الكلام بالمعرفة. وتعرف أن الحكيم الصينى لاو ـ تسو فى القرن السادس قبل الميلاد قال: "من يعرف لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعرف". وتوضح كيم الفارق بتذكيرنا بالتمايز الذى كشفنا عنه فى دراستنا بين الفكر التحليلى والفكر الكلى. إن الفكر التحليلى الذى يشرح العالم فى صورة عدد محدود من الموضوعات المنفصلة، ولكل موضوع صفاته الخاصة والمحددة بحيث يمكننا تصنيفها بطرق واضحة إلى فئات متمايزة إنما يعكس ذاته فى اللغة نفسها. ولكن الفكر الكلى الذى يستجيب لمجموعات أكبر وأوسع نطاقا من الموضوعات وعلاقاتها، والذى يكشف عن أقل قدر من التمايزات الصارخة بين الصفات أو الفئات ـ المقولات هو فكر يتلاءم فى أدنى حد مع التمثيل اللسانى.

أردنا أن نختبر إمكانية أن يجد الشرق آسيويون والأمريكيون من أصل شرق آسيوى أن من العسير عليهم استخدام اللغة للإعلان عن الفكر. طلبت كيم من المشاركين التحدث بصوت عال أثناء محاولتهم حل أنواع مختلفة من المشكلات. لم يكن لهذا أثر على أداء الأمريكيين الأوروبيين. ولكن شرط التحدث بصوت عال أضر كثيرا بأداء الشرق آسيويين والأمريكيين من أصل شرق آسيوى. وطبيعى أن هذا العمل مقنع شأن جميع الاختبارات التى عرضها هذا الكتاب عن الطبيعة المختلفة للفكر عند كل من أبناء شرق آسيا من ناحية والغربيين من ناحية أخرى، وهذا أمر له دلالاته المهمة إلى أقصى حد. كيف يمكن لنا أن نعلم أبناء شرق آسيا والأمريكيين من أصول شرق آسيوية داخل قاعات الدرس الأمريكية؟ هل هذا شكل من أشكال "الاستعمار" أن تطالبهم بالأداء اللفظى ومشاركة زملائهم فكرهم؟ ترى هل يؤدى هذا إلى تقويض المهارات الملازمة للنهج الكلى فى رؤية العالم؟ أم أن هذا مجرد حس مشترك لإعدادهم لعالم تكون فيه مهارات التعبير اللفظى ميسورة حتى وإن تعذر عليهم بلوغها؟

ثمة ميزتان واضحتان للمعرفة فى شرق آسيا: (١) حقيقة أن الشرق آسيويين يرون فى مشهد ما أو سياق ما أكثر مما يراه الغربيون. (٢) النهج الكلى، الجدلى، القائم على التماس طريق وسطى فى حل المشكلات. لندع جانبا الآن السؤال عما إذا كان ينبغى أن يتعلم الغربيون هذه المهارات. وأذكر أن الدراسات التى أعدها عالما علم النفس المعرفى دافيد ماير ودافيد

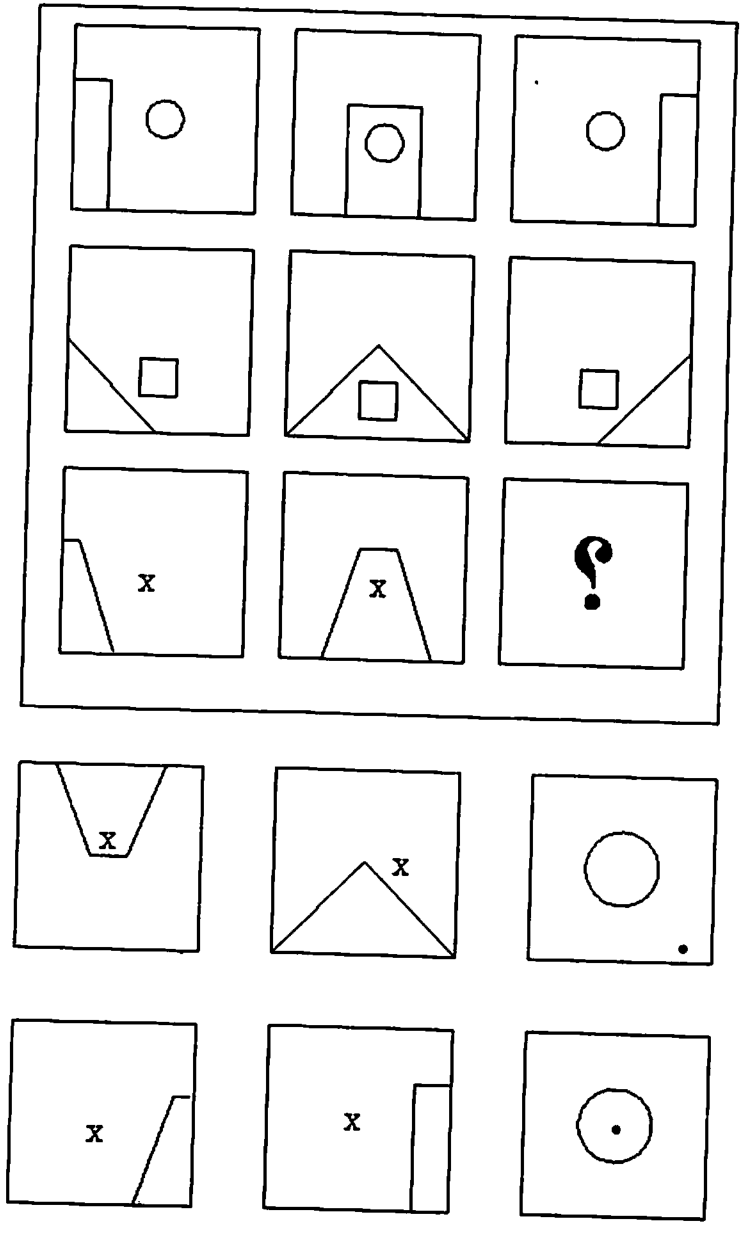
كيبراس اشتملت على بعض الإلمامات التى تفيد بأن الأمر قد يكون يسيرا على نحو مثير للدهشة لفتح "عنق الزجاجة" فيما يتعلق بالأداء الإدراكى والأداء الحركى ــ الإدراكى. إذ يمكن تعليم الناس الانتباه إلى نطاق أوسع من المنبهات المختلفة والاستجابة لها على نحو أسرع وأدق وذلك بفضل كم متواضع من التدريبات. ولكننى أرى الجوانب المعرفية للنهج الكلى والجدلى فى التفكير أمرا مختلفا تماما. إنها بعض سدى ولحمة الإدراك والفلسفة بل والمزاج حتى ليبدو لى أنه من المشكوك فيه أن يحقق التغيير إنجازا كبيرا. ولكن يسعدنى كثيرا أن أكون مخطئا.

وعرف القرن الماضى فرضا أشبه بالمسلمات بشأن اختبار الذكاء إذ يرى أن بالإمكان اختبار الذكاء بطريقة منصفة أو مبرأة من القيود الثقافية. وأجمع الخبراء على أن التحيزات الثقافية يمكن أن تتخلل اختبارات الذكاء المعتمدة على اللغة. وأكثر من هذا ذوو المكانة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة داخل ثقافة ما لهم كلماتهم المختلفة. كذلك فإن المقارنة تصبح غير ذات معنى بين الثقافات واللغات المتباينة. ولكن ثمة توافقا فى الآراء يفيد بأننا إذا اختبرنا الذكاء بدون استخدام الكلمات فإنه يصبح مقبولا عمل مقارنات بين جماعات من ثقافات مختلفة.

أرجو من القارئ أن يلقى نظرة على الرسم الموضح فى الصفحة التالية الذى يشتمل على عدد كبير من الصناديق. يعرض الرسم مشكلة تماثل المشكلات التى تعرضها اختبارات مشهورة حريصة على أن لا تكون

منحازة ثقافيا مثل اختبار كاتيل الذى لا تقيده الظروف الثقافية لقياس الذكاء Cattel Culture-fair intelligence test واختبار رافين للمصفوفات المتتابعة Raven's progressive Matrices test. وتتمثل مهمة الشخص موضوع الاختبار فى النظر إلى الموضوعات القليلة الأولى فى المصفوفة فى رأس الصفحة، ويقدر ماذا عسى أن يكون الموضوع التالى من بين الخيارات الست المعروضة تحت المصفوفة. وتم عرض كل منها فى دوائر ومثلثات ومربعات بحيث لا مجال للحديث عن ميزة غير منصفة. وحرى أن ما يقاس هنا هو فقط ما يمكن أن نسميه الذكاء الخام Raw intelligence. بيد أننا إذا نظرنا إليها فى ضوء الأفكار المقترحة فى هذا الكتاب يمكن القول إن الاختبار يتلاءم مع قوى الغربيين ويعمل لصالحهم. إذ إنه يتألف من تحديد قسمات وثيقة الصلة ويقرر كيف يجرى تصنيفها واكتشاف القاعدة التى تفسر على أحسن وجه أسلوب التعامل مع الفئات.

تشكل فريق عمل برئاسة دنيس بارك وتراى هيدين بجامعة ميتشيجان وفيشنج جنج من معهد علم النفس الصينى وأنا. وقام الفريق باختبار ذكاء طلاب جامعيين أمريكيين وصينيين وأشخاص من كبار السن. واتبعنا ثلاث طرق: اختبار السرعة والذاكرة المرتبط بدرجات معامل الذكاء (على الأقل بين السكان الغربيين حيث جرت دراسة المسألة)؛ وعن طريق الدرجة المئوية للمعلومات العامة بالمقارنة بين التجمعات وثيقة الصلة (أيضا بينها وبين درجات معامل الذكاء معامل ارتباط مرتفع)؛ وعن طريق اختبار كاتيل لقياس الذكاء غير المقيد بالظروف الثقافية.

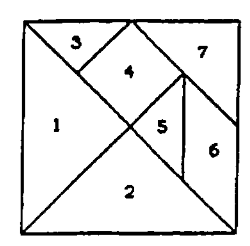


مثال لأحد بنود اختبار قياس الذكاء غير المقيد بالظروف الثقافية

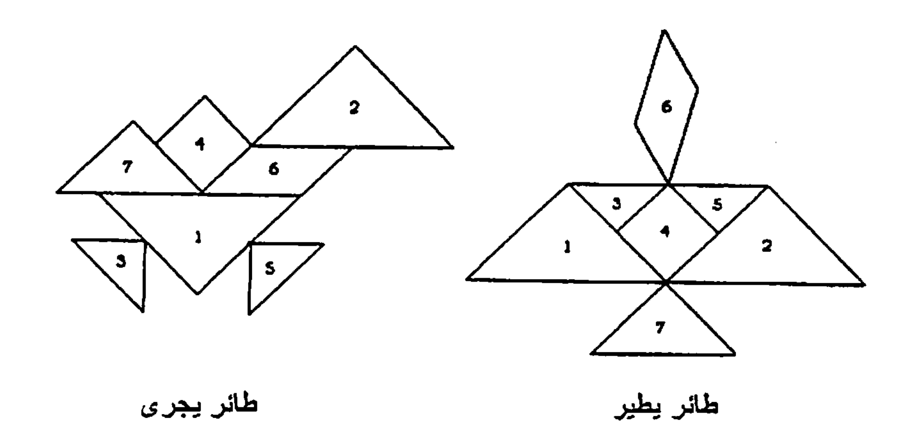
وعمدنا إلى ضمان تعادل الفرق من حيث السرعة والذكاء بحيث كان للشباب من الأمريكيين والصينيين درجات متطابقة فى المتوسط العام، وهو ما حدث لكبار السن من الأمريكيين والصينيين أيضا. (لوحظ أن الشباب أسرع كثيرا وذاكرتهم أفضل، لذلك لم يكن ممكنا كفالة التعادل لهذه المتغيرات على أساس المجموعات العمرية). وحددنا درجات مئوية متطابقة للمعلومات أيضا (لوحظ، كما هى العادة، أن كبار السن فى عيناتنا حصلوا على درجات أعلى من الشباب فى المعلومات). ولكن على الرغم من هذه المباراة تأسيسا على قياسين شديدى الاختلاف للذكاء فإن الأمريكيين، سواء الشباب أم كبار السن، حصلوا على درجات أفضل موضوعيا من الصينيين فى الاختبار غير المقيد بالظروف الثقافية. وكان الفارق كبيرا جدا (أكثر من أربعة أخماس الانحراف المعيارى بالنسبة للقراء ذوى الألفة بالإحصاء). بيد أننا إذا أخذنا نتائج اختبار كاتيل جديا وطرحنا جانبا المعلومات الأخرى عن القدرات سنخلص إلى نتيجة محددة، وهى أن الأمريكيين أذكى كثيرا من الصينيين (أو أن يكون لنا حق المطالبة بتكوين عينة عشوائية من التجمعات ذات الصلة، وهو ما لم نفعله).

والآن لنلقِ نظرة معا على الرسم الموضح فى الصفحة التالية. طلب الباحثون من الشخص موضوع الاختبار أن ينظر إلى القالب المرسوم فى رأس الصفحة وأن يستخرج صورة "طائر يجرى" و"طائر يطير" عن طريق ترتيب عدد من القطع مع بعضها ترتيبا صحيحا. (وحتى نريح القارئ من مشكلة عمل هذه الصور قدمنا الإجابات أسفل الصفحة). ويشبه هذا البند ما يطالب به "مركز خدمة القياس التربوى Educational testing service لقياس استعداد العلاقات المكانية Spatial Relations aptitude لدى طلاب السنة

النهائية بالمدرسة العليا. وهذه فى الحقيقة مشكلة تجاوز عمرها الألف سـنة، وقد صممت لغرض اختيار كبار موظفى الإدارة فى الصين. والمعروف أن الصينيين واليابانيين اليوم، وأيا كان السبب، يعلمون تلاميذ المدارس الابتدائية كيفية حل مشكلات كهذه. علاوة على هذا فإن الأنواع المحددة من التحليـل المكانى اللازم لقراءة وكتابة اللغة التصويرية، وكذا الطبيعة الكلية للثقافـات الشرق آسيوية، كل هذا من شأنه، كما يبدو، غـرس المهـارات المكانيـة. والحقيقة أن أبناء شرق آسيا والأمريكيين من أصول شرق آسيوية جمـيعهم بوجه عام يتفوقون على الأمريكيين الأوروبيين فى المهام المكانية.



المشكلة: استخراج قصاصات تصنع صورة طائر يطير وطائر يجرى من الأشكال الموضحة عاليه



(الفوارق عادة كبيرة جدا ـ إنه نموذجيا الجزء الأفضل من الانحراف المعيارى). وإذا كان ثمة سبب لافتراض أن المجموعات جرى اختيارها كعينات عشوائية (وهو ما لم يحدث) فإن هذا ربما يحث البعض على الدفع بأن أبناء شرق آسيا أكثر ذكاء من جماعات من أبناء الثقافة الأوروبية. وهذه حقيقة. ونجد مثل هذا الرأى متضمنا بين ثنايا الكثير من القضايا المبهمة فى كتاب "منحنى الجرس" تأليف ريتشارد هيرنشتاين وشارلس موراى، علاوة على هذا التأكيد بأن النتيجة المكتشفة دليل قوى على الأساس الجينى للاختلاف، ما دامت هذه الاختبارات المكانية مبرأة كما هو واضح من القيود الثقافية.

ونعرف أن التنوع العرقى أمر صادف ترحيبا لأسباب كثيرة على اختلاف أنواعها. ونذكر أن من بين هذه الأسباب أن البيئات التعليمية والعملية تثرى وتغتنى بفضل سكانها ذوى الخلفيات المتنوعة. وجدير بالذكر أن دراستنا تدعم بقوة الدفع بأن الآراء المتنوعة من شأنها أن تساعد فى حل المشكلة. ونعرف أن التوجهات والمهارات المعرفية لدى أبناء شرق آسيا والثقافات الأوروبية بينها اختلاف واضح. لذلك يبدو لنا أنه من المرجح جدا أنها جميعا تكمل وتثرى بعضها بعضا فى أى مجال يجمع بينها. ولنا أن نتوقع أن المرء إذ يتصدى لحل المشكلات سيكون فى وضع أفضل وسط خليط من الناس من ذوى الثقافات المختلفة عن أن يكون كل من حوله من أبناء ثقافة واحدة.

بيد أن بقاء وصمود ميزة التنوع رهن اهتمامنا وانشغالنا بعملية تكفل إضفاء التجانس على الصعيد العالمى.

خاتمة

أنهاية علم النفس
أم صدام ذهنيات؟

علماء الاجتماع فى ميادين كثيرة يناقشون الآن نظرتين عن المستقبل بينهما خلاف شديد. إحداهما يتزعمها العالم السياسى فرنسيس فوكوياما، الذى يفترض تلاقى المنظومات العالمية السياسية والاقتصادية، وبالتالى منظومات القيم. وتتنبأ النظرة الأخرى باستمرار الاختلاف. كتب فوكوياما عن "نهاية التاريخ" بمعنى أن الرأسمالية والديمقراطية فازتا، ولا توجد قوى فى الأفق يمكن أن تتولد عنها أحداث مهمة (كما هو حال اللعنة الصينية، ونتمنى له طول العمر فى أزمنة مهمة). النظرة الأخرى يتزعمها عالم السياسة صمويل هنتنجتون ويتنبأ باستمرار الاختلاف. إن هنتنجتون أبعد ما يكون عن قبول رؤية فوكوياما عن التلاقى المجتمعى، ويعلن أن العالم على حافة "صدام حضارات" بين جماعات ثقافية رئيسية من بينها شرق آسيا والإسلام والغرب. وهذه القوى محصورة داخل تضاد فيما بينها لا فكاك منه بسبب الاختلافات التى لا يمكن التوفيق بينها من حيث القيم والنظرة إلى العالم: "نحن على عتبة عالم بازغ زاخر بالصراع العرقى والصدام الحضارى. وإن عقيدة الغرب المؤمنة بكونية وشمولية الثقافة الغربية تعانى فى هذا العالم الآن من ثلاث مشكلات هى: زائفة ولا أخلاقية وخطرة.

وطبيعى إذا كانت أشكال النظم الاقتصادية ونظم الحكم واحدة فى كل مكان فى العالم، فإن هذا يشير إلى أن الخصائص النفسية للشعوب ستكون واحدة أيضًا. ولكن من ناحية أخرى يشير صدام الحضارات إلى إمكانية اطراد التباين فى عادات الفكر. فهل هذا يعنى أن الفوارق المعرفية التى وثقها هذا الكتاب ستتحول لتصبح مجرد اهتمام تاريخى؟ هل مآلها أن تختفى بعد خمسين أو مائة عام بسبب تلاقى القيم والمنظومات الاجتماعية؟ وهل سيصبح أصحاب النظرة الكونية الكلية على صواب وإن كان ذلك لأسباب خاطئة؟ (صواب لأن كل امرئ سيفكر بالطريقة نفسها، وخطأ لأن أسباب ذلك لن تكون أسبابًا بيولوجية بل ثقافية). أم أن الفوارق ستبقى ـ مثلما بقيت لآلاف السنين؟

هل هو التغريب؟

آراء فوكوياما تأخذ بألباب كثيرين فى الغرب، ربما الأمريكان بخاصة، ممن ينزعون إلى افتراض أن كل إنسان هو أمريكى الهوى والفكر فى قلبه، وإن لم يكن كذلك فإن المسألة مسألة وقت فقط ليكون كذلك. وثمة أدلة سطحية الطابع كثيرة العدد تدعم هذا الاعتقاد. الناس فى كل بلدان العالم يرتدون الجينز والـ تى ـ شيرت والأحذية النايك ويشربون الكوكاكولا ويستمعون إلى الموسيقى الأمريكية، ويشاهدون سينما وبرامج تليفزيونية أمريكية (حتى فرنسا أحست مؤخرًا أنه من الضرورى أن تسمح بنسبة من برامج التليفزيون أمريكية المنشأ تصل إلى ٢٥ بالمائة من إجمالى المعروض. ونجدها من ناحية أخرى استسلمت فى مجال اللغة وقررت أن يتعلم تلاميذ المدارس الابتدائية الفرنسية اللغة الإنجليزية). وأكد لى باحثون

من شرق آسيا أن التعليم العالى فى شرق آسيا تغلب عليه طبيعة غربية متزايدة: التأكيد على التحليل والنقد والمنطق والنهج الشكلى فى حل المشكلات.

ونجد بعض الشواهد والأدلة على أن التنشئة الاجتماعية للأطفال فى شرق آسيا تتجه نحو النمط الغربى. وسبق أن رصد هارولد ستيفنسون وزملاؤه أمهات الأطفال فى مدرسة ابتدائية محددة فى بكين على مدى أكثر من عقد ابتداء من منتصف الثمانينيات. وسألوهن عما يرونه لأطفالهن. كانت الأمهات، وقت بداية هذه الدراسة، يعنيهن تنمية مهارات العلاقات لدى أطفالهن: قدرتهم على التلاؤم مع الآخرين فى تناغم. وبعد عشر سنوات كانت الأمهات معنيات أساسًا بما يعنى الأمهات في الغرب: هل توفرت لابنى المهارات والروح الاستقلالية ليمضى قدمًا فى طريقه فى العالم؟

ومنذ بضع سنوات خلت شرعت أنا وكايبنج بنج ونانسى وونج فى مشروع دراسى للتأكد من أن كثير من الدراسات الاستقصائية عن القيم كانت تعرض فعلاً وصدقًا أن أبناء شرق آسيا أفادوا بأنهم يؤمنون بقيم "غربية" ويتمسكون بها بقوة أكثر من الغربيين أنفسهم. واكتشفنا نحن أنفسنا للحقيقة، أن طلاب جامعة بكين أفادوا بأنهم يعلون من قيمة المساواة والقدرة التخييلية Imaginativeness والاستقلال واتساع أفق التفكير والحياة المتنوعة وكانوا فى تقييمهم هذا أكثر من طلاب جامعة ميتشيجان. هذا بينما أفاد طلاب ميتشيجان أنهم يعلون من قيمة الانضباط الذاتى والولاء، بل واحترام التقليد واحترام الأبوين والمسنين، وكانوا فى هذا أكثر مما كان طلاب جامعة بكين! (خبرتى الشخصية كأب لطالبين بجامعة ميتشيجان تجعلنى أشك للغاية فى هذه

النتيجة). إن النتائج الغريبة ربما ترجع جزئيًا إلى أن قوائم حصر القيم بل ومقاييس الاتجاهات النفسية ليست وسائل جيدة جدًا للكشف عن القيم. ويلاحظ أننا حين عرضنا سيناريوهات تتضمن بشكل متكاثر قيمًا متعارضة، وسألنا المشاركين كيف لهم أن يتصرفوا فى مثل تلك المواقف؟ أو ماذا يفضلون أن يكون عليه سلوك الآخرين؟ حصلنا على نتائج تناظر توقعات الباحثين الأمريكيين والشرق آسيويين الذين يدرسون شرق آسيا. ولكن إذا كانت هناك أى درجة من الصدق فى الفكرة القائلة بأن الناس ينزعون إلى أن يصبحوا بالصورة التى يحاولون أن يكونوا عليها، أو أن يكونوا مرآة لما يقولونه عن أنفسهم، فإن عمليات المسح القيمى يمكن أن تكون نبوءة بالمستقبل.

هل تباعد مطرد؟

يذهب هنتنجتون إلى القول بأن افتراض أن ثقافات العالم ستتمثلها وتستوعبها ثقافات الغرب هو وهم ناشئ عن قصر نظر ومحورية عرقية. ذلك أن الفوارق المجتمعية كبيرة جدًا بحيث إن النزاعات الدولية مستقبلاً ستكون أقرب إلى نزاعات ثقافية المنشأ عنها نزاعات اقتصادية أو سياسية مثلما كانت فى الماضى. إن الإسلام وشرق آسيا (وبخاصة الصين) والغرب على مسارات ثقافية متباعدة. كذلك فإن النفوذ النسبى للغرب آخذ فى الانخفاض بسبب التقدم الاقتصادى فى الشرق الأقصى والزيادة السكانية للإسلام. لذا ليس بالضرورة أن يكون العالم آمنًا للديمقراطية وللأسواق الحرة.

هناك دليل يقينًا يحفز المرء إلى الدعوة لمساندة هذا الرأى.

تطبق اليابان نظام الاقتصاد الرأسمالى منذ أكثر من مائة عام، ولنا أن نتوقع أن يدعم النظام الرأسمالى قيم الاستقلال والحرية والعقلانية. ولكن ثمة شواهد لا حصر لها تدل على أن اليابان تغيرت قليلاً فى كثير من المجالات الاجتماعية، ونجد اختلافات كبيرة بين طريقة كل من اليابانيين والأمريكيين فى إدراك العالم والتفكير فيه. وأكثر من هذا أن النظام الرأسمالى نفسه تبدل ليتسق مع القيم الاجتماعية اليابانية. الولاء للشركة وروح الفريـــق والإدارة الاستشارية Consultative management والنهج التعاونى بين الصناعات، كل هذه التحولات نابعة من القيم الاجتماعية اليابانية. واعتقد كثيـــرون أن هـــذه القيم مسئولة أساسًا عن "المعجزة اليابانية" للتطوير الاقتصادى خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وسادت فى الحقيقة دعوة منذ خمسة عشر عامًـــا رأت أنه على الغرب أن يتحول إلى الأشكال اليابانية فى الإدارة وممارســـة الأعمال ليكون قادرًا على المنافسة. وطبيعى أن الأزمة الاقتصادية الراهنـــة التى تواجهها اليابان يعزوها كثيرون فى الأساس إلى هذه القيم الاجتماعيـــة ذاتها مثلما كانت سببًا فى نجاحها السابق. والملاحظ أن كثيرين من المراقبين الغربيين يرون اليوم أن تلك القيم (التى كانوا يؤيدونها هم أنفسهم فى السابق) بمثابة عوائق أسفرت عن عزوف شديد عن تحجيم عدد العاملين واســـتعداد كبير لإقراض أصدقاء فى شركات آفاقها الاقتصادية غامضة ومشكوك فيها.

وحققت اليابان لنفسها شكلاً ديمقراطيًا للحكم بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. ولكن دستورها كتبه الأمريكيون وربما يقول كثيرون إن نظام الحكم يشبه إلى حد كبير نظامًا أوليجاركيًا "حكومة الأغنياء" أكثر منه نظـــام

حكم ديمقراطي، على الأقل حتى عهد قريب جدًا. وليس واضحًا على أية حال ما هي الفترة الزمنية التي ينبغي أن يعيشها بلد ما في ظل الديمقراطية قبل أن يقرر المرء أن هذا البلد سيلتزم هذه السبيل خاصة حين يواجه توترات اقتصادية خطرة.

وتبدي الصين، بطبيعة الحال، اهتمامًا ضئيلاً بالديمقراطية في هذه المرحلة، أو لنقل إنها في جميع الأحوال، تبدو كأن قسطًا كبيرًا جرى اقتطاعه لأنصارها. هذا كما أن تبني الصين للرأسمالية أمر غير مقنع حتى هذه اللحظة. ويبدو أن كوريا أقبلت بقلب مفتوح على ممارسات السوق الحرة ولكن الديمقراطية لم يزد عمرها عن خمس سنوات في هذا البلد. وغير خاف أن كلا البلدين يظلان في الأساس بطبيعة الحال بلدين شرق آسيويين بالمعنى المعرفي.

وكما لحظ هنتنجتون فإن الغربيين ينزعون إلى الخلط بين التحديث - بمعنى التصنيع ومزيد من البنية المهنية المعقدة وزيادة في الثروة والحراك الاجتماعي ومحو أوسع نطاق من الأمية والتوسع في المدن - وبين التغريب. ولكن ثمة مجتمعات أخرى غير اليابان أصبحت حديثة دون أن تصبح غربية. نذكر من بينها سنغافورة وتايوان، وهناك إيران ولكن بدرجة أقل. وإن أي إنسان يفترض أن التحديث يفضي فقط إلى مزيد من التغريب حري به أن يتمهل إزاء التقديرات الراهنة التي ترى أنه بحلول عام ٢٠٠٧ ستكون اللغة الأكثر شيوعًا واستعمالاً على شبكة الانترنت هي اللغة الصينية. وحري أن يتمهل ثانية إزاء تنبؤ بعض الاقتصاديين بأنه خلال بضع سنوات فقط ستكون نصف الرحلات الجوية العالمية عبر المحيط الهادي.

صفوة القول إن القيم سيطرد تباعدها وإن أى إنسان يرى غير ذلك إنما يخلط بين شرب الكوكاكولا وبناء الكومبيوتر وبين التغريب.

هل من تلاق؟

ولكن ثمة رؤية ثالثة حرى أن نفكر فيها، وهى أن العالم يمكن أن يكون على طريق التلاقى وليس اطراد التباعد، غير أنه تلاقٍ ليس مبنيًا على أساس التغريب الخالص بل وأيضًا التشريق، علاوة على صور معرفية جديدة هى مزيج من المنظومات والقيم الاجتماعية.

وتوجد مؤشرات مؤكدة على أن الغرب يصادف قبولاً وهوى فى الشرق. إذ بينما يشرب بقية العالم الكوكاكولا ويرتدى الجينز نجد الغربيين يضيفون إلى أطعمتهم أطعمة شرقية. وها هى كوريا أصبح ثلث سكانها مسيحيين، غير أن منتجعات لا حصر لها فى جبال كاتسكيل، التى كانت فى السابق توفر الطعام لزبائن يهود من الطبقة الوسطى، تتحول سريعًا الآن إلى مراكز لدراسة البوذية التى تكسب أنصارًا لها فى الولايات المتحدة يتزايدون بمعدل أسرع من المذهب البروتستانتى الرئيسى. ونرى الآن كثيرين من الأطباء الغربيين يقبلون بعض الأفكار العامة عن الطب الكلى، أى الذى يعتمد على النظرة الكلية للإنسان والبيئة. وأكثر من هذا أن الأطباء يوصون الآن بطرق علاج شرق آسيوية قديمة بديلاً عن وسائل العلاج الغربية الحديثة لعلاج أمراض تبدأ من الصداع وحتى الغثيان. وأهم من ذلك شيوع الحاجة إلى علاج الإنسان ككيان شامل بدلاً من مهاجمة المشكلة الجزئية. ويمارس ملايين الأمريكيين الآن رياضة اليوجا وتاى تشى. وإن أمريكيين كثيرين ممن رأوا تقاليد النزعة الفردية تفضى بهم إلى حالة من الاغتراب

بدءوا يتطلعون إلى أشكال تراثية فى المجتمعات الشرق آسيوية ويرونها علاجًا لحالة الخواء أو الأنوميا الاجتماعية. وتطبق مؤسسات صناعية كاملة أشكال العلاقات الجامعة بين أصحاب الأعمال والعاملين التى كانت اليابان رائدة لها. وبينما يتعلم أبناء شرق آسيا التأكيد على الحوار والمناقشة فى التعليم، يجرى الغربيون تجارب مع المنظومات المنطقية التى لا تستلزم أن تكون القضية إما خطأ أو صوابًا. وجدير بالذكر أن علماء الفيزياء العظام فى القرن العشرين من أمثال نلز بور، إنما حققوا إسهاماتهم والتقدم فى ميكانيكا الكوانطا نتيجة تقييمهم لأفكار شرق آسيوية، وبينما كان علماء الرئيسات فى الغرب يؤمنون بأن رابطة الأم ـ الطفل هى وحدها العلاقة المهمة بالنسبة لقردة الشمبانزى، كان علماء الرئيسات من اليابانيين يرون أن ثمة علاقات متداخلة ومعقدة داخل مجتمعات الشمبانزى المستقرة. ورفض الغرب بداية هذه النظرة اليابانية التى أصبحت مقبولة الآن بالإجماع فى هذا المجال. وأود أن أوضح أيضًا نقطة لم أركز عليها وهى أننى مدين بأفكارى فى هذا الكتاب لمفكرين ومجربين من شرق آسيا بقدر ما أنا مدين لمفكرين ومجربين من الغرب. وإنى على ثقة من أن دخول شرق آسيا إلى مجال العلوم الاجتماعية سيؤدى إلى تحول جذرى فى طريقة تفكيرنا ورؤيتنا عن الفكر والسلوك البشريين.

وإذا كانت الممارسات والقيم والمعتقدات الاجتماعية والأفكار العلمية مآلها إلى تلاق، إذن لنا أن نتوقع أن الاختلافات فى عمليات الفكر ستبدأ هى الأخرى فى التلاشى. وثمة شواهد فى الحقيقة تدل على حدوث تغيرات فى الممارسات الاجتماعية، بل وتغيرات طرأت على الحالات الوقتية للتوجه

الاجتماعى وهو من شأنه أن يغير طريقة الإدراك الحسى والتفكير عند الناس.

ولنتذكر أن دراساتنا شارك فيها أمريكيون آسيويون، ونظرًا لأن لهم خبراتهم الاجتماعية المختلفة أشد الاختلاف عن خبرات أبناء شرق آسيا، فإن لنا أن نتوقع أن مدركاتهم وأنماط فكرهم ستشبه مدركات وأنماط فكر غيرهم من الغربيين بدرجة كبيرة. وحقيقة الأمر أن أنماط الإدراك وأساليب التفكير عند هؤلاء المشاركين كانت دائمًا فى موقع وسط بين أبناء شرق آسيا والأمريكيين الأوروبيين، وأحيانًا نكاد لا نمايزها عن أنماط الإدراك وأساليب التفكير عند الأمريكيين الأوروبيين.

وثمة دراسة أخرى لشعوب هى أصلاً ثنائية الثقافة تفيد بأن قابلية التعديل المعرفية أمر ممكن. وتشير الدلائل إلى أن هذه الشعوب لا تسودها فقط قيم ومعتقدات تتوسط بين ثقافتين بل إن عملياتها المعرفية يمكن أن تحتل أيضًا موقعًا وسطًا، أو أنها على الأقل تستطيع أن تتناوب بين شكلين للتفكير كل منهما يميز ثقافة عن الأخرى. وجدير أن نتذكر هنا دراستنا عن الإدراك السببى التى أوضحت أن جماعات من هونج كونج بإمكانهم أن "يتفوقوا" عندما نعرض عليهم رموزًا غربية مثل ميكى ماوس ومبنى الكابيتول فى الولايات المتحدة، وأن هذا يحفزهم إلى الإجابة على المسائل المتعلقة بالأسباب بأسلوب يغلب عليه الطابع الغربى بأفضل مما لو كنا عرضنا عليهم رموزًا من شرق آسيا مثل المعابد أو حيوان التنين. وأجاب الأمريكيون الآسيويون، هم بالمثل أيضًا، على أسئلة تتعلق بالسببية الفيزيقية بأسلوب يغلب عليه الطابع الغربى حين طلبنا منهم بداية أن يتذكروا خبرة

تجعل هويتهم كأمريكيين واضحة، عما لو كنا طلبنا منهم أن يتذكروا خبرة تبرز هويتهم كشرق آسيويين.

ووجد كل من شينوبو كيتاياما وزملاؤه براهين تثبت إمكانية تعديل العمليات المعرفية حتى بعد مضى فترة زمنية محدودة نسبيًا فى ظل ثقافة أخرى. وأجروا تجربة رائعة إذ عرضوا على مشاركين يابانيين وأمريكيين أمثلة عديدة لخط مرسوم داخل مربع. ثم اصطحبوهم إلى ناحية أخرى من القاعة وعرضوا عليهم صورة مربع مختلف الحجم عن الأول. وطلبوا منهم رسم خط داخل المربع بنفس طول الخط الذى رأوه أو أقرب ما يكون إليه. كان الأمريكيون أدق فى رسم الخط إذ كان مساويًا تمامًا فى طوله مما يدل على أنهم كانوا أقدر من اليابانيين على إغفال السياق. وكان اليابانيون أدق فى رسم خط له الطول نفسه نسبيًا مما يكشف عن أنهم كانوا أقدر على الربط بين الموضوع والسياق. خطا بعد ذلك كيتاياما وزملاؤه خطوة أبعد وتأملوا سلوك الأمريكيين الذين عاشوا فى اليابان لفترة من الزمن (بضعة شهور عادة) وإلى اليابانيين الذين عاشوا فى أمريكا لفترة من الزمن (بضعة شهور عادة). لوحظ أن الأمريكيين تحولوا إلى اتجاه يابانى دون أى شك. كذلك كان حال اليابانيين الذين عاشوا فى أمريكا لم يكن بالإمكان عمليًا تمييزهم عن الأمريكيين أبناء البلد. وغنى عن البيان أن الدراسة لا تثبت حقيقة أن قضاء وقت فى ظل ثقافة أخرى يؤدى إلى مثل هذه التغيرات الدرامية فى السلوك. إذ ثمة تفسيرات أخرى من بينها مثلاً احتمال أن يكون من ذهبوا للعيش فى ثقافة أخرى كانوا يحبونها جدًا أصلاً قبل رحيلهم إليها. بيد أن النتائج تشير

بقوة إلى أن العمليات المعرفية يمكن أن تتعدل لمجرد أن يعايش المرء ثقافة أخرى لفترة من الزمن.

ويمكن القول بمعنى ما إننا جميعًا "ثنـائيى الثقافـة" بالنسبة للقيـود الاجتماعية والمصلحة الاجتماعية. إن إدراكنا للروابط مع الآخرين، وحجـم رغبتنا فى الارتباط بالآخرين مسألة تتباين من وقت إلى آخـر. هـل هـذه الاختلافات المتأرجحة فى مدى الصلة الوثيقة بالآخرين مقترنة بالاختلافـات فى الإدراك وفى الفكر؟ أذكر هنا أن عالم النفس الاجتماعى أولريتش كوهنن وزملاءه أشرفوا على بعض الدراسات المهمة، التى تشير إلى أن التغيـرات المعملية البسيطة فى التوجه الاجتماعى لها أثرها على الطريقة التـى نفكـر بها. مثال ذلك حاول "غرس" توجه تكافلى جمعى عـن طريـق مطـالبتهم للمشاركين فى التجربة أن يقرءوا فقرة ويضعوا دائرة حول الضمائر الجمع للمتكلم (نحن، نا ...إلخ) كما حاولوا غرس توجه مستقل فردى بأن طلبوا من المشاركين رسم دائرة حول ضمائر المفرد المتكلم (أنا، ياء المتكلم ...إلـخ) ووجدوا أن المشاركين الذين غرسوا فيهم توجه التكافل كانوا ممن يعتمـدون على المجال فى إدراكهم أكثر من المشاركين الذين غرسـوا فـيهم توجـه الاستقلال، كما يوضح اختبار الأشكال المطمـورة embedded figures test معنى هذا أنهم وجدوا أن من الصعوبة بمكان إدراك شكل بسيط وسط سياق أكثر تعقدًا. واستخدم كوهنين ودافنا أويزرمان أسلوب المعالجة اليدوية ذاتـه ووجدا أن الناس لديهم القدرة على تذكر السياقات التى رأوا فيها موضوعات محددة ــ نتيجة الربط الإدراكى بين الموضـوع والمجـال ــ وأن قـدرتهم أفضل بعد غرس توجه التكافل عنهم بعد غرس توجه الاستقلال.

وهكذا نحن جميعًا نكون فى مجالات ما أكثر شبهًا بأبناء شرق آسيا لحين من الوقت وأكثر شبهًا بالغربيين حينًا آخر. لذلك لنا أن نتوقع أن تحولاً يطرأ على الممارسات الاجتماعية المميزة من شأنه أن يؤدى إلى تحول فى الأنماط القياسية للإدراك والفكر.

لهذا أومن بأن الاثنين سيلتقيان بفضل تحرك كل منهما فى اتجاه الآخر. الشرق والغرب يمكن أن يسهما فى نشوء عالم مزيج حيث تتمثل الجوانب الاجتماعية والمعرفية لكل من الإقليمين ولكن فى صورة متحولة، تمامًا مثل المكونات الفردية لطعام ما حيث يمكن تمييزها وإن تغيرت وتغير معها الكل. ولعلنا لا نبالغ فى الأمل بأن هذا الطعام سيحتوى على أفضل ما فى الثقافتين.

المراجع

Abelson, R. P. (1995). *Statistics as Principled Argument.* Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Allen, S. W., and Brooks, L. R. (1991). Specializing in the operation of an explicit rule. *Journal of Experimental Social Psychology, General 120,* 3-19.

Atran, S. (1998). "Folk biology and the anthropology of science: Cognitive universals and cultural particulars." *Behavioral and Brain Sciences 21,* 547-569.

Azuma, H. (1994). *Education and Socialization in Japan.* Tokyo: University of Tokyo Press.

Bagozzi, R. P., Wong, N., and Yi, Y. (1999). "The role of culture and gender in the relationship between positive and negative affect." *Cognition and Emotion 13,* 641-672.

Barry, H., Child, I., and Bacon, M. (1959). Relation of child training to subsistence economy. *American Anthropologist 61,* 51-63.

Basseches, M. (1980). "Dialectical schemata: A framework for the empirical study of the development of dialectical thinking." *Human Development 23,* 400-421.

———. (1984). *Dialectical Thinking and Adult Development.* New Jersey: Ablex.

Becker, C. B. (1986). "Reasons for the lack of argumentation and debate in the Far East." *International Journal of Intercultural Relations 10,* 75-92.

Bellah, R. (1957/1985). *Tokagawa Religion: The Cultural Roots of Modern Japan.* New York: Free Press.

Berry, J. W. (1976). *Human Ecology and Cognitive Style: Comparative Studies in Cultural and Psychological Adaptation.* New York: Sage/Halsted.

Berry, J. W., and Annis, R. C. (1974). "Ecology, culture and differentiation." *International Journal of Psychology 9,* 173-193.

Bond, M. H., and Cheung, T. S. (1983). "College students' spontaneous self-concept: The effect of culture among respondents in Hong Kong, Japan, and the United States." *Journal of Cross-Cultural Psychology 14,* 153-171.

Borges, J. L. (1966). *Other Inquisitions 1937-1952.* New York: Washington Square Press.

Briley, D. A., Morris, M., and Simonson, I. (2000). "Reasons as carriers of cul-

ture: Dynamic vs. dispositional models of cultural influence on decision making." *Journal of Consumer Research 27*, 157–178.
Cao, C. J. (1982). *Explanation of Zhung Zi*. Beijing: Zhong Hua Publishing House.
Chalfonte, B. L., and Johnson, M. K. (1996). "Feature memory and binding in young and older adults." *Memory and Cognition 24*, 403–416.
Chan, W. T. (1967). "The story of Chinese philosophy." In C. A. Moore (ed.), *The Chinese Mind: Essentials of Chinese Philosophy and Culture*. Honolulu: East-West Center Press.
———. (1967). "Chinese theory and practice, with special reference to humanism." In C. A. Moore (ed.), *The Chinese Mind: Essentials of Chinese Philosophy and Culture*. Honolulu: East-West Center Press.
Cheung, F. M., Leung, K., Fang, R. M., Song, W. Z., Zhang, J. X., and Zhang, J. P. (in press). "Development of the Chinese personality assessment inventory." *Journal of Cross-Cultural Psychology*.
Cheung, F. M., Leung, K., Law, J. S., and Zhang, J. X. (1996). "Indigenous Chinese Personality Constructs." Paper presented at the XXVI International Congress of Psychology, Montreal, Canada.
Chiu, L.-H. (1972). "A cross-cultural comparison of cognitive styles in Chinese and American children." *International Journal of Psychology 7*, 235–242.
Choi, I. (1998). The cultural psychology of surprise: Holistic theories, contradiction, and epistemic curiosity. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor.
———. (2001). The conflicted culture or who reads fortune-telling? Unpublished manuscript, Seoul National University.
Choi, I., Dalal, R., and Kim-Prieto, C. (2000). Information search in causal attribution: Analytic vs. holistic. Unpublished manuscript, Seoul National University.
Choi, I., and Nisbett, R. E. (1998). "Situational salience and cultural differences in the correspondence bias and in the actor-observer bias." *Personality and Social Psychology Bulletin 24*, 949–960.
———. (2000). "The cultural psychology of surprise: Holistic theories and recognition of contradiction." *Journal of Personality and Social Psychology 79*, 890–905.
Choi, I., Nisbett, R. E., and Smith, E. E. (1997). "Culture, categorization and inductive reasoning." *Cognition 65*, 15–32.
Cohen, D., and Gunz, A. (2002). As seen by the other . . . : The self from the "outside in" and the "inside out" in the memories and emotional perceptions of Easterners and Westerners. Unpublished manuscript: University of Illinois.
Cohen, R. (1997). *Negotiating Across Cultures: International Communication in an Interdependent World*. Washington, D.C.: United States Institute of Peace Press.
Cole, M., Gay, J., Glick, J. A., and Sharp, D. W. (1971). *The Cultural Context of Learning and Thinking*. New York: Basic Books.
Cole, M., and Scribner, S. (1974). *Culture and Thought: A Psychological Introduction*. New York: Wiley.
Cousins, S. D. (1989). "Culture and self-perception in Japan and the United States." *Journal of Personality and Social Psychology 56*, 124–131.

Cromer, A. (1993). *Uncommon Sense: The Heretical Nature of Science.* New York: Oxford University Press.

Darley, J. M., and Batson, C. D. (1973). "From Jerusalem to Jericho: A study of situational and dispositional variables in helping behavior." *Journal of Personality and Social Psychology 27,* 100–119.

Dershowitz, Z. (1971). "Jewish subcultural patterns and psychological differentiation." *International Journal of Psychology 6,* 223–231.

Diamond, J. (1997). *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies.* New York: Norton.

Dien, D. S.-f. (1997). *Confucianism and Cultural Psychology: Comparing the Chinese and the Japanese.* Hayward, CA: California State University.

———. (1999). "Chinese authority-directed orientation and Japanese peer-group orientation: Questioning the notion of collectivism." *Review of General Psychology 3,* 372–385.

Disheng, Y. (1990–91). "China's traditional mode of thought and science: A critique of the theory that China's traditional thought was primitive thought." *Chinese Studies in Philosophy,* Winter, 43–62.

Doi, L. T. (1971/1981). *The Anatomy of Dependence* (2nd ed.). Tokyo: Kodansha.

———. (1974). "*Amae:* A key concept for understanding Japanese personality structure." In R. J. Smith and R. K. Beardsley (eds.), *Japanese Culture: Its Development and Characteristics.* Chicago: Aldine.

Doris, J. M. (2002). *Lack of Character: Personality and Moral Behavior.* New York: Cambridge University Press.

Dyson, F. J. (1998, May 28). "Is God in the Lab?" *New York Review of Books,* pp. 8–10.

Eagle, M., Goldberger, L., and Breitman, M. (1969). "Field dependence and memory for social vs. neutral and relevant vs. irrelevant incidental stimuli." *Perceptual and Motor Skills 29,* 903–910.

Earley, P. C. (1989). "East meets west meets mideast: Further explorations of collectivistic and individualistic work groups." *Academy of Management Journal 36,* 565–581.

Erdley, C. A., and Dweck, C. S. (1993). "Children's implicit personality theories as predictors of their social judgments." *Child Development 64,* 863–878.

Ervin, S. M., and Osgood, C. E. (1954). "Second language learning and bilingualism." *Journal of Abnormal and Social Psychology 49, Supplement,* 139–146.

Fernald, A., and Morikawa, H. (1993). "Common themes and cultural variations in Japanese and American mothers' speech to infants." *Child Development 64,* 637–656.

Fischhoff, B. (1975). "Hindsight ≠ Foresight: The effect of outcome knowledge on judgment under uncertainty." *Journal of Experimental Psychology: Human Perception and Performance 1,* 288–299.

Fiske, A. P., Kitayama, S., Markus, H. R., and Nisbett, R. E. (1998). "The cultural matrix of social psychology." In D. T. Gilbert, S. T. Fiske, and G. Lindzey (eds.), *Handbook of Social Psychology* (4th ed.), pp. 915–981. Boston: McGraw-Hill.

French, H. W. (2000, May 2). "Japan debates culture of covering up." *New York Times,* p. A12.

Fukuyama, F. (1992). *The End of History and the Last Man*. New York: Free Press.
Fung, Y. (1983). *A History of Chinese Philosophy* (D. Bodde, trans., vol. 1–2). Princeton: Princeton University Press.
Galtung, J. (1981). "Structure, culture, and intellectual style: An essay comparing saxonic, teutonic, gallic and nipponic approaches." *Social Science Information 20*, 817–856.
Gardner, W. L., Gabriel, S., and Lee, A. Y. (1999). " 'I' value freedom, but 'we' value relationships: Self-construal priming mirrors cultural differences in judgment." *Psychological Science 10*, 321–326.
Geary, D. C., Salthouse, T. A., Chen, G-P., and Fan, L. (1996). "Are East Asian versus American differences in arithmetical ability a recent phenomenon?" *Developmental Psychology 32*, 254–262.
Gelman, S. A., and Tardif, T. (1998). "A cross-linguistic comparison of generic noun phrases in English and Mandarin." *Cognition 66*, 215–248.
Gentner, D. (1981). "Some interesting differences between nouns and verbs." *Cognition and Brain Theory 4*, 161–178.
———. (1982). "Why nouns are learned before verbs: Linguistic relativity vs. natural partitioning." In S. A. Kuczaj, ed., *Language Development: Vol. 2. Language, Thought and Culture*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.
Gilbert, D. T., and Malone, P. S. (1995). "The correspondence bias." *Psychological Bulletin 117*, 21–38.
Glass, D. C., and Singer, J. E. (1973). "Experimental studies of uncontrollable and unpredictable noise." *Representative Research in Psychology 4*, 165–183.
Goodman, N. (1965). *Fact, Fiction and Forecast* (2nd ed.). Indianapolis: Bobbs-Merrill.
Gopnik, A., and Choi, S. (1990). "Do linguistic differences lead to cognitive differences? A cross-linguistic study of semantic and cognitive development." *First Language 10*, 199–215.
Graham, A. C. (1989). *Disputers of the Tao*. La Salle: Open Court Press.
Greene, L. R. (1973). "Effects of field independence, physical proximity and evaluative feedback, affective reactions and compliance in a dyadic interaction." *Dissertation Abstracts International 34*, 2284–2285.
Gries, P. H., and Peng, K. (2002). "Culture clash? Apologies East and West." *Journal of Contemporary China 11*, 173–178.
Hadingham, E. (1994). "The mummies of Xinjiang." *Discover 15*, 68–77.
Hall, E. T. (1976). *Beyond Culture*. New York: Anchor Books.
Hamilton, E. (1930/1973). *The Greek Way*. New York: Avon.
Hampden-Turner, C., and Trompenaars, A. (1993). *The Seven Cultures of Capitalism: Value Systems for Creating Wealth in the United States, Japan, Germany, France, Britain, Sweden, and the Netherlands*. New York: Doubleday.
Han, J. J., Leichtman, M. D., and Wang, Q. (1998). "Autobiographical memory in Korean, Chinese, and American children." *Developmental Psychology 34*, 701–713.
Han, S., and Shavitt, S. (1994). "Persuasion and culture: Advertising appeals in individualistic and collectivistic societies." *Journal of Experimental Social Psychology 30*, 326–350.
Hansen, C. (1983). *Language and Logic in Ancient China*. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Harman, G. (1998–1999). "Moral philosophy meets social psychology: Virtue ethics and the fundamental attribution error." *Proceedings of the Aristotelian Society 1998–99*, pp. 315–331.

Heath, S. B. (1982). "What no bedtime story means: Narrative skills at home and school." *Language in Society 11*, 49–79.

Hedden, T., Ji, L., Jing, Q., Jiao, S., Yao, C., Nisbett, R. E., and Park, D. C. (2000). Culture and age differences in recognition memory for social dimensions. Paper presented at the Cognitive Aging Conference, Atlanta.

Hedden, T., Park, D. C., Nisbett, R. E., Ji, L., Jing, Q., and Jiao, S. (2002). "Cultural variation in verbal versus spatial neuropsychological function across the lifespan." *Neuropsychology 16*, 65–73.

Heine, S. J., Kitayama, S., Lehman, D. R., Takata, T., Ide, E., Leung, C., and Matsumoto, H. (2001). "Divergent consequences of success and failure in Japan and North America: An investigation of self-improving motivation." *Journal of Personality and Social Psychology 81*, 599–615.

Heine, S. J., and Lehman, D. R. (1997). Acculturation and self-esteem change: Evidence for a Western cultural foundation in the construct of self-esteem. Paper presented at the second meeting of the Asian Association of Social Psychology, Kyoto, Japan.

Heine, S. J., Lehman, D. R., Markus, H. R., and Kitayama, S. (1999). "Is there a universal need for positive self-regard?" *Psychological Review 106*, 766–794.

Heine, S. J., Lehman, D. R., Peng, K., and Greenholtz, J. (2002). What's Wrong with Cross-cultural Comparisons of Subjective Likert Scales?: The Reference Group Effect. Unpublished manuscript, University of British Columbia, Vancouver, B.C..

Herrnstein, R. J., and Murray, C. (1994). *The Bell Curve: Intelligence and Class Structure in American Life.* New York: The Free Press.

Hofstede, G (1980). *Culture's Consequences: International Differences in Work-related Values.* Beverly Hills: Sage.

Holmberg, D., Markus, H., Herzog, A. R., and Franks, M. (1997). Self-making in American Adults: Content, Structure and Function. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.

Hong, Y., Chiu, C., and Kung, T. (1997). "Bringing culture out in front: Effects of cultural meaning system activation on social cognition." In K. Leung, Y. Kashima, U. Kim, and S. Yamaguchi, eds., *Progress in Asian Social Psychology* 1. Singapore: Wiley, 135–146.

Hsu, F. L. K. (1953). *Americans and Chinese: Two Ways of Life.* New York: Schuman.

———. (1981). "The self in cross-cultural perspective." In A. J. Marsella, B. D. Vos, and F. L. K. Hsu, eds., *Culture and Self* (pp. 24–55). London: Tavistock.

Huntington, S. P. (1996). *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order.* New York: Simon & Schuster.

Imai, M., and Gentner, D. (1994). "A cross-linguistic study of early word meaning: Universal ontology and linguistic influence." *Cognition 62*, 169–200.

Ip, G. W. M., and Bond, M. H. (1995). "Culture, values, and the spontaneous self-concept." *Asian Journal of Psychology 1*, 29–35.

Iyengar, S. S., and Lepper, M. R. (1999). "Rethinking the role of choice: A cultural perspective on intrinsic motivation." *Journal of Personality and Social Psychology 76*, 349–366.

Iyengar, S. S., Lepper, M. R., and Ross, L. (1999). "Independence from whom? Interdependence from whom? Cultural perspectives on ingroups versus outgroups." In D. A. Prentice and D. T. Miller, eds., *Cultural Divides: Understanding and Overcoming Group Conflict*. New York: Russell Sage Foundation.

Ji, L., Peng, K., and Nisbett, R. E. (2000). "Culture, control, and perception of relationships in the environment." *Journal of Personality and Social Psychology 78*, 943–955.

Ji, L., Schwarz, N., and Nisbett, R. E. (2000). "Culture, autobiographical memory, and social comparison: Measurement issues in cross-cultural studies." *Personality and Social Psychology Bulletin 26*, 585–593.

Ji, L., Su, Y., and Nisbett, R. E. (2001). "Culture, prediction, and change." *Psychological Science 12*, 450–456.

Ji, L., Zhang, Z., and Nisbett, R. E. (2002). Culture, language and categorization. Unpublished manuscript, Queens University, Kingston, Ontario.

Jones, E. E., and Harris, V. A. (1967). "The attribution of attitudes." *Journal of Experimental Social Psychology 3*, 1–24.

Kaplan, R. D. (2001, December). "Looking the world in the eye." *Atlantic Monthly*, 68–82.

Kim, H. (in press). "We talk, therefore we think? A cultural analysis of the effect of talking on thinking." *Journal of Personality and Social Psychology.*

Kim, H., and Markus, H. R. (1999). "Deviance or uniqueness, harmony or conformity?: A cultural analysis." *Journal of Personality and Social Psychology 77*, 785–800.

King, A. Y.-c. (1991). "Kuan-hsi and network building: A sociological interpretation." *Daedelus 120*, 60–84.

Kinhide, M. (1976). "The cultural premises of Japanese diplomacy." In J. C. f. I. Exchange, ed., *The Silent Power: Japan's Identity and World Role.* Tokyo: Simul Press.

Kitayama, S., Duffy, S., and Kawamura, T. (2003). Perceiving an object in its context in different cultures: A cultural look at the New Look. Unpublished manuscript, Kyoto University, Kyoto.

Kitayama, S., Markus, H. R., and Lieberman, C. (1995). "The collective construction of self-esteem: Implications for culture, self, and emotion." In J. Russell, J. Fernandez-Dols, T. Manstead, and J. Wellenkamp, eds., *Everyday Conceptions of Emotion: An Introduction to the Psychology, Anthropology, and Linguistics of Emotion*. Dordrecht: Kluwer Academic Publishers.

Kitayama, S., Markus, H. R., Matsumoto, H., and Norasakkunit, V. (1997). "Individual and collective processes in the construction of the self: Self-enhancement in the United States and self-depreciation in Japan." *Journal of Personality and Social Psychology 72*, 1245–1267.

Kitayama, S., and Masuda, T. (1997). "Shaiaiteki ninshiki no bunkateki baikai model: taiousei bias no bunkashinrigakuteki kentou. (Cultural psychology of social inference: The correspondence bias in Japan.)." In K. Kashiwagi, S. Kitayama, and H. Azuma, eds., *Bunkashinrigaju: riron to jisho. (Cultural Psychology: Theory and Evidence)*. Tokyo: University of Tokyo Press.

Kojima, H. (1984). "A significant stride toward the comparative study of control." *American Psychologist 39*, 972–973.

Korzybyski, A. (1933/1994). *Science and Sanity: An Introduction to non-Aristotelian Systems and General Semantics.* Englewood, NJ: Institute of General Semantics.
Krull, D. S., Loy, M., Lin, J., Wang, C.-F., Chen, S., and Zhao, X. (1996). The fundamental attribution error: Correspondence bias in independent and interdependent cultures. Paper presented at the 13th Congress of the International Association for Cross-Cultural Psychology, Montreal, Quebec, Canada.
Kühnen, U., Hannover, B., Röder, U., Schubert, B., Shah, A. A., and Zakaria, S. (2000). "Cross-cultural variations in identifying embedded figures: Comparisons from the U.S., Germany, Russia and Malaysia." *Journal of Cross-Cultural Psychology 32*, 365–371.
Kühnen, U., Hannover, B., and Schubert, B. (2001). "The semantic-procedural interface model of the self: The role of self-knowledge for context-dependent versus context-independent modes of thinking." *Journal of Personality and Social Psychology 80*, 397–409.
Kühnen, U., and Oyserman, D. (2002). Thinking About the Self Influences Thinking in General: Cognitive Consequences of Salient Self-concept. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.
Lambert, W. E., Havelka, J., and Crosby, C. (1958). "The influence of language acquisition contexts on bilingualism." *Journal of Abnormal and Social Psychology 56*, 239–244.
Langer, E. (1975). "The illusion of control." *Journal of Personality and Social Psychology 32*, 311–328.
Lao-Zi. (1993). *The Book of Lao Zi.* Beijing: Foreign Language Press.
Lee, F., Hallahan, M., and Herzog, T. (1996). "Explaining real life events: How culture and domain shape attributions." *Personality and Social Psychology Bulletin 22*, 732–741.
Leung, K. (1987). "Some determinants of reactions to procedural models for conflict resolution: A cross-national study." *Journal of Personality and Social Psychology 53*, 898–908.
Leung, K., Cheung, F. M., Zhang, J. X., Song, W. Z., and Dong, X. (in press). "The five factor model of personality in China." In K. Leung, Y. Kashima, U. Kim, and S. Yamaguchi, eds., *Progress in Asian Social Psychology* 1. Singapore: John Wiley.
Lin, Y. (1936). *My Country and My People.* London: William Heinemann.
Liu, S. H. (1974). "The use of analogy and symbolism in traditional Chinese philosophy." *Journal of Chinese Philosophy 1*, 313–338.
Liu, X. G. (1988). *The Philosophy of Zhung Zi and Its Evolution.* Beijing: The Social Science Press of China.
Lloyd, G. E. R. (1990). *Demystifying Mentalities.* New York: Cambridge University Press.
———. (1991). "The invention of nature." In G. E. R. Lloyd, ed., *Methods and Problems in Greek Science.* Cambridge: Cambridge University Press.
Logan, R. F. (1986). *The Alphabet Effect.* New York: Morrow.
Lucy, J. A. (1992). *Grammatical Categories and Cognition: A Case Study of the Linguistic Relativity Hypothesis.* New York: Cambridge University Press.
Mao, T.-t. (1937/1962). *Four Essays on Philosophy.* Beijing: People's Press.

Markus, H., and Kitayama, S. (1991a). "Cultural variation in the self-concept." In J. Strauss and G. R. Goethals, eds., *The Self: Interdisciplinary Approaches.* New York: Springer-Verlag.
———. (1991b). "Culture and the self: Implications for cognition, emotion, and motivation." *Psychological Review 98,* 224–253.
Masuda, T., and Nisbett, R. E. (2001). "Attending holistically vs. analytically: Comparing the context sensitivity of Japanese and Americans." *Journal of Personality and Social Psychology 81,* 922–934.
———. (2002). Change blindness in Japanese and Americans. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor.
McGuire, W. J. (1967). "Cognitive consistency and attitude change." In M. Fishbein, ed., *Attitude Theory and Measurement* (pp. 357–365). New York: John Wiley.
McNeil, W. H. (1962). *The Rise of the West: A History of the Human Community.* Chicago: University of Chicago Press.
McRae, R. R., Costa, P. T., and Yik, M. S. M. (1996). "Universal aspects of Chinese personality structure." In M. H. Bond, ed., *The Handbook of Chinese Psychology.* Hong Kong: Oxford University Press.
Meyer, D. E., and Kieras, D. E. (1997). "A computational theory of executive cognitive processes and multiple-task performance: I. Basic mechanisms." *Psychological Review 104,* 3–65.
Miller, J. G. (1984). "Culture and the development of everyday social explanation." *Journal of Personality and Social Psychology 46,* 961–978.
Miller, J. G., and Bersoff, D. M. (1995). "Development in the context of everyday family relationships: Culture, interpersonal morality, and adaptation." In M. Killen and D. Hart, eds., *Morality of Everyday Life: A Developmental Perspective* (pp. 259–282). Cambridge: Cambridge University Press.
Morling, B., Kitayama, S., and Miyamoto, Y. (in press). "Cultural practices emphasize influence in the U.S. and adjustment in Japan." *Personality and Social Psychology Bulletin.*
Morris, M., Leung, K., and Sethi, S. (1999). Person perception in the heat of conflict: Perceptions of opponents' traits and conflict resolution in two cultures. Unpublished manuscript, Stanford University.
Morris, M. W., and Peng, K. (1994). "Culture and cause: American and Chinese attributions for social and physical events." *Journal of Personality and Social Psychology 67,* 949–971.
Moser, D. J. (1996). Abstract thinking and thought in ancient Chinese and early Greek societies. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor.
Mote, F. W. (1971). *Intellectual Foundations of China.* New York: Knopf.
Munro, D. (1985). Introduction. In D. Munro, ed., *Individualism and Holism: Studies in Confucian and Taoist Values* (pp. 1–34). Ann Arbor: Center for Chinese Studies, University of Michigan.
Munro, D. J. (1969). *The Concept of Man in Early China.* Stanford, CA: Stanford University Press.
Nagashima, N. (1973). "A reversed world: Or is it?" In R. Horton and R. Finnegan, eds., *Modes of Thought.* London: Faber and Faber.

Nakamura, H. (1964/1985). *Ways of Thinking of Eastern Peoples.* Honolulu: University of Hawaii Press.

Nakayama, S. (1969). *A History of Japanese Astronomy.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Needham, J. (1954). *Science and Civilisation in China,* Vol. 1. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

———. (1962). *Science and Civilisation in China: Physics and Physical Technology,* Vol. 4. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Nisbett, R. E. (1992). *Rules for Reasoning.* Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Nisbett, R. E., Caputo, C., Legant, P., and Maracek, J. (1973). "Behavior as seen by the actor and as seen by the observer." *Journal of Personality and Social Psychology 27,* 154–164.

Nisbett, R. E., Fong, G. T., Lehman, D. R., and Cheng, P. W. (1987). "Teaching reasoning." *Science 238,* 625–631.

Nisbett, R. E., Peng, K., Choi, I., and Norenzayan, A. (2001). "Culture and systems of thought: Holistic vs. analytic cognition." *Psychological Review 108,* 291–310.

Nisbett, R. E., and Ross, L. (1980). *Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Norenzayan, A. (1999). Rule-based and experience-based thinking: The cognitive consequences of intellectual traditions. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Norenzayan, A., Choi, I., and Nisbett, R. E. (2002). "Cultural similarities and differences in social inference: Evidence from behavioral predictions and lay theories of behavior." *Personality and Social Psychology Bulletin 28,* 109–120.

Norenzayan, A., and Kim, B. J. (2002). A cross-cultural comparison of regulatory focus and its effect on the logical consistency of beliefs. Unpublished manuscript, University of British Columbia, Vancouver, B.C.

Norenzayan, A., Smith, E. E., Kim, B. J., and Nisbett, R. E. (in press). "Cultural preferences for formal versus intuitive reasoning." *Cognitive Science.*

Ohbuchi, K. I., and Takahashi, Y. (1994). "Cultural styles of conflict management in Japanese and Americans: Passivity, covertness, and effectiveness of strategies." *Journal of Applied Psychology 24,* 1345–1366.

Osherson, D. N., Smith, E. E., Wilkie, O., Lopez, A., and Shafir, E. (1990). "Category-based induction." *Psychological Review 97,* 185–200.

Park, D., Hedden, T., Jing, Q., Shulan, J., Yao, C., and Nisbett, R. E. (2002). Culture and the aging mind. Unpublished manuscript, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Peng, K. (1997). Naive dialecticism and its effects on reasoning and judgment about contradiction. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

———. (2001). "Psychology of dialectical thinking." In N. J. Smelser and P. B. Baltes, eds., *International Encylopedia of the Social and Behavioral Sciences,* Vol. 6 (pp. 3634–3637). Oxford: Elsevier Science.

Peng, K., Keltner, D., and Morikawa, S. (2002). Culture and judgment of facial expression. Unpublished manuscript, University of California, Berkeley.

Peng, K., and Knowles, E. (in press). "Culture, ethnicity and the attribution of physical causality." *Personality and Social Psychology Bulletin.*

Peng, K., and Nisbett, R. E. (1999). "Culture, dialectics, and reasoning about contradiction." *American Psychologist 54*, 741–754.

Peng, K., and Nisbett, R. E. (2000). Cross-cultural Similarities and Differences in the Understanding of Physical Causality. Unpublished manuscript, University of California, Berkeley.

Peng, K., Nisbett, R. E., and Wong, N. (1997). "Validity problems of cross-cultural value comparison and possible solutions." *Psychological Methods 2*, 329–341.

Piedmont, R. L., and Chae, J. H. (1997). "Cross-cultural generalizability of the five-factor model of personality: Development and validation of the NEO-PI-R for Koreans." *Journal of Cross-Cultural Psychology 28*, 131–155.

Riegel, K. F. (1973). "Dialectical operations: The final period of cognitive development." *Human Development 18*, 430–443.

Rosemont, H., Jr. (1991). "Rights-bearing individuals and role-bearing persons." In M. I. Bockover, ed., *Rules, Rituals and Responsibility: Essays Dedicated to Herbert Fingarette.* LaSalle, IL: Open Court Press.

Ross, L. (1977). "The intuitive psychologist and his shortcomings." In L. Berkowitz, ed., *Advances in Experimental Social Psychology,* Vol. 10 (pp. 173–220). New York: Academic Press.

Sanchez-Burks, J., Lee, F., Choi, I., Nisbett, R. E., Zhao, S., and Koo, J. (2002). Conversing across cultural ideologies: East-West communication styles in work and non-work contexts. Unpublished manuscript, University of Southern California.

Sastry, J., and Ross, C. E. (1998). "Asian ethnicity and the sense of personal control." *Social Psychology Quarterly 61*, 101–120.

Saul, J. R. (1992). *Voltaire's Bastards: The Dictatorship of Reason in the West.* New York: Random House.

Shih, H. (1919). *Chung-kuo chê-hsueh shi ta-kang (An Outline of the History of Chinese Philosophy).* Shanghai: Commercial Press.

Shore, B. (1996). *Culture in Mind: Cognition, Culture and the Problem of Meaning.* New York: Oxford University Press.

Shweder, R., Balle-Jensen, L., and Goldstein, W. (in press). "Who sleeps by whom revisited: A method for extracting the moral goods implicit in praxis." In P. J. Miller, J. J. Goodnow, and F. Kessell, eds., *Cultural Practices as Contexts for Development.* San Francisco: Jossey-Bass.

Simons, D. J., and Levin, D. T. (1997). "Change blindness." *Trends in Cognitive Sciences 1*, 261–267.

Sloman, S. (1996). "The empirical case for two systems of reasoning." *Psychological Bulletin 119*, 30–22.

Smith, L. B., Jones, S. S., Landau, B., Gershkoff-Stowe, L., and Samuelson, L. (2002). "Object name learning provides on-the-job training for attention." *Psychological Science 13*, 13–19.

Sowell, T., ed. (1978). *Essays and Data on American Ethnic Groups.* New York: The Urban Institute.

Stevenson, H. W., and Lee, S. (1996). "The academic achievement of Chinese

students." In M. H. Bond, ed., *The Handbook of Chinese Psychology* (pp. 124–142). New York: Oxford University Press.

Stevenson, H. W., and Stigler, J. W. (1992). *The Learning Gap: Why Our Schools Are Failing and What We Can Learn from Japanese and Chinese Education*. New York: Summit Books.

Stich, S. (1990). *The Fragmentation of Reason*. Cambridge, MA: MIT Press.

Tardif, T. (1996). "Nouns are not always learned before verbs: Evidence from Mandarin-speakers early vocabularies." *Developmental Psychology 32*, 492–504.

Toulmin, S., and Goodfield, J. (1961). *The Fabric of the Heavens: The Development of Astronomy and Physics*. New York: Harper & Row.

Tönnies, F. (1887/1988). *Community and Society*. New Brunswick, Oxford: Transaction Books.

Trafimow, D., Triandis, H. C., and Goto, S. G. (1991). "Some tests of the distinction between the private self and the collective self." *Journal of Personality and Social Psychology 60*, 649–655.

Triandis, H. C. (1972). *The Analysis of Subjective Culture*. New York: Wiley.

———. (1994). *Culture and Social Behavior*. New York: McGraw-Hill.

———. (1995). *Individualism and Collectivism*. Boulder, CO: Westview Press.

Tweed, R. G., and Lehman, D. (2002). "Learning considered within a cultural context: Confucian and Socratic approaches." *American Psychologist 57*, 89–99.

Vranas, P. B. M. (2001). Respect for persons: An epistemic and pragmatic investigation. Unpublished Ph.D. thesis, University of Michigan, Ann Arbor, MI.

Vygotsky, L. S. (1930/1971). "The development of higher psychological functions." In J. Wertsch, ed., *Soviet Activity Theory*. Armonk, NY: Sharpe.

———. (1978). *Mind in Society: The Development of Higher Psychological Processes*. Cambridge: Harvard University Press.

Wang, D. J. (1979). *The History of Chinese Logical Thought*. Shanghai: People's Press of Shanghai.

Watanabe, M. (1998). Styles of reasoning in Japan and the United States: Logic of education in two cultures. Paper presented at the American Sociological Association, San Francisco, CA.

Weisz, J. R., Rothbaum, F. M., and Blackburn, T. C. (1984). "Standing out and standing in: The psychology of control in America and Japan." *American Psychologist 39*, 955–969.

Whiting, B. B., and Whiting, J. W. M. (1975). *Children of Six Cultures: A Psycho-cultural Analysis*. Cambridge: Harvard University Press.

Whorf, B. L. (1956). *Language, Thought and Reality*. New York: Wiley.

Wilgoren, J. (2001, August 9). "World of debating grows and Vermont is the lab." *New York Times*, p. A12.

Witkin, H. A. (1969). *Social Influences in the Development of Cognitive Style*. New York: Rand McNally.

Witkin, H. A., and Berry, J. W. (1975). "Psychological differentiation in cross-cultural perspective." *Journal of Cross Cultural Psychology 6*, 4–87.

Witkin, H. A., Dyk, R. B., Faterson, H. F., Goodenough, D. R., and Karp, S. A. (1974). *Psychological Differentiation*. Potomac: Lawrence Erlbaum Associates.

Witkin, H. A., and Goodenough, D. R. (1977). "Field dependence and interpersonal behavior." *Psychological Bulletin 84*, 661–689.
Witkin, H. A., Lewis, H. B., Hertzman, M., Machover, K., Meissner, P. B., and Karp, S. A. (1954). *Personality Through Perception*. New York: Harper.
Yamaguchi, S., Gelfand, M., Mizuno, M., and Zemba, Y. (1997). Illusion of collective control or illusion of personal control: Biased judgment about a chance event in Japan and the U. S. Paper presented at the second conference of the Asian Association of Social Psychology, Kyoto, Japan.
Yang, K. S., and Bond, M. H. (1990). "Exploring implicit personality theories with indigenous or imported constructs: The Chinese case." *Journal of Personality and Social Psychology 58*, 1087–1095.
Yates, J. F., and Curley, S. P. (1996). "Contingency judgment: Primacy effects and attention decrement." *Acta Psychologica 62*, 293–302.
Yates, J. F., Lee, J., and Bush, J. (1997). "General knowledge overconfidence: Cross-national variation." *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 63, 138–147.

ثبت المصطلحات والأعلام

Abelson, Robert	أبيلسون، روبرت
Action at a distance	التأثير عن بعد
Acupuncture	العلاج بوخز الإبر
Agency	الفعالية
Air-port Site Movie Test	اختبار سينما موقع المطار
Alienation	اغتراب
Amae Relationship	علاقة أماى
Analytical Approach	النهج التحليلى
Animism	العقيدة الإحيائية
Approach	نهج
Aptitude	استعداد، أهلية
Aristotle	أرسطو
Assembly line	خط التجميع
Atomism	المذهب الذرى
Awase style	أسلوب "أواس" التناغم أو التلاؤم
Bacon, Francis	بيكون، فرنسيس
Bagozzi, Richard	باجوتزى، ريتشارد

Basseches, Michael	باسيكيس، ميشيل
Bell curve	منحنى الجرس
Bellah, Robert	بيلاه، روبرت
Bersoff, David	بيرسوف، دافيد
Biculturalism	الثنائية الثقافية
Bilingualism	الثنائية اللغوية
Body Adjustment test	اختبار توافق وضع الجسم
Body-soul Dichotomy	ثنائية الروح ـ الجسد
Bohr, Mils	بور، نلز
Bond, Michael	بوند، ميشيل
Borges, Jorge Luis	بورخيس، جورج لوى
Briley, D.A.	برايلى، دى. إيه.
Buddhism	البوذية
Business Relationships	علاقات عمل
Calvinism	الكالفينية
Carnegie Institution	معهد كارنيجى
Cattell Culture-Fair intelligence test	اختبار كاتيل للذكاء غير المقيد بالثقافة
Cattell Culture-fair intelligence test	اختبار كاتيل غير المقيد بالظروف الثقافية لقياس الذكاء

Causality	سببية
Covariation-detection studics	دراسات تسجيل تلازم التغير
Chiu, liang-hwang	شيو ، ليانج ـــ هوانج
Choi, incheol	شوى، انكيول
Choi, Soonja	شوى سونجا
Chou dynasty	أسرة تشو
Chou En-Lai	شو إن لاى
Chuan men	شوان من [ممارسة بمعنى لتكن الأبواب سلسلة]
Chuang tzu	شوانج تسو
Civil Right movement	حركة الحقوق المدنية
Cognition	معرفة
Cognitive processes	عمليات معرفية
Cohen, Dov	كوهين، دوف
Collective agency	فعالية جمعية
Complexity	تعقد
Confucianism	الكونفوشية
Confucius	كونفوشيوس
Conscientiousness	الحساسية الضميرية
Conte, August	كونت، أوجست

Contextual relativism	النسبية السياقية
Cost-benefit analysis	تحليل الكلفة والعائد
Cromer, Alan	كرومر، آلان
Dax experiment	تجربة صورة التكوين
Dershowitz, Zachary	درشوفتز، زاخارى
Descartes, René	ديكارت، رينيه
Diamond, jared	دياموند، جاريد
Dichotomies	التقسيمات الثنائية
Dien, Dora	دايين، دورا
Doi, Takeo	دوى، تاكيو
Doris, John	دوريس، جون
Downsizing	إنقاص أو تحجيم عدد العاملين
Earley, P. Christopher	ايرلى، بى. كرستوفر
Educational testing service	مركز خدمة القياس التربوى
Egalitarianism	المساواتية
Ellsworth, Phoebe	إيلزوورث، فويب
Embedded Figures Test	اختبار الأشكال المطمورة
Erabi style	أسلوب إيرابى
Easternization	تشريق
Ethical system	منظومة أخلاقية

Ethnic Diversity	التنوع الإثنى
Ethnicity	الإثنية ــ العرقية
Ethnocentrism	المحورية الإثنية ــ العرقية
Evolution	تطور
Extraversion	الانبساط النفسى
Feng shui	فنج شوى
Fernald, Anne	فيرنالد، آن
Fichte, johann Gottlieb	فيشته، جوهان جوتلييب
Field dependence	الاعتماد على المجال
Fischhoff, Baruch	فيشوف، باروخ
Ford, Henry	فورد، هنرى
Formalism	الشكلانية
Freud, Sigmund	فرويد، سيجموند
Fukuyama, Francis	فوكوياما، فرنسيس
Fundamental attribution Error FAE	الخطأ الأساسى فى تحديد الأسباب
Fung, yu-lan	فونج، يو ــ لان
Gabriel, Shira	جابرييل، شيرا
Galileo, Galilei	جاليليو، جاليلى
Gardner, Wendi	جاردنر، وندى
Gelman, Susan	جلمان، سوزان

General Semantics	علم الدلالات العامة
Genetic basis	الأساس الجينى ــ الوراثى
Gentner, Dedre	جنتنر، ديدر
Golden mean	الوسط الذهبى
Goodman, Nelson	جودمان، نلسون
Gopnik, Alison	جوبنيك، اليسون
Graham, Angus	جراهام، أنجوس
Gries, Peter Hays	جرييس، بيتر هايس
Gunz, Alex	جونز، اليكس
Hall, Edward T.	هول، ادوارد تى.
Hampden-Turner, Charles	هامبدن ــ تيرنر، شارلس
Han, jessica	هان، ياسيكا
Hang, Sang-pil	هانج، سانج ــ بيل
Harman, Gilbert	هارمان، جيلبرت
Hayakawa, S. I.	هاياكاوا، إس. آى.
Heath, Shirley Brice	هيث، شيرلى برايس
Hedden, Trey	هيدين، ترى
Hegel, George Wilhelm Friedrich	هيجيل، جورج ويلهلم فريدريك
Heider, Fritz	هايدر، فريتز
Heine, Steven	هاين، ستيفن

Herrnstein, Richard	هيرنشتين، ريشار
Hindsight Fallacy	خطأ الإدراك المتأخر
Hinduism	الهندوسية
Hofstede, Geert	هوفستيد، جيرت
Holism	الكلية، النظرة الكلية
Holistic world view	النظرة الكلية إلى العالم
Homeostatic system	منظومة الاتزان الحيوى
Homer	هوميروس
Hong, Ying-yi	هونج، ينج – يى
Hu Shih	هو شيه
Human-animal dichotomy	التقسيم الثنائى بين إنسان – حيوان
Hume, David	هيوم، دافيد
Hunter-gatherers	مجتمعات القنص وجمع الثمار
Huntington, Samuel	هنتنجتون، صمويل
Hypotheses	فرض
I ching	الآى شنج [كتاب التحولات]
Identity, law of	الهوية، قانون
ideographs	اللغة التصويرية
Imai, Mutsumi	إيماى، موتسومى
Immoral	لا أخلاقى

Individualism	الفردية
Inference	استدلال
Infinity	لانهائية
In-groups	الجماعات الداخلة
Intelligence measurement	قياس الذكاء
Intelligence testing	اختبارات الذكاء
Irrational	لا عقلانى
Iyengar, sheena sethi	اينجار، شينا سيثى
Jefferson, Thomas	جيفرسون، توماس
Jen	جن (الخيرية)
Ji, Li-jun	جى، لى ــ جون
Jing, Qicheng	جنج، قيشنج
Jones, Edward E.	جونس، ادوارد إى.
Jouvenal, Bertrand de	جوفينال، برتراند دو
Kane, Gordon	كين، جوردون
Kant, Immanuel	كانط، عمانويل
Kieras, David	كييراس، دافيد
Kim, Beom jun	كيم، بيوم جون
Kim, Hee-jung	كيم، هى ــ جونج
Kitayama, Shinobu	كيتاياما، شينوبو

Knowles, Eric	نوليس، اريك
Korzybyski, Alfred	كورزيبسكى، ألفريد
Kuhnen, ulrich	كوهنين، أولريتش
Langer, Ellen	لانجر، إلين
Lao-tsu	لاو ـــ تسو
Lee, Fiona	لى، فيونا
Lee-Angela	لى ـــ انجيلا
Leichtman, Michelle	ليختمان، ميشيل
Lepper, Mark	لبير، مارك
Leung, Kwok	ليونج، كووك
Lewin, Kurt	ليوين، كيرت
Lin, Yutang	لين، يوتانج
Liu, Shu-hsien	ليو، تشو ـــ هسيين
Lloyd, Geoffrey	لويد، جيوفرى
Lock, John	لوك، جون
Logan, Robert	لوجان، روبرت
Lu, Gang	لو، جانج
Luria, Alexander	لوريا، ألكسندر
Luther, Martin	لوثر، مارتن
Mao tse-tung	ماو تسى تونج

Markus, Hazel	ماركوس، هازيل
Masuda, Taka	ماسودا، تاكا
Mc Guire, William	ماكجوير، وليام
Mc Livane, Thomas	ماكليفان، توماس
Merton, Robert	ميرتون، روبرت
Meyer, David	مايير، دافيد
Miamoto, Yuri	ميا موتو، يورى
Middle kingdom	المملكة الوسطى
Middle way	الطريق الوسطى
Mill, John Stuart	ميل، جون ستيوارت
Miller, Arthur	ميللر، آرثر
Miller, Joan	ميللر، جون
Mind-body dichotomy	ثنائية العقل ـ الجسد
Ming jia	مينج جيا (مناطقة)
Modularization	المعايرة
Modus Ponens	الطريقة أو النموذج الأبسط
Mohists	الموهيون
Monotheism	التوحيدية
Moral values	قيم أخلاقية
More, Thomas	مور، توماس

Morikawa, Hiromi	موريكاوا، هيرومى
Morling, Beth	مورلنج، بيث
Morris, Michael	موريس، ميشيل
Moser, David	موزر، دافيد
Mo-tzu	مو ــ تسو
Munro, Donald	مونرو، دونالد
Murray, Charles	موراى، تشارلس
Nagashima, Nobuhiro	ناجاشيما، نوبوهيرو
Nakamura, Hajime	تاكامورا، هاجيمى
Nature-nurture dichotomy	ثنائية الطبيعة ــ التنشئة
Needham, Joseph	نيدهام، جوزيف
Neuroticism	العصابية
Newton, Isaac	نيوتن، إسحق
Norenzayan, Ara	نورنزايان، أرا
Normative analysis	التحليل المعيارى
Out-Groups	جماعات خارجية
Oyserman, Daphna	أويزرمان، دافنا
Park, Denise	بارك، دنيس
Parmenides	بارمنيدس
Peng, Kaiping	بنج، كايبنج

Perceptual-motor	حركى ــ إدراكى
Personal agency	فعالية ذاتية
Piaget, Jean	بياجيه، جين
Place number system	منظومة مكان العدد
Polytheism	الشرك، تعدد الآلهة
Post-formal operations	العمليات بعد الشكلية
Presbyterianism	المشيخية
Probability	احتمال
Pythagoras	فيثاغورس
Raven's Progressive Matrices Test	اختبار رافين للمصفوفات المتتابعة
Raw intelligence	الذكاء الخام
Reasoning	تفكير
Reflective equilibrium	توازن انعكاسى
Riegel. Klaus	ريجال، كلاوس
Rod and Frame Test	اختبار المؤشر والإطار
Rosemont, Henry	روزمونت، هنرى
Ross, Lee	روس، لى
Russel, Bertrand	رسل، برتراند
Sanchez-Burks, Jeffrey	سانشيز ــ بوركس، جيفرى
Sapir, Edward	سابير، إدوارد

Schwart, Norburt	شوارز، نوربرت
Shavitt, Sharon	شافيت، شارون
Shintoism	الشنتوية
Single-motive fallacy	خطأ الحافز المفرد
Situational factor	عامل موقفى
Social structure	بنية ـ هيكل اجتماعى
Sowell, Thomas	سوويل، توماس
Spatial Relations aptitude	استعداد العلاقات المكانية
Spatial skills	مهارات مكانية
Syllogism	قياس
Tai chi	تاى تشى
Tao Te Ching	طاو تى تشنج
Taoism	الطاوية
Tardif, Twila	تارديف، تويلا
Tonnies, Ferdinand	تونيس، فرديناند
Trompenaars, Alfons	ترومبينارس، الفونس
Utopia	يوتوبيا
Vranas, Peter	فراناس، بيتر
Vygotsky, Lev	فيجوتسكى، ليو
Wang, Qi	وانج، قى

Wantanabe, Masako	وانتاناب، ماساكو
Weber, Max	فيبر، ماكس
Westernization	تغريب
Whorf, Benjamin	وورف، بنيامين
Witkin, Herman	وتكين، هيرمان
Wittgenstein, Ludwig	فتجنشتين، لودفيج
Wong, Nancy	وونج، نانسى
Yamaguchi, Susumu	ياماجوتشى، سوسومو
Yang, Kuo-shu	يانج، كيو ــ تشو
Yi, Youjae	يى، يوجاى
Yin-Yang principle	مبدأ الين ــ اليانج
Zeno	زينو
Zero, concept of	مفهوم الصفر
Zhang, Zhiyong	جانج، جيونج
Zuozhuan	جوجوان

المؤلف فى سطور :

ريتشارد إى. نيسبيت **Richard E. Nisbett**

عمل أستاذًا لعلم النفس بجامعة ييل.

يدرّس الآن بجامعة ميتشيجان.

حصل على جائزة الإسهام العلمى المتميز لرابطة علم النفس الأمريكية،

وحصل على جائزة زميل وليام جيمس لجمعية علم النفس الأمريكية.

وحصل عام ٢٠٠٢ على درجة الزمالة بمؤسسة جون سيمون جوجنهايم.

ألف وحرر العديد من الكتب الصادرة عن الجامعة.

يعيش فى آن آربور ـ ميتشيجان.

المترجم فى سطور:

شوقى جلال محمد

- مواليد ٣٠-١٠-١٩٣١، القاهرة.

- عضو المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ـ لجنة الترجمة، منذ ١٩٨٩.

- عضو المجلس الأعلى للثقافة، لجنة قاموس علم النفس فى السبعينيات.

- له تسعة مؤلفات، من بينها:

"العقل الأمريكى يفكر"، "التراث والتاريخ"، "الفكر العربى وسوسيولوجيا الفشل"، "الترجمة فى العالم العربى: الواقع والتحدى".

- وله أوراق بحث فى ندوات ومؤتمرات ومقالات ثقافية وفكرية فى الصحف والمجلات العربية.

- وله أكثر من ٣٥ كتابا مترجما، منها:

"المسيح يصلب من جديد" رواية نيكوس كازانتزاكس، "بنية الثورات العلمية"، "تشكيل العقل الحديث"، "الثقافات وقيم التقدم"، "التنمية حرية"، راجع عددا من الكتب المترجمة.

التصحيح اللغوى: معتز إبراهيم

الإشراف الفنى: محسن مصطفى